كل عام وأنتم بخير،

شبيك لبيك، عبدك بين يديك!

إميل حبيبي

ينتظر أصدقائي أن أخصص كلمتي هذه، لرأس السنة الجديدة، 1996. قلت: "غال والطلب رخيص". ومعناه: أنتم غالون على قلبي حتى يرخص عَليَّ، بالمقابل، كل طلب تطلبونه منّي.

وكان أساتذتنا، في الصفوف الإبتدائية الأخيرة، يسمّون مثل هذا الطلب باسم "موضوع الإنشاء". وكان "موضوع الإنشاء" بنداً أساساً في حصة اللغة العربية. وأرى إلى هذا التعبير الآن، أنه أدق ما تواضعنا على تسميته باسم "الإبداع الأدبي". وكنت شعرت بالإحراج حين ضحك زملائي الأوروبيون من استعمالي كلمة "مبدعين" ــ Creators ــ في التعريف بزملائي الكتّاب في بلادنا، وكنت ألقي كلمتي أمامهم باللغة الإنجليزية. ووجدت بعض اللغات الأوروبية لا تميّز الناثر عن الشاعر. فإما كلهم أديب وإما كلهم شاعر. وأدهشني مترجمي الياباني في طوكيو، حين عجز عن أن يترجم كلمة "حمار" إلى لغته اليابانية أمام جمهور محترم من أهل الثقافة اليابانية. فهم لا يعرفون هذه الدابة وليس لها إسم في لغتهم!

ولكنني اعتذرت، بالشيخوخة، عمّا بدر من زميلنا في مدرسة الحكومة في حيفا، إحسان عباس، من نسيان حين خصصني، في لقاء معه أمام التلفزيون الأردني مؤخراً، بإتقان فصل الرياضيات دون فصل اللغة العربية. فلو كان هذا الأمر صحيحاً، وهو غير صحيح، لما اختارني معلم اللغة العربية في ذلك الزمان، عارف حجازي أخو الشهيد فؤاد حجازي، لإلقاء كلمة الطلاب

في نهاية السنة المدرسية، وتركني أختار موضوعها على راحتي، فاخترت، لتعاستي، عنواناً لكلمتي تلك هو "أخلاقكم قبل علمكم". فتلعثم لساني بين القاف والكاف، وازداد تلعثمي كلما ازداد أسى معلمي وحرجه. وفيما بعد، حين كان أقراني يتبارون فيما بينهم على ترديد اللعبة اللغوية المعروفة - "خيط حرير على حيط خليل" - كنت أستذكر تلك العثرة الصبيانية، فلا أضحك حتى لا يكون الضحك على أمي مثلما جرى المثل الشعبي: "إلعبوا، يا أولاد، واللعب على أمّكم"!

ذلكم كان بعض حياتنا حين كان شعبنا شعباً طبيعياً في وطنه، شأنه شأن كل شعب آخر في وطنه. وليس هذا، فقط، ما يجعل أبناء جيلي الفلسطينيين - القلائل الباقين على قيد الحياة - يشعرون بأنه لا يحق لهم النزول عن المسرح حتى ينقلوا التجربة إلى الأجيال الشابة، المقيمة والعائدة.

فنحن، في هذه الأيام، نودّع العام 1995 من عمر الحضارة التي أنشأتنا وأسهمنا في إنشائها على اعتبار أننا جزء من تراثنا الحضاري العريق. وقد يكون موضوع "الإنشاء" مشتقاً من دورنا هذا. فلا يبقى من القرن العشرين، ومن الألف الثانية على هذه الحضارة، سوى أربعة أعوام. فمَنْ منْ أفراد جيلي، جيل القرن العشرين، سيُقيض له الاحتفال معكم بليلة رأس السنة الأولى من العام 2000؟ يقيناً أن الموت حق على أبناء (وبنات) آدم وحواء، وصدَق شاعرنا الفيلسوف، أبو العلاء المعري، في قوله:

"غيرُ مُجدٍ في ملّتي واعتقادي، نوحُ باكٍ ولا ترنُّم شـادِ
وشبيهٌ صوتُ النّعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل نادِ
أبكتْ تلكمُ الحمامةُ أم غـ ـنّتْ على فرعِ غصنها الميادِ
صاحِ! هذي قبورنا تملأُ الرُّحـ ـبَ فأين القبور من عهد عادِ
خففِ الوطءَ ما أظن أديمَ الأ رضِ إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا، وإن قدُم العهـ ـدُ هوانُ الآباء والأجدادِ
سِرْ، إنْ اسطعتَ، في الهواء رويداً لا اختيالاً على رُفات العبادِ
رُبَّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحُم الأضدادِ"

فقد أشار إلى المعنى نفسه الذي يدور في خلدي وأبدر به استمرار بقائنا

فوق مسرح الحياة، أتشبثُ به على الرغم مما في الشيخوخة من آلام تجعلنا أقرب إلى المقعدين المحترمين حتى يُجازَ لهم أن "يبقوا الحصوة". لقد أصبحنا، على قرب عهد الحياة بنا، من الآباء والأجداد في حياتنا، لم نرتكب القبيح الذي حذّر المعرّي من مغبته، وننتظر المثل من أبنائنا وأحفادنا حتى لا ينقطع حبل التجربة. فهم جديرون بأن يردوا التحية بأحسن منها.

وقد يكون أبو الطيّب أحمد بن الحسين، الملقّب بالمتنبي، قد قصد إلى هذا المعنى نفسه في قوله، في قصيدته العجيبة في رثاء والدة سيف الدولة:

"يُدَفِّنُ بعضُنا بعضاً وتمشي
أواخرنا على هام الأوالي"

فإن "المشي على هام الأوالي" يعني، أيضاً، الإعتماد على هاماتهم العالية وإضافة هامات الأواخر إلى هامات الأوائل. ولن يتم هذا التواصل إلاّ بأن يستوعب الأواخر تجارب الأوائل وألا يوهموا أنفسهم بأن التاريخ يبدأ بهم أو بأنهم "مولودون من الحائط" كما نقول أو "من إصبع جوبتر" مثلما جاء في التراث الأوروبي.

فما بالك وحالة جيلي الفلسطيني أشدّ وبالاً من الحالة التي استهلّ بها المتنبي قصيدته العجيبة في رثاء والدة سيف الدولة، حيث قال:

"نُعِدُّ المشرفية والعوالي
وتقتلنا المنون بلا قتال"!

فلا أعددنا المشرفية والعوالي، وقتلتنا المنون بلا قتال! وشردتنا أيدي عرب وأيدي بقاع الأرض طُرّاً. فأصبحت قضية التواصل بين الأجيال، حتى لا تضيع التجربة، قضية مركزية من قضايا أهل الثقافة الفلسطينيين لا يحق لهم تركها لعوامل العفوية وحدها.

ها هو شعبنا العربي الفلسطيني يعود، رويداً رويداً، شعباً طبيعياً ـ كما الشعوب في سرّائها وفي ضرّائها ـ بعودته إلى وطنه فلسطين حتى ولو كانت هذه العودة أشبه بعودة الجندي الأسير من أسره. عودة تثير القيل

والقال مِمَّنْ يسوى ومِمَّنْ لا يسوى. وأما العتاب الذي وجهته "إخطية" لهم، في روايتي "إخطية"، أن "لو وجدتم من يحبكم غيري لما عدتم إليّ"، فحاشا أن يكون من باب القيل والقال هذا. فهذه هي حال الدنيا كلها ـ شجرة تموت إذا اقتلعت من تربتها. وأما الصُّبّار فيستحيل إفناؤه، حتى في الأندلس، بعد ثمانمئة عام. لوركا ظلّ يغني: "هنا وهناك تتردد أصداء الصبار العربي"! في روايتي عن "لكع بن لكع" كان اسمها بدور. وأما المُغَرَّبون فتعددت أسماؤهم والغربة واحدة. يسألها المهرج عن بدران: "أين بدران، يا بدور؟ فتجيبه: غرق في النهر. فيسألها: أي نهر؟ فتجيب: أي نهر من المحيط إلى الخليج! ـ وبدرية؟ قالت: باعها الأمير في سوق النخاسين! فيسألها: أي أمير؟ فتجيبه: أي أمير من المحيط إلى الخليج"!

ليس من خصال شعبنا تكران الجميل. ولكنه عيل صبراً بطقوس أن يكون "الضيف أسير المعزِّب". ومهما يشتد ضيق الوطن، وضيق أهله بحالهم، يظلّ صدر الوطن أحن على أهله من صدور الغربة كلها، المزَنَّرة بالزرد الواقي!

ليس من خصال شعبنا نكران الجميل، حيثما كان هذا الجميل أصيلاً. إنني أكتب، الآن، موضوع إنشاء ثقافياً مودعاً عاماً ومستقبلاً عاماً جديداً في إطار النشاط الثقافي. ولكن جيلي الفلسطيني يأبى الإنتقال إلى موضوعه هذا، بل يأبى النزول عن مسرح الحياة، قبل أن ينقل تجربته إلى الأجيال القادمة خصوصاً في مجال عرفان الجميل. فقد انتكب شعبنا الفلسطيني بأقصى غاية عرفان الجميل حتى درجة الهبل. فلم ينتبه إلى مغبة استراق حقه في تقرير مصيره بنفسه. فكان عليه أن يجود بأقصى غاية الجود حتى يستعيد هذا الحق الأساس والأول.

كان أفراد جيلي، بعدُ، في شرخ الشباب وفي عنفوانه. كنّا نستشرف عالماً آخر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بالنصر على النازية والفاشية. هتفنا أن "الحرية لا تتجزأ". وتوقّعنا أن تشملنا هذه الحرية. فكان من الطبيعي أن نجنح لكل ما من شأنه أن يساعدنا على تحقيق الإستقلال لوطننا فلسطين. فكان من المنطقي أن نعتبر إستقلال كل بلد عربي عوناً لنا وإغناءً للقومية العربية بتعدد أقطارها وشعوب هذه الأقطار. فكنّا أول من رأى إلى هذه التعددية الوطنية التحررية أنها الطريق الصحيح إلى تحقيق الوحدة العربية. أي باحترام إرادة كل شعب عربي في بلاده وتبعاً لقدراته. فأصبحنا، بهذا الموقف،

محجة لأهل الثقافة العرب في بلاد المشرق العربي كله. وأصبح الموقف من قضية إستقلال فلسطين شأنها شأن قضايا الإستقلال لكل بلد عربي، محك الإيمان بجدوى التعددية الوطنية في إطار القومية العربية الواحدة بحكم الضرورة. هذه بدأت تتبلور الشخصية الوطنية العربية الفلسطينية. وكان من الطبيعي أن يكون أهل الثقافة الفلسطينيون المعبّر الأوضح عن هذه الشخصية الفلسطينية المتميّزة. شأنها شأن تميّز الشخصية الوطنية العربية المحلية في كل بلد عربي.

ويحق لنا اعتبار هذا التبلور للشخصية العربية الفلسطينية المتميزة. أنه جرى في بوتقة الكفاح العالمي ضد خطر النازية والفاشية وما تحمله من عنصرية وعداء للديمقراطية. وبفضل هذه البوتقة تميزت ثقافتنا الفلسطينية المحلية بإنسانيتها وبديمقراطيتها ومقاومة العنصرية واللاسامية.

وكان من الطبيعي أن يواصل أفراد جيلي الفلسطيني، خصوصاً أولئك الذين صبروا وتصابروا على البقاء في الوطن الممزق، التعبير عن الصفات المميزة للثقافة الفلسطينية وللشخصية الوطنية الفلسطينية. فلم نقاوم العنصرية الصهيونية من منطلقاتها العنصرية بل قاومناها من منطلقات العداء للعنصرية، كل عنصرية على الإطلاق. من زمان أدركنا عواقب التطرف وتصوير العدو بصورة غير إنسانية. فلا يمكن تحميل الحيوان غير الإنسان مسؤولية أفعاله. وأولئك الذين يصورون العدو في صورة غير إنسانية. إنما يبرئونه من كل مسؤولية من حيث لا يدرون. وبعضهم يفعلها عن دراية!

ومن حقنا الإعتزاز بنهجنا المنطلق من سعينا إلى أنسنة العدو ولو من أجل تحميله المسؤولية عمّا يرتكبه من عدوان ومن اضطهاد. فعبر هذا النهج أسهمنا في الظاهرة الإنسانية المدهشة. ظاهرة الأطفال الفلسطينيين الذين لا يتراجعون أمام جندي الإحتلال المدجج بالسلاح من أخمص قدميه حتى أعلى أذنيه. فحتى هؤلاء الأطفال أصبحوا يدركون أنه يوجد. تحت ثياب الجندية. إنسان مثله مثلهم في الضعف الإنساني. وفي المقابل فإننا لا نتوقف عن مناشدة زملائنا اليهود أن يكمّلوا هذه المهمة من جانبهم. وذلك حين ينجحون في إنهاء الظاهرة غير الإنسانية والمعيبة. ظاهرة جندي الإحتلال

الذي لا يتورع عن إطلاق النار على أطفال فلسطينيين مجرّدين من كل سلاح سوى إنسانيتهم. ولن نكف عنهم في هذا الطلب. مهما يستمر مثقفون عرب على النهج القديم، الذي أسهم في إنزال النكبة الكبرى بشعبنا، نهج تجاهل وجودنا ووجود شعبنا في وطنه الذي لا وطن له سواه.

ولم يكن إصدار هذه المجلة الشهرية الثقافية ـ "مشارف" ـ سوى التعبير الأولي عن التواصل الطبيعي بين حملة مشاعل الثقافة العربية الفلسطينية هذه، بمميزاتها الخاصة، بعد أن بدأ شعبنا يعود شعباً طبيعياً في وطنه. وقد صدر منها، في العام الذي نودعه الآن، خمسة أعداد بانتظام شهري يستدعي الثقة بها وبنهجها ـ أعداد آب وأيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول (هذا العدد).

وفي هذا العام، الذي نودعه الآن، بدأ أهل الثقافة الفلسطينية يستعيدون دورهم الطليعي الذي تميزوا به في الماضي، وأخذوا يرممون الخرائب التي خلّفها الإحتلال وراءه. عقدوا الندوات في الأدب والشعر والمسرح والرسم والموسيقى والسينما بالإضافة إلى الندوات في الدفاع عن حقوق الإنسان وعن التعددية والدمقراطية. وفي هذا العام ظهرت صحف ومجلات ثقافية فلسطينية جديدة.

ومن تباشير الجدية، في هذا المضمار، الإجتماع التاريخي الذي عُقد في غزة بقيادة شاعر فلسطين، محمود درويش، في 1995/9/16، وضمّ كتّاباً عرباً فلسطينيين من داخل بلادنا مع مجموعة متميزة من رجال الأعمال الفلسطينيين للتداول في وضع الثقافة الفلسطينية ومستقبلها. ونجم عن هذا الإجتماع التاريخي تأليف لجنة تحضيرية لإقامة مؤسسة ثقافية فلسطينية تُعنى بالدفاع عن هذه الثقافة وبتنميتها ـ المؤسسة الفلسطينية للثقافة والتراث. وسوف تتولى ترميم وبناء البنية التحتية للثقافة الفلسطينية، من دور للمعارض القومية وقاعات المسارح والجامعات والمكتبات ودار فلسطينية للنشر وسوى ذلك من المشاريع الثقافية مما يُبشّر بعودة الثقافة العربية الفلسطينية إلى القيام بدورها الطليعي العربي الذي كان لها في أعين أهل الثقافة العرب أجمعين.

كل هذا النشاط المبارك، الأشبه بقنديل علاء الدين الأسطوري ـ "شبيك

لبيك، عبدك بين يديك" ـ جعلنا نتفاءل بأن يكون العام القادم ليس مجرّد عام آخر على الرغم من كل المصاعب والأخطار المحدقة، بل عاماً ينتقل فيه هذا الشعب الصابر ـ نقلة نوعيّة ـ في طريقه المشرّف والمشرق على قرن جديد وألف جديدة.

ونحن، بهذا التفاؤل، لا نستهين بالصعاب التي لا تزال تواجهنا، إنما نُعلن عن إيماننا بأن جيلي الفلسطيني قد أدى ويؤدي واجبه.

فلا تعجبوا، في حالنا هذه، عجب المعرّي في قوله المتداول:

"تعبٌ كلّها الحياة، فما أعجبُ إلا من راغبٍ في ازدياد"

فليس الأمر موقوفاً علينا، رغبنا أم لم نرغب!

إقتراح ملف جديد:

عن هموم السياسي وهموم المبدع

تقترب "مشارف" من اللحظة التي سيكون فيها مَلاً أو مُعاداً، الإستمرار في ملف "صورة الآخر" الذي داومنا على نشره منذ العدد الأول. ونعمل على فتح ملف جديد عن "رأي الآخر" فينا. وهو يحتاج منّا إلى جهد طويل الأمد من الإتصالات ومن الترجمة. فعسى أن ننجح في هذا الجهد وأن يتسع صدر "مشارف" وصدور قرائها لرأي "الآخر" فينا.

ونقترح، في هذه الأثناء الإعداد لملف جديد في "مشارف" يكون موضوعه: "عن هموم السياسي وهموم المبدع". وهو الموضوع الذي عرضه رئيس التحرير في إفتتاحية العدد الماضي، الثالث، من "مشارف": هل من فروق بينها، وما هي، إن وُجدت. وكانت هذه القضية قد أشغلت أهل الإبداع زمناً طويلاً وأشغلتنا، نحن المبدعين العرب خصوصاً، منذ أن فوجئنا برضى القيادات السياسية العربية وخصوصاً الفلسطينية، بالسير في نهج "المصالحة التاريخية".

وندعو، بهذا، زملاءنا وزميلاتنا إلى الخوض الأدبي الصريح في هذا الموضوع الشائك لعلنا ندلي بدلائنا في بحر الحضارة الطامي على مشارف القرن الحادي والعشرين والألف الثالثة في تاريخ الحضارة العريق ـ حضارتنا التي رُدّت إلينا.

"مشارف"

ساعة.. أوقيانوس.. درج.. مرآة مكسورة

محمد حسيب القاضي

- 1 -

ثمة إستقراء بالقلب والعقل لأفق غائم كالجسد الممدد على مشرحة.. بينما زجاجات العقاقير والحقن الفارغة تتبعثر في فوضى ولا مبالاة فوق أرض الحجرة/ العالم.

لعلّ نقطة من شعاع ما تتخلل الجدار وتشفّ وتشفي الباطن من ظلامه.. تفككه إلى عناصره الأولية.. فنعيد إكتشاف أنفسنا، ونضع الإصبع على الوقت.. تضع الوقت على ساعة القلب الدقاقة ونلمس موطن الوجع الخفيّ لا أن نطمئن إلى نعمة الإقتدار على إستضافة الهشاشة والفراغ والعبث..

ما أكثر الكلام وما أقل الجسد.. عبر صور وأشكال مختلفة يملأ الصفحات والشفاه في زمن اللاكلام فلم يبقَ لنا ما نقوله سوى صمتنا المختلط في نوم الكوابيس. نحن الخارجين من الجسد لندخل وقت المعنى المؤجل بحثاً عن اللامعنى الناجز!

بإمكاننا أن نلعب على حواف النهر أو أن نسترخي في قيلولة الظل لكن النبوءة لا تتحقق إلا بعذابها.. ورد اليقين إلى اليقين التائه هو المعنى الأكثر بلاغة من تخمينات الرسل العصريين الذين أتوا من شبهة النوافذ المفتوحة على التاريخ العربي المهيض والمهان.

ماذا نستقرئ بالجسد غير ملمس الوقت المتسرّب في تراب الجسد نفسه..؟ يكاد يشكل الجسد موضوعة (ثيمة) أو سؤالاً عابقاً بطعم المرارة تحت الكلام.. تحت النص المفتوح على الداخل.. سؤال إحتمالي سافر فاحم يبحث عن إمكانية الخلاص من التفكك، والموت الإختياري. ليؤكد لنا أن الحياة ليست وهماً صرفاً.. وبين يقظة الموت، وموت اليقظة، تنبعث غالباً رائحة الشهوة عارمة.. ربما لكي تنتقم من الزوال أو تهيئ لإنبعاث من لا شيء وعودة إلى لا شيء!

هل نبلغ الحقيقة التي توفرها المسافة والغياب؟.. هل من الممكن أن تحدث المعجزة ولو لمرة واحدة وأخيرة.. وتلتئم أعضاء الجسد بقوة الفعل وحراك السؤال الدائم عمّا إذا كنّا نستحق الغياب أم لا؟

لعلنا نحن نسعى للحصول على مؤهلات الكرامة بالإبداع.. أم أنها التبعية والكذب والإغتراب بقية حياتنا؟ (د. يحيى الرخاوي).

هل علك أن نَرُجّ الذاكرة كزجاجة لكي نتجرع دواء النسيان المرّ موهمين أنفسنا بأننا قد نشفى من السؤال والجواب معاً؟

ربما علينا أن نوقف إنشطارنا بين الذات والذات أولاً.. وبين المسافة والغياب كي نعثر على حقيقتنا المطمورة كشمعدان تحت شريط هائل من التخلي والرماد.

ـ إنفعل. إغضب.. مزّق.. إفتح فمنا بقوة وصب في داخله كل ما في الزجاجة.. فلعلك تسارع في شقائنا أو موتنا قبل أن نرى ما هو أشدّ وأنكى!

أنا لم أنفعل.. لا تقلق.. وحتى لو انفلقت فهذا لن يغيّر من الأمر شيئاً.. ما حدث ما زال يحدث.. جولدشتاين ما زال يضع على وجهه قناع البراءة ويطلّ من كل زاوية ومنعطف ليلقي علينا تحية السلام!

- 2 -

مرة أخرى..

الجسدالذي يذهب وحيداً، ولديه الرغبة في أن يلوّح لأحد.. للاأحد.. جسدك الذي لك، والذي ليس لك.. هو أنت وليس أنت على أية حال.

وأن تخرج جسدك من جسدك يعني أن تتحول وترى الوقت الآخر الذي يدحرج ساعاته الكبيرة من مسامك وفتحات جراحك ليصوغ زمنك الخاص.. تكوين جديد؟ ربما تكوين ينشأ من الجدل بين الموت في الحياة والحياة في الموت.. هل يمكن أن تتنفس الذاكرة وتبقى في مراجرة رأسك دون أن تقتلع؟ الذاكرة دائماً مهددة بالنسيان.. ذلك العدو الخفيّ الذي يحاول أن يحدث فيها ثقباً تتسرب منه الأمكنة والتاريخ والإسم.. بل الجسد كله.. هل رأيته جسداً يتسرب من ذاكرة؟!

..وكان وما زال الرهان على أن أفقد ذاكرتي في صراعي التراجيدي مع النسيان.. أن أكفّ عن أن أحلم، وأتذكر وأحب وأكره ـ بكلمة واحدة أن أتقيأ ذاكرتي في أقرب حمام وبعد ذلك أجمع فضلات عظامي وأيامي وأذهب إلى النوم.

لهذا كان علينا أن نحافظ على بقاء تلافيف وعينا سليمة معافاة من أي تلف حتى ولو كنّا نمشي بقدم معطوبة كالتراب.. أن لا نتلف في الغياب نفسه وأن نتلمس طريق النجاة وسط دمار العالم وغباره.

ذاكرة الفلسطيني هي الألبوم الذي يحفظ فيه صور حياته ومراحل عمره المختلفة.. والفلسطيني لا يصاب بالخرف مهما تقدمت به السن، وتألب عليه النسيان والألم

قليل هو الهواء غير الملوث بالكلام والحبر ودخان الجثث.. هل نحن في حاجة للبحث عن ذريعة حتى نفتعل التراسل مع الظل الآخر للمنفى.. منفى الداخل؟

قد نتألم مثل الناي ونتناثر كالشجر في أثناء البحث عن الوطن في الوطن أو نقول أشياء كثيرة تفضح الذاكرة وتكشف عن إثم السؤال في السؤال نفسه من أين نأتي بسحر القوة لنتابع المسافة المأهولة بوحشية الآخر وجحيم أنفسنا؟!

في مسرحية "رفقة" لصموئيل بيكيت تختلط أوراق اللعب، شخص يتخيّل أنه "آخر" أمام نفسه لأنه قريب مما يسمى "الوحدة".. وعلى بطل بيكيت أن يخلق نفسه لمؤانستها فيتخيل أيضاً أنه وقف بعدما كان

مستلقياً لطرد ذبابة. لكنه يعرف أن لا ذبابة في الغرفة.

"ليكن هناك ذبابة.. ولمَ لا؟

ذبابة حيّة تظنه ميتاً!!"

لكن الواقع. هل يحتاج أن نتخيله في الوقت الذي نثرثر فيه عن الحب والحرية ونشتكي من إرتفاع سعر البصل؟

لقد صارت الغرفة بئراً عميقة.. يقول "ريتسوس" والمصباح الوحيد تحوّل إلى نجمة مسمرة في الماء والساعات البطيئة تسقط بطيئة بلا وزن مثل هذا التين. ولا أحد يتكلم. وحتى إذا تكلم لن يسمعه أحد وهكذا لا تبقى سوى الإبتسامة الخرساء التي قد ترتفع في قهقهة تعبّر عن جنوننا الذي نستمد منه القوة للدفاع عن العقل. أو ما تبقى منه في زمن يدعوك لأن تكون مخبولاً أو عاقلاً ولكن على "طريقتهم".

..وفي إعادة وصفنا ربما كان البحث عن صياغة للصعود يعادل بالقساوة ذاتها نزول آدم عريان مطروداً سوى شمعة تخذف النهار خلفه كمزحة ثقيلة!

ومن غير أن تشعر تمد يدنا الخالية من أي انعكاس في فراغات واسعة.. بالشمعة ذاتها التي تسقط منها النار والذهب والصقيع.. وفي تلك اللحظة لا تمسك بغير حدائق اللبلاب الذي يتحصّن خلف بهائه.

- 3 -

"ثمة طلاسم يتبغي فك رموزها لنتحرر من ضعفنا" ("تأملات باسكال").

ليكن ما سوف يكون.. أنت تكبل نفسك بالألغاز كي تتحرر، لأنك لا تريد لنفسك حموداً بل أفقاً!

المهم هو أن نخرج من الكلام المعاد ولا نمتحن أنفسنا بسؤال الضحية عن لون عيون القاتل!

هل علينا أن ننجذب إلى ذات أوسع وأبعد؟

هل يجذبك اللازوردي؟ ــ رومانسية أليس كذلك؟.. فالمرئي أكثر عمقاً وأجمل لأنه يراك ويحس بك وأنت تلمسه في كل شيء.

وعلى أطراف حواسك ترفع المكان كله بين عتمة الداخل ونصف ظلام الخارج.. تبحث عمّا هو نسبي أو مطلق المكان ليس لك تماماً.. فقط لك هواء العزلة. الهواء المشترك مع أنفاس الآخر.. الأمكنة تتأملك وهي ترى فيك سرّ الماضي ككل عابر.. الأمكنة تبقى في الأمكنة وأنت ذاهب في الذاهب.. أو عابر في العابر.. بالكاد ظلك يألفك. وفي غمرة الرهان الطويل سيكون الرماد ثقيلاً على فمنا. وتأخذنا المشيئة لإنقاذ اليقين من خسارته ومن رتوقه المفتوحة على الفكاهة السوداء.

وبلا أهبة لما سوف يأتي.. نبادل الساعات الرملية الغناء.. ونفرغها من الوقت. ونتراكم حتى حافة الفجر إلى أن يوقظنا الرنين من نعاسنا وننحني على أجسادنا التي سوف ينثرها الضوء كطيور مجهولة في عاصفة متدحة!

- 4 -

..النار ذكرى الحريق الذي أكل أصابعنا.. ذكرى الشمعة الوحيدة التي سوف تخرج اللسان ساخرة من

عظام أصابعنا المهترئة..

هل يتسنّى لنا أن نغادر أنفسنا.. ونخلع أشكالنا القديمة غير مبهورين بما سنجده تحتها من تشوهات وغبار وحراشف.. ثم نمشي تحت الضوء القاسي المنبعث من الحريق..؟!

– "هناك محاربون يغتصبون ظلالهم خوفاً من الفجر والوحدة"!

هل علينا أن نستأجر يداً لنمسك الجوهر اللامع ونزيّن به صدر الهباء.. أم علينا أن نتبادل الأقنعة في حفلة الموت التنكّرية؟

في بعض الأحيان تثور فينا الرغبة المستترة في أن نضع قدمنا على الحافة.. لماذا؟!.. ونطلب إلى الهوة أن تلبس قناعاً فكهاً وتستعد للعبة.. وما أن نهمّ بالقفز حتى نشعر بأن يداً تشدنا إلى الخلف وتقول لنا: الظهيرة عالية جداً.. فلماذا لا تختارون الضحى، فهو أقل علواً؟!

وننفجر جميعاً.. ومعنا اليد المجهولة في ضحك أسود ونحن نتراجع عن الحافة وننزل إلى السفح راضين بانكسارنا المؤقت على أن نزهو بامتلاكنا مجد الهوة!!

وما أكثر الذين قفزوا قبلنا من الحافة.. ونسمعهم ينادوننا من أسفل في صدى متكسر ويطلبون إلينا أن نلحق بهم وأن لا نخاف.. ويقولون: الفراغ كثير أمامكم فلا تعتذروا عن تأخركم.. تعالوا بالأبواق كي توقظوا الذهب النائم أسفل.. فالورثة كثرٌ والذهب قليل.. "حمداً لله على ما ليس يدوم".

وما زال الحاذقون على الحافة يحملون سقوطهم الشخصي.. ويتأهبون للقفز بدون مظلة.. بينما الهاوية تمشّط اللمعان بغواية إمرأة!!

ونقول للمشيئة المفتوحة كنافذة أن تظلّ حذرة حتى لا تتدحرج مثل كرة الصوف وتنفرط على أنوال النّاجين الذين يصنعون من جنونهم قصصاً بيضاء..

"أعطني مرآتك كي أرى ما في داخلي من فوضى وأشكال مضيئة"؟

- 5 -

..الآخر الذي هو أنا.. الآخر الذي هو أنت وليس أنت على أية حال.. ها هي المرآة.. أنظر.. تأمل.. لا تخف مما تراه في العمق ذلك أن تنقية الباطن مما علق به من غبار ودخان وندوب غائرة لا توصف بالعين المجردة.. وإنما بغمس الإصبع في العقل المضطرب وجمع الذرات المتنافرة، وإعادة ترميم ما تلف وتفكك.

لهذا يتعين أن نواجه أنفسنا، وأن يضع كل واحد منّا مرآة أمامه ليرى نفسه جيداً بدون رتوش أو ملامح مصطنعة.. ثم يوارب الباب قليلاً.. ويكتشف أن الغرفة مليئة بإنعكاسات الأثاث القديم والملابس الممزقة والأطباق المكسورة، وبقايا الطعام المتعفنة، ورائحة النوم العالقة بالحيطان المقشورة..

لكل واحد منّا غرفته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد وقد لا ينبغي أن يشاركه فيها أحد.. لأنها غرفة بسرير واحد، ومفتاح واحد وآلاف النوافذ المطلّة على النفس والعالم..

في أكثر الأحيان قد تبدو الغرفة موحشة، ومليئة بالأطياف، ولا نجد أحداً يمكن أن يؤنس وحشتنا، فنحدّث أنفسنا بصوت مرتفع لنطرد الوحشة أو نجادل أشخاصاً مجهولين مرّوا في الضوء البنفسجي، وتركوا ظلالهم على الحائط!

أحياناً يحدث شيء من هذا القبيل. ولم يقل عابر إنه قد رآنا بالشمعة نثقب الجدار ونصغي حتى نكون قريبين من بعضنا البعض. ولا كان تبعنا أحد في الأدغال الكثيفة لأننا نسينا أن نترك علامات على الطرق المتقاطعة والموغلة ـ تدلّ علينا.

ربما كانت تكفي دمعة لنرى بحيرةً لأول مرّة خلف السراب.!

- 6 -

ـ من هنا البيت. في أول المنعطف. ثمة درجات ثلاث. وباب. فنتلمّس ظل الذين نسوا في الممر خطاهم وما دخلوا.. لم يقل أحد أنه قد رآهم. كل ما في الأمر أن عيونهم كانت تتبادل أوراق زيتونهم القديم بينما تتأملهم دمعة في مقلة الشاحنة المعدّة لنقل ساعاتهم وبلابلهم وأطيافهم إلى جهة ما.

ربما كنت أسمع في أصواتهم جهشة شاي وأصاليا ليلة الهبوط دون أن يستر عورتهم شيء أمام الله وعيون الفراغ النهمة.

لم يسأل أحد إلى أين؟ لأن أحداً لا يعرف.. كل ما نعرفه هو أننا سنواصل الهبوط عراةً كالأنهار.. لا مرئيين سوى بصيص من سجائرنا المشتعلة تحت فضاء اللحظة والتبهنا على صوت السائق يقول:

ـ وصلنا.

ـ إلى أين؟

ـ إلى لا مكان.

ـ كيف ننزل؟

ـ إنزلوا في الوقت.

ـ كم الساعة الآن؟

ـ لا وقت للوقت.

ـ ماذا نفعل هنا؟

ـ ستنتظرون.

ـ ننتظر من؟

ـ الذي لا يأتي.

ـ ولمَ لا يأتي؟

ـ لأنه لا يأتي

ـ ثم؟

ـ لا شيء سيحدث.

ـ لكنك قلت إننا وصلنا.

ـ وصلتم.. ولم تصلوا بعد!

ثمة ظلال كثيرة كانت تدحرجنا عن سطوح الصراخ وتهوي بنا.. وفي أثناء ذلك كنّا نرى طواويس من الحبر وبهلوانات غير مرحين. وسهاداً من هبوب وخرز ملوّن..

قالت لي أمي:

ـ هذه الخرزة الزرقاء تمنع عنك حسد العين فاحتفظ بها، ولا تجعل أحداً يراها..

وأوشكت أن أقول لها: هذا إن رأت العين ما يسرها..!

* * *

بلاد الله ضيقة، والمدينة أضيق من ثقب إبرة.. وحزننا كالفيل الضخم يطوّح بخرطومه يمنة ويسرة.. ومن أين ندخل؟ وكيف؟

منذ أن فرّ الإله من الباب، دخل اللصوص غرفة نومي.. ولم يتركوا لي سوى العراء..

هل أعطي أمي وصف زيتونة دون أن أنكسر كغصن؟!

لم يلاحظ أحد كما يجب أن الصهيل كان معلقاً كالجلد الناشف في الزوايا.

ـ من سوف يرتدي جلد فرسي.. ويصهل؟

لا أحد.. الكل يموء قرب الحيطان وتحت الأسرّة أو يعوي في فراغ موحش.. العواء المقلوب من فرط الوحشة يبحث عن قمر ليؤنسه!

.ساحةٌ من المرايا، لهاثٌ يخيط النرجس المُتعب من الإنحناء على الغياب والهشيم الذي يملأ اللامكان..

دقات ساعة تؤشر على رقم مجوّف.. والمارة تحت أوقيانوس غائم يوهمون أنفسهم بأنهم ذاهبون في إتجاه أماكن موجودة في بالهم فقط.. بل يصنعون طيوراً من بقايا ثيابهم ليزيّنوا بها فضاءً ليس لهم.

ما الذي يوازي السؤال بسؤال أكثر صعوبة وتعقيداً عن حصان جثة في الفضة.. ولا يجد لغة أوضح للسكوت الذي من ذهب؟

ـ هل ذُبنا في المرآة

مخلفين أرواحنا وراءنا؟

سؤال ديريك ولكوت يعكس إشكالية العلاقة بين المكان واللغة وفي البرهة التي تنعدم فيها شرطية العلامة، يتأسس فعل امتلاك "الآخر" لنا وفي الوقت نفسه تكون اللغة ميدان صراع بين الذات والموضوع.. أو بين "الأنا" و"الآخر". ذلك أن نفي الجوهر يعني بالضرورة إيجاد علاقة قطع مع الجذور لما ينطوي عليه من غياب طوعي أو قسري.. إنه واقع إستلاب يقود إلى فوضى اللاوعي والإلتباس وضياع العلامة التي تحدد الفروق الجوهرية في الملامح والنبرة.

* * *

قد نتواصل الذاكرة حتى تذوب حدود "الوطن" ونتحسس بأيدينا ذلك الفضاء الطاعن في التاريخ والرمز ونعانق أفرع الشجر وذرات الغبار.

هنود الكاريبي في جزر الهند الغربية ـ التي منها ولكوت ـ يفتشون عن نجوم تخصّ قوتهم الداخلية، ويرون فيها أرواحاً تضيء في الليل.. قطعاً أنهم كانوا يردّون في ذلك على فعل إستلاب يهدد المتخيّل الإجتماعي والميتولوجي بالإنقراض والنسيان.

مرة أخرى.. الذاكرة هي الألبوم.. أو ما يسميه يهودا عميحاي الذهاب والإياب في الطفولة (مع أن هذا الشاعر الإسرائيلي الكبير ليس له طفولة في فلسطين)!

فللمخيِّلة سلطة إيحائية هي التي تمنحنا هوية الكتابة بامتياز عن أناس وأماكن وعوالم نتمثلها مناخاً ورائحة ولغةً.. وكأننا نراها لأول مرة ونحولها إلى بنية ملموسة على الورق. أي أن ما نفعله هو أننا ننتقي من ألبوم الذاكرة ما يناسب لحظة إنفعالنا القصوى إزاء إغتراب الخارج/ الحاضر. وما أشدّ وطأة التاريخ حين يصبح ميراثاً مدفوناً في بلاد/ الداخل. أو حين يستحيل هذا "الداخل" إلى مرفأ تلوذ به كالقوارب المحطمة من ضراوة الريح واضطراب العالم المائج من حولنا.

هل كنّا لنصدق أن العودة إلى المرفأ يمكن أن تشفي الروح من الحنين وترمّ بعض ما أصابنا من التلف في رحلة "يوليسيس" الطويلة بحثاً عن باب. أو حتى جدار مائل؟!

..هل حقاً كانت "هي" في انتظارنا بعد عشرات السنين أم واحدة أخرى؟

تلك التي تجلس في غرفتها تحوك كنزتنا الصوف بصنارتين بين أصابعها الخفيفة والمضطربة.. وكلما سمعت دقات على الباب. تفك النسيج وتقول للواقف على الباب أنها ستتزوج به حالما تنتهي من إكمال الكنزة.. وهكذا دواليك.

ليس في إمكان أحد أن يعيّن، على وجه الدقة، ما إذا كانت "بنلوبي" الفلسطينية غازلة الثوب هي أم واحدة سواها لها نفس ملامحها الحزينة ورنة الأسى في صوتها المكسور.؟ لماذا أقول ذلك؟

ذات ليلة ألقت بي الشاحنة العائدة من المنفى في أول الحارة القديمة وحملت متاعي القليل.. ونظرت إلى أعلى حيث توجد نافذة تطلّ على زقاق ضيق.. كانت النافذة مغلقة تتخلل فتحات خشبها المعروق خيوط من الغبار تكاثفت بفعل مرور الزمن.

صعدت درجات السلم ممسكاً بيدي الدرابزين العتيق وأنا أجاهد نفسي من التعب حتى بلغت باب الشقة. توقفت للحظة متفحصاً المكان: هل هذه هي الشقة.. أم أنني غلطت في العنوان؟ نعم هي.. تماماً. الطابق الثالث. الباب هو نفس الباب.. فلماذا التردد والحيرة طالما أنك متأكد إلى هذا الحد؟

مددت يدي في اضطراب واضح لأضغط على زر الجرس.. وانتظرت برهة. شعرت كما لو أنها ترفع جفن العين السحرية وتنظر منها لترى من يكون الواقف على الباب. مرّت برهة أخرى مثقلة بالتوقعات. وأحلام اللقاء التي راودتني طوال سنوات الغربة.

وأخيراً سمعت صوتاً آتياً من الداخل:

ـ سأفتح الباب حين أنتهي من إتمام نسج الثوب.

قلت:

ـ أنا لست أحد الخطّاب.. عوليس.. أجل أنا عوليس يا زوجتي.

ـ عوليس؟ لا لست هو.. لم يقل لي أحد أنه ما زال حياً.

ـ لكنني أقف أمامك.. وأنت ترينني من العين السحرية.. إفتحي الباب وتأكدي بنفسك..

ردّت بصوت واهن:

ـ أنا أراك جيداً.. أنت مبيض اللحية. هرم متهالك؛ وهو لم يكن كذلك.

ـ أنسيت ما يمكن أن يفعله مرور الزمن في ملامح الناس الذين نعرفهم؟

ـ أعرف.. لكنني لم أنتظر كل هذه السنين من أجل رجل عجوز في أواخر العمر!

..لماذا أتيت. أسأل نفسي وأنا أجرجر أقدامي المنهكة نازلاً درجات السلم المتآكلة.. هل كان لا بد أن أعود إلى المنزل القديم مدفوعاً بحنين غامض لمعانقة تلك المرأة التي أحببتها. وعشت على أمل أن أراها مرة ثانية؟

لكن المرأة ما زالت تنتظر.. ترى من ذلك الشخص إذا لم يكن أنا هو الذي تنتظره؟

أنا؟ كيف؟ وهي لا تعرفني البتة. بل تنكر أنني كنت يوماً زوجها وذهبها.. وإنني ربيت نهديها على كفيّ هاتين وبنيت لها عش عصافير بين أصابعي.. آه أصابعي المعروقة التي لم تعد تقوى على حمل حقيبتي الجلدية. أما هي فما زالت شابة مفتونة بجمالها ومحتفظة بسحرها الغامض الذي يتحدى دبيب الزمن هادم كل جمال ولذة..

كان هدير البحر قريباً من الشارع الجانبي عندما خرجت إلى أول الميدان.. وكان الهدير يناديني بصوت عميق متكسّر لأن أعود.. لكن إلى أين؟ ولمن؟ فقد خسرت أشرعتي في صراع الريح. وتساقط مني الكثير في رحلة العودة وشعرت أنني أشبه آدم عارياً أبحث عن ورقة توت أخفي بها عورتي.. لكن لا توجد حتى شجرة توت.. أو حمير ألوذ بها من العراء الفاضح الذي يحيط بي من كل ناحية.

هنا كانت أشجار قديمة ذات جذوع هرمة تجلس فوق تلال رملية منبسطة وحين ضاقت المدينة لم يجد الناس مندوحة من أن يقتلعوا تلك الأشجار ويرفعوا في مكانها المباني العالية التي على هيئة أبراج تطلّ على المدينة في تيه ودلال!

المدينة لم تعد كما كانت من قبل.. كل شيء تغيّر بفعل مرور الوقت.. حتى الناس تغيّروا.. أقرب الناس!

توقف رجل في منتصف العمر كان يعبر الشارع.. نظر نحوي ملياً.. إقترب منّي وسأل في فضول:

ـ هل أنت من العائدين؟

رمقته بابتسامة لا معنى لها دون أن أجيبه.. وانحدرت مع الشارع الطويل في إتجاه البحر.

كان البحر ينأى. والمدينة تتهيأ لتغط في سبات عميق!

(غزة)

صورة الآخر.. أقترب من الآخر ويبتعد عنّي

جميل السلحوت

تتشابك في ذهني خيوط كثيرة عن الآخر تتداخل وتتعقد وتنطوي وتتعارض كأسلاك الجلي "الخريس" الذي إذا ما حاولت أن تسحب واحداً منها لا يلبث أن يتكوّر على نفسه وكأنه يأبى الإستقامة. فقد مررت بتجارب مريرة مع الآخر سلبت الفرح من نفسي تماماً مثلما سلبت الصحة والعافية من جسدي.

(1)

أول ذكرياتي عن الآخر هي في أثناء العدوان الثلاثي على مصر حيث كنت في السابعة من عمري في بداية دراستي في الصف الإبتدائي الثاني. عندما حضرت زوجة عمي وطلبت منّي ومن شقيقي إبراهيم الذي يكبرني بعام، أن ننام ونحن ننتعل أحذيتنا كي نكون على أهبة الإستعداد للهرب من قريتنا جبل المكبر إلى مناطق أكثر أمناً إلى منطقة البراري، حيث كان أبي وأمي يخيمان مع قطيع أغنام كنا نملكه. وعندما تساءلنا عن سبب الهرب، قالوا بأن إسرائيل قد هاجمت مصر وربما ستهاجمنا. وأفهمونا أن إسرائيل دولة عدوانية احتلت غالبية الأرض الفلسطينية وتنوي إحتلال ما تبقّى. لم يحصل الهجوم ولم نهرب. لكن الرعب من الحرب والتشريد انغرس في ذهني منذ ذلك الوقت.

(2)

في العام 1965 أو 1966 لا أذكر بالضبط، اجتاحت القوات الإسرائيلية قرية السموع قضاء الخليل، وعاثت في بيوتها هدماً وفي سكانها والجيش الأردني الذي كان يرابط فيها قتلاً. كنت آنذاك طالباً في المعهد العلمي الإسلامي الذي تحوّل فيما بعد إلى ثانوية الأقصى الشرعية. وكان مقر المدرسة في بناية المؤتمر الإسلامي التاريخية والتي تطلّ على حائط البراق أو حائط المبكى من الناحية الشمالية، واستولى عليها

الإسرائيليون في بداية السبعينات فخرجت مع من خرج من الطلاب في المظاهرات الصاخبة التي كانت تدعو إلى تسليح الشعب للدفاع عن نفسه وعن الوطن.

(3)

في الخامس من حزيران عام 1967 وهو ذكرى يوم مولدي الثامن عشر. كنت على مقاعد التوجيهي، وبعد بدء الإمتحان بحوالي ربع ساعة. طلب منّا مدير القاعة أن ننهي إجاباتنا بالسرعة الممكنة. في حين كنّا نسمع سيارات الدفاع المدني تطلب إخلاء الشوارع، وتطلب من الشباب الإلتحاق بمراكز الدفاع المدني للدفاع عن أرض الوطن. أنهيت إجاباتي بسرعة، وخرجت إلى الشارع لأستمع إلى مذياع في أحد المقاهي. يعلن البيان العسكري المصري رقم واحد "بأن طائرات سلاح جو العدو الإسرائيلي تهاجم قواعد سلاح الجو المصري في سيناء، وأن المضادات الجوية المصرية قد أسقطت ثماني عشرة طائرة منها، وأن الدروع المصرية تخترق دفاعات العدو لتحرير فلسطين" ورأيت بأم عيني الجنود الأردنيين يتمترسون على سور القدس ومآذن مساجدها وكنائسها بأسلحتهم الخفيفة إستعداداً للدفاع عن المدينة المقدسة. وعدت أدراجي إلى قريتي مشياً على الأقدام لأن المواصلات قد توقفت في الشوارع

(4)

في الحادية عشرة من ذلك اليوم الأسود الخامس من حزيران 1967 بدأت الحرب على الجبهة الأردنية، ومنها القدس، وتركز الهجوم في بدايته على قريتنا جبل المكبر كونه جبلاً إستراتيجياً. وتعرضت قريتنا لقصف مدفعي ثقيل من مدافع الدبابات ومدافع الميدان، وقصفت الطائرات الحربية الإسرائيلية مواقع وتجمعات الجيش الأردني، فاضطررنا إلى الهرب باتجاه البراري إلى الشرق، وكانت قوافل الهاربين المتبين من ويلات الحرب بالآلاف. ولن أنسى منظر تلك المرأة التي تركت طفلتها الرضيعة على جانب إحدى الطرقات وهربت بابنها البالغ من العمر سنتين. عندما حلّقت طائرتان إسرائيليتان، وأطلقتا نيرانهما على جنديين أردنيين في المنطقة.

(5)

في اليوم الثاني للحرب، كان رتل من السيارات العسكرية الأردنية ينسحب عبر الطريق الترابي بين الخان الأحمر والعبيدية وكان في مؤخرته جيب عسكري فيه إلى جانب السائق ضابط وجهاز إرسال، وعندما سأله أحد الشيوخ: إلى أين؟ أجاب والدمع ينساب على وجنتيه، لا تتركوا بيوتكم؟ سنعود بإذن الله.. فتيقنت من أن الهزيمة قد وقعت وبكيت بمرارة.

(6)

في اليوم السابع للحرب كنّا أنا والراعي نسقي الغنم عند أحد الآبار، ووضعنا الخبز والجبن لنأكل وظهرنا للشارع ولم نصح على أنفسنا وإذا بأربع سيارات عسكرية إسرائيلية تقف خلفنا ويترجل جنودها ويسيرون باتجاهنا، وكانت بصحبتهم حسناء بلباس البحر، فانتابنا خوف شديد وتوقفنا عن الأكل وبدأت ألفّ سيجارة "هيشي" من دخان الراعي ولم أتقن لفّها، فسألنا الجنود ماذا نعمل هنا؟ فأجبناهم بأننا رعاة، فتكلموا مع بعضهم البعض وعاد أحدهم إلى السيارة وأحضر معه معلبات وبسكوت وسجائر أعطاها لنا وانصرفوا، فقمنا بدفنها في الأرض كي لا تطالها يد إنسان خوفاً من أن تكون مسمومة!! وبعد ذلك عدت إلى بيتنا في جبل المكبر، والحق يقال أن سبب عدم رحيلنا إلى الضفة الشرقية يعود إلى حكمة والدي رحمه الله، عندما كرر أكثر من مرة بأن الموت في الوطن أشرف من الحياة خارجه.

(7)

وفي السابع والعشرين من حزيران 1967، قامت الجرافات الإسرائيلية بهدم الحواجز بين شطري القدس العربية والإسرائيلية بعد أن اتخذ الكنيست الإسرائيلي قراراً "بتوحيد القدس" من جانب واحد، ومخالفاً لكافة الأعراف والقوانين الدولية ولرغبة السكان العرب الفلسطينيين، فاغتنمت الفرصة أنا وأحد الأصدقاء لزيارة الوطن المفقود الذي كنّا نأمل أن ندخله محرراً فدخلناه كالأسرى بعد إحتلال جديد.

وفي القدس الإسرائيلية، شاهدت أشياء لم أكن أتوقعها، فكل معلوماتي عن الإسرائيليين أنهم قطّاع طرق ولصوص تبذتهم بلدانهم في أوروبا، وجاؤوا إلى بلادنا ينهبون ويسرقون، وأنهم مجرد عصابات لا تلبث أن تتفكك وتنهار في الوقت المناسب. فقد شاهدت شوارع نظيفة، وأسواقاً عامرة، ومدارس ومستشفيات وحدائق وعمراناً هائلاً وهذا لم أكن أتوقعه. ومشيت في ذلك اليوم كثيراً ورأيت عجباً كثيراً، ورأيت الإحتفالات والرقص والغناء، هكذا كانوا ولا يزالون فبكيت من ذل الهزيمة ومرارة الإحتلال، الذي كانت جرافاته تهدم حارة الشرف داخل سور المدينة المقدسة تمهيداً لبناء الحي اليهودي، فأقسمت بعدها أن لا أدخل إلى داخل "الخط الأخضر".

(8)

في التاسع عشر من آذار 1969، اعتقلت بتهمة الإنتماء إلى فصيل فلسطيني مسلّح، وتعرضت لمعاملة وحشية في معتقل المسكوبية الرهيب وشاهدت خلالها المرحوم قاسم أبو عكر وهو يموت تحت التعذيب وتلفق له بعدها تهمة الإنتحار!! وأوقفت بعدها لمدة ثلاثة عشر شهراً في سجن الدامون، لأخرج بعدها مصاباً بتقرحات مزمنة في الجهاز الهضمي من المعدة حتى القولون الذي استأصله الأطباء من جسمي في تشرين الأول 1994 بعدما بدأت تتحول التقرحات فيه إلى أورام خبيثة، وبانزلاق غضروفي في

العنق وأسفل العمود الفقري، وحُدِّدت إقامتي في القدس العربية لمدة ستة شهور.

(9)

وفي تموز 1971 تعرفت على الوجه الآخر للمحتلين، عندما انتقلت من أحد المستشفيات العربية في القدس المحتلة إلى مستشفى "هداسا ـ عين كارم" وأنا على مشارف الموت، فلقيت معاملة طبية وإنسانية لم أكن أتوقعها من قبل، حيث تم إنقاذ حياتي، وإن حكم عليّ باستعمال الدواء حتى الموت. لقد رأيت في المستشفى الأطباء والممرضات الذين يمثلون الإنسان الإنسان في إسرائيل.

(10)

لقد منعني المحتلون من إكمال دراستي الجامعية، وهو حلم كنت أتمناه دائماً. فبعد خروجي من المستشفى قررت الإنتساب إلى جامعة بيروت العربية، وكنت أحصل على تصريح يبدأ قبل بدء الإمتحانات بيومين وينتهي بعد انتهائها بيومين. وفي هذه الفترة عملت في الورش مع مقاولين إسرائيليين، فغالبية العمال الإسرائيليين الذين كانوا يتقنون حرفة كبناء الحجارة والنجارة، تحوّلوا إلى مقاولين أثروا على حساب العمال الفلسطينيين من الأراضي المحتلة. وفي الورشات الإسرائيلية عشت العبودية بكل معانيها، ورأيت كيف يستغل الإنسان أخاه الإنسان، ورأيت التمييز والقهر القومي بأبشع أنواعه وأشكاله وصوره. كما عملت فراشاً في أحد الفنادق الإسرائيلية، وكانت مديرة النزل كلما يسرق شيء من الفندق تتهم العمال العرب وتبرئ العمال اليهود. وفي إحدى المرات تم القبض على السارق اليهودي ولم تتراجع عن إتهامها للعرب بالسرقة، فتركت العمل إحتجاجاً بعد أن شتمتها شتائم مقذعة.

(11)

كان الآخر يتعامل معنا في الورش بفوقية واضحة، حتى زملاؤنا في المهنة لم يكونوا يعتبروننا بشراً مثلهم. لذلك كانت لهم إمتيازات أكثر منّا، وأجورهم أعلى من أجورنا. وكنا نتعرّض للتفتيش مرّات كثيرة بحثاً عن مسروقات، في حين كنّا نتعرض في الطرقات للتفتيش البوليسي الذي كان يدقق في هوياتنا، ويفتش جيوبنا في بعض الأحيان ويوقفنا تحت الشمس أو المطر، وأحايين أخرى حسب مشيئته. فتيقنت أن الفلسطيني في نظر المحتلين دائماً متهم حتى تثبت براءته.

(12)

زرت يونا سلمان الذي كان يعمل في مكتب المحامية "فيليتسيا لانجر" التي دافعت عنا بأمانة وإخلاص

في السجن. وهو يهودي من أكراد العراق وكان شيوعياً إنساناً. لم يتخلَ عن العادات العربية التي اكتسبها في العراق. زرته أكثر من مرّة في بيته وتعرفت على والديه وإخوته. وتعرفت على أخيه نعيم الذي أُبعد من سجن نقرة السلمان في العراق إلى الطائرة مباشرة من مطار بغداد إلى مطار تل أبيب عام 1951. وهو لا يزال يحتفظ بجواز سفره العراقي المختوم على صفحته الأولى بالحبر الأحمر "مجرم شيوعي". وتعرفت من خلالها على يهود عراقيين لا يزالون يتحسرون على أيام العز التي عاشوها في العراق ويفتقدونها في بلاد السمن والعسل.

(13)

تعرفت على كتّاب وشعراء إسرائيليين مناهضين للإحتلال منهم "ناتان زاخ" و"يورام كانيوك" و"يعقوب بيسر" و"دافيد غروسمان" و"سامي ميخائيل" و"داليه رابيكوفتش" و"شمعون بلاص" و"ساسون سوميخ" وآخرين. ووقعنا وعدد من زملائي الفلسطينيين معهم مسودة إتفاقية سلام بين دولة فلسطين ودولة إسرائيل في العام 1986. نصّت على ضرورة قيام دولة فلسطينية بجانب دولة إسرائيل، وانسحاب إسرائيل من كافة المناطق المحتلة في حرب حزيران عام 1967، وأن تكون القدس عاصمة للدولتين، وإيجاد حلّ عادل لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين. وقد كان الدور الرئيسي في عقد هذه اللقاءات للأديب إميل حبيبي. كما شارك فيها معظم إخواننا من الأدباء والشعراء الفلسطينيين في الداخل. وتعرفت أيضاً على غالبية الصحفيين الإسرائيليين الذين يغطون أخبار الأراضي المحتلة مثل، يهودا ليطاني وداني روبنشطاين، وأوري نير، وميخال سيلع، وبنحاس عنبري، ويورام بينور وآخرين.

(14)

في أواخر العام 1988 وبعد أن تبنى المجلس الوطني الفلسطيني إعلان الدولة الفلسطينية، نشطت مع من نشطوا من أبناء شعبي في إجراء لقاءات مع قوى السلام الإسرائيلية وشاركت في عدة لقاءات معهم، جزء منها جرى في بيتي. وتعرفت على أناس ناشطين في حركة السلام منهم أعضاء الكنيست ران كوهن، ودادي تسوكر، وحاييم أورون "جومس". كما تعرفت على هليل باردين وسارة كمينكر. كما تعرفت على عيران طاووس الذي كان مراسلاً لصحيفة "عل همشمار" في المناطق المحتلة، وساعدته كثيراً في الحصول على الأخبار، وزارني عدة مرات في بيتي وكان يبدو كصديق ودود. وبعد دخول "ميرتس" في الحكومة عمل وكيل وزارة مع يائير تسبان، وزير الإستيعاب. ومنذ تلك اللحظة قطع علاقته معي. كما أنه لم يرد على إتصالاتي التلفونية.

كما تعرفت على فيرونيكا، تلك المرأة المتدينة التي من خلالها تأكدت أنه يوجد يهود متدينون يؤمنون بالسلام أكثر من إيمانهم بأرض إسرائيل الكبرى. وتعرفت أيضاً على البروفيسور شلومو الياز، رئيس منظمة صغيرة تدعى "منظمة يهود المشرق من أجل السلام" وهو من أصل مغربي. وتعرفت على أوري أفنيري.

وموشيه عميراف وعلى آخرين. كما ألقيت أكثر من محاضرة في أكثر من مدينة إسرائيلية طرحت فيها وجهة نظر شعبي السياسية ممثلة بقيادتنا الشرعية والوحيدة، منظمة التحرير الفلسطينية.

(15)

أثناء لقاءاتي مع قوى السلام الإسرائيلية، كانوا يلحّون علينا بضرورة أن نسمع وجهة نظرنا للشارع الإسرائيلي. ففعالية الإسرائيليين حسب رأيهم محبة للسلام لكنها لا تثق بأن الفلسطينيين يريدون السلام حقيقة. والآن وبعد إتفاقيات السلام المبرمة بين القيادة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية، وبعد قيام السلطة الوطنية الفلسطينية وعودة القيادة التاريخية للشعب الفلسطيني إلى أرض الوطن، فإن المذهل أن الإسرائيليين يتهربون من السلام، حكومة وشعباً، مع أنهم حققوا من السلام مكاسب لم تستطع قوتهم العسكرية تحقيقها. وهل يعي الآخر أن الذي سيحافظ على وجوده هو السلام والسلام فقط؟ إنني أشعر أننا كلما اقتربنا من هذا الآخر خطوة يبتعد عنّا خطوات، بل إنني أشعر أن الآخر يقوم بتحريض شعبي بالوقوف ضد السلام من خلال سياسة الحصار العسكري التي يفرضها على المناطق الخاضعة لسيطرة السلطة الوطنية الفلسطينية.

(جبل المكبر - القدس)

الآخر ليس شيطاناً ولا أخوياً
إنّه عدوٌّ فحسب

باسم النبريص

صورة الآخر سوف تجدونها مُرفقة طيَّ كتابتي (شعراً ونصوصاً). أمّا الكتابة عن (الآخر) عبر دهاليز الذاكرة وتبدّيات الوعي، فلا أعرف حقاً كيف سأبدؤها، أو من أين أنهيها. سيّما وقد أخذ هذا (الآخر) من عمري – حتى كتابة هذه السطور – أكثر من نصف مساحته.

ولسبب، لا يعرفه إلاّ الله والشيطان وربما أنا (وأنتم من بعدي)، أخشى أن أقارب تجربةً – هي عندي لم تزل أحلاماً وعوالم ورؤى وكوابيس ويوتوبيا واستغاثات: تعاودني وتلاحقني وتطلعُ لي في نومي القليل وفي يقظتي الحارقة.

أخشى خشية الخطَل وخشية الإستبهام مقاربتها بهذه المساحة المُحدّدة في صفحتين. لأن التتويج الوحيد المرتقب من هكذا حصاد هو: الحماقة! والحماقة المسلوقة تحديداً وتشديداً. سواء أعطيناها كالعادة إسماً مهذباً من شاكلة (المُختصر المفيد) أو من ماركة (التلخيص المُخل) أو حتى (الإختزال الواجب للضرورة). أو، في المقابل، جاهدنا في تجاهلها بطردها مع زفير الرئتين إلى خارج الحلق والحنجرة كُليّاً.

والسبب الذي يمتلك قدرةً لا نهائية على التشظي والإنشطار إلى سُبيبيّات لا تُحصى، هو أنكم – بطلبكم هذا – وبموافقة صامتة مني، سحبتم وتسحبون البساط من تحت فكرة كبيرة ونبيلة. خاصتي. هادئة ونامية ومُستقرة في الأعماق. فكرة ملأت حياتي وشغلتني. وها أنا أتفقدها في الصباح والمساء، وأشملها بحربي وحناني وأحياناً غضبي. حتّى تستوي ناضجةً ومتفرّدةً ومُعطاة. لا تشاكسني في تدوينها صياغةٌ. ولا تخذلني لغةٌ روّاغةٌ. ولا يهمّني ولا يهمها هي أيضاً: حساب الزمن.

إنها يا سيادة. فكرة سوف تتسع وتكبر – بإذن واحد أحد غير أمريكا – إلى أن تصير في حجم كتاب أدبي محترم. لعل عنوانه الأوليّ سطع في المخيلة منذ سنتين – إحتلالية وأوتونوميّة – (في لحظة خروج فجر من ليل: أي في لحظة من تلك اللحظات العرفانية الرحمانية. التي لا يعرف أكثر البشر حلاوتها وبهاء ميتافيزيقاها) مُتخذاً – أي العنوان – هذا السمت الكليشيهي للهيب: (الآخر في حياتي).

ألا ترون إذن. أنكم بمسعاكم هذا "تخرقون الفيلم"؟

مُتكئين، كعادتكم، على نوبتيات هنية وحسنة. يعرف اليوم أنصاف العلمانيين المُحدثين على شاطئ الماء المالح وهافتة الميتافيزياء الوالغون في الجامع والجامعة، والكنيس والكنيسة، أنها ـ النوبتيّات ـ لا تؤدي إذا أدّت، إلا لطريقين، هما فقط الجحيم والجحيم؟

لا بأس لا بأس، سأتواطأ معكم قليلاً. ومع نفسي المُحبّة أن ترى إسمها مكتوباً في "مشارف" وليس في دفاتر الحكومة (هنيئاً لنفسي وللحكومة معاً!).

وليتأجّل مشروع الكتاب حتى يوافي الأجل والكتاب. فينتقل صاحب الأول من عالمه الثالث ذي السؤال الإستراتيجي، الأكثر والأوسع شهرة (ثقافة مين يا عبدو)، إلى العالم الثاني الرؤوم المُترف، فهنالك، على ذمة الرواة ومُعيدي إنتاجهم في كل زمان ومكان، لن يكون "كيس السُكر" مثلاً بمائة وعشرة شواكل، ولن يوجد أطفال عفاريت تلفظهم بيوتهم من السادسة صباحاً حتى الواحدة مساءً، فلا يعرفون مزايا وميزات النوم قبل منتصف الليل؛ ولا يجعلون غيرهم ينام أو يجرؤ على الكتابة قبل هذا الوقت.

وبعد، وبعد.

أخذتني الإستطرادات، فلأنتبه في القادم أكثر، ولأضع نهاية لهذا العبث الرديء، ولأذهب إلى الموضوع مباشرةً، فهذه الكتابة السيئة المُنفلتة (التي حملتني كالثور على قرنيها، ودارت على كل سطر آخذةً على عاتقها، مسؤولية خبره وتسويده، بما يشبه الهذيان) إذا استسلمت لها ـ وها أنذا فاعل ـ فسوف تقتلني وتطرد قارئي كذلك.

لأستردّ، إذن، سياقي على شطحاتها، سامحاً لها بقدر معلوم فقط، آخذاً سمت الرقيب الشاطر حاكماً هذا النوع "الجعيص" والمشاكس من الكتابة الفاشر بكل ما لديّ من قارب وقاريب.

فلأبدأنّ من حيث بدأت، راجعاً إلى (الآخر)، أليس من أجل هذا جئنا؟!

* * *

بيتح ـ بغداي

* * *

بيد أن شرف الحقيقة ـ التاريخي والجاني في آنٍ ـ يستتبع منّي أن أبدأ من الأول، منذ يوم 13 حزيران 67، حيث رأيت للمرة الثانية (كانت الأولى عندما طاردني جنديٌ أزرق العينين من طائرة هليوكبتر (عنكبوتة ضخمة) خفيضة الطيران، أثناء الإختباء مع الأهل تحت أكاسيا الأحراش، وكان يضحك ويعاود الكرّة وقد أعجبته اللعبة، فيما أنا خائف بالغريزة، ولا أفهم جيداً) ذلك الجندي الإسرائيلي حارساً على بوابة مدرسة "الست حياة" بجوار بيتي مباشرة. كانت مدرسة الوكالة قد اختيرت مكاناً لتخزين مئات الأطنان من "أشولة الدقيق"، من قبل الإدارة المصرية، استعداداً ـ على ما يبدو! ـ لحرب وشيكة الوقوع.

وكنّا نحن سكان المخيم المجاور قد عدنا ـ والعود أسود ـ إلى منازلنا أو بقاياها، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، وحُسمت الأمور على نحو لا يحتمل المزاح أو المكابرة. كان معظم العائدين على حافة الجوع والأنيميا. فما كان من "الرجال الكبار" إلا أن هجموا على محتويات المدرسة، من طحين وسكر وجالونات

سيرج وأثاث.. إلخ. وتمّ ذلك بشكل فيه وفرة من الجشع وصل حدّ السرقات من بعضهم البعض والتشابك بالأيدي. وكنتُ أنا وأخي وأمي وأخَواتي أو ما اصطُلح على تسميتنا بـ (أولاد الأرملة) وهذه التسمية شائعة إلى الآن!

كنّا ننظر إلى المشهد ـ وسط غبار وضوضاء الهوجة ـ فيما الحسرة والحسد يندلعان ويرتفعان في دواخلنا. ألا ما أقساها قلّة الحيلة.. وهوان الناس على الناس. كنتُ طفلاً في السادسة. وكان الأب/ البطريرك ذو الزوجتين والأربعة عشر إبناً وبنتاً، والألف وخمسمائة دونم في "لجد". قد شبع من مذلّة اللجوء في المخيم، ولم تعد تنطلي عليه "لعبة الوعود"، ولم يعد يعجبه هذا العالم. ففعلها ومات قبل عامين بمرض السكر، مورّثني إياه.

ولم يكن لنا ـ في معمعة الطحين تلك ـ سوى الحصول على فُتات الفتات من جيراننا وأقربائنا بعد رجاءات كبيرة ومجروحة.

(ألا فلتذهب كل الميتافيزياء والفيزياء غير العادلتين إلى قاع الجحيم!؟).

* * *

أذكر ذهبت لرؤية الجندي، حالما شاع خبر وجوده، ضارباً عرض الحائط بتخويفات أمي من أنه "يهودي" وله "ذَنَب".

لم تكن أمي عنصرية، ولو انحرف تفكيركم إلى ذلك فستكون عبثاً ومُضحكاً. كانت، فحسب، إمرأة بسيطة غلبانة تقول ما سمعته وحسبته حقيقة ناجزة.

ذهبتُ ورأيته على حذر وتوجس (هل كنت أعرف "التوجّس" أيامها!؟) اللعنة على الوعي كيف يشوّه رغبة الصدق فيواشجها بالكذب!

رأيته. وبعد وقت ألفته (فقد كان يبتسم ويضحك). فسألته أن يُعطيني طحيناً لأن "أبوي ميّت يا خواجا". ألا ما أثمن هذا الإمتياز الخاص في شرق سيّال العاطفة وستمنتاليّها!

وكان المُدهش والمُحيّر أنه نفحني ربع كيسٍ ولم ينهرني. بل أضاف إلى ذلك بعض شرائح "اللبخم" مدهونة بالشيكولاطة.

عدتُ إليهم ـ وقد جبتُ الذهبَ من ذيله ـ ومن؟ من يهوديٍّ لا ذَنَب له ولا "طيز سعدان". يحمل بارودة ويتكلم مع الناس مثله مثلهم تماماً.

أحببتُ ذلك الجندي آنذاك. أظنّه كان بُلغارياً. أحببته أكثر من الرجال العرب. والسبب معروف.

وللتعبيرعن حبّي سلوكاً. ملأتُ إبريقاً بلاستيكياً مما هو شائع الآن في دورات المساجد. وذهبتُ مزهوّاً إليه. لكنه رطن كلاماً غريباً. وحين لم أفهم. استخدم لغة الإشارة. ففهمت أنه ليس بعطشان.

رجعتُ إلى البيت. لأجدني محسوداً من أخواتي على جُرأتي. ومُقدّراً أيضاً.

* * *

ثمّ كرّ الزمن في جريانه السرمدي. طاوياً ست سنوات من العمر. وذهبتُ في عطلة صيف 72. لأعمل في

المنطقة الصناعية المشتركة بين يافا وتل أبيب، جامعاً للـ "نسورت" (نشارة الخشب) من مناجرها القديمة والأحدث تطوراً.

كنتُ أبيت هناك، وأعود إلى الجحيم مرّة وأحياناً مرّتين في الشهر. كان عملي قاسياً. أدخلُ في قبو المتجرة الضخمة، وأعبّئ النشارة في أكياس نايلون تساويني في الطول، فيما مضخّة النشارة الآليّة الطرّد تساقط جحيمها المروّع عليّ، وسط عتمة تامة. أواجههما ـ النشارة والعتمة ـ بسعال مخنوق. وعندما أخرج يكون "المنهيل" مُنتظراً في عربيته البيجو التندر لنصفّ ونرتّب الأكياس. وهكذا، طوال 15 ساعة في اليوم. رئتان غصّتان عرفتا التدخين لأول مرّة، هناك. وعرفتا ما هو أشنع وأفظع: نشارة الخشب الخشنة والناعمة.

كان مُعلمي يُنظفني بهواء الـ "كُمبريصا" المضغوط، ويأخذني في نهاية يوم العمل إلى (براكيّات خشبيّة) حيث أنام مع خمسين عاملاً عربياً معظمهم من غزة وقرى المثلث. كانت هذه البراكيّات محفوفة بأشجار هائلة هرمة من التوت والتين والتفاح وأنواع لم أعد أذكرها. ومن هنا أخذت ميزتها الفارقة، وسلبيتها أيضاً.

ميزتها في أنها بعيدة عن السكان والشرطة، وسلبيتها في هذا البعد بالذات، حيث أغرت محترفي الدعارة، ومتعاطي السموم ومن يعيشون على الهامش، بالإختباء فيها كملاذ نموذجي.

كم مرّة وجدتُ صبية عارية تماماً وفي حالة غيبوبة؟ مرّات

وكم مرّة تلصصتُ على حفلات جنس جماعي؟ مرّات

وكم مرّة سرقتُ من متع علاقاتهم؟ مرّات

وكم مرّة ضبطتُ قطعاً من الحشيش مُخبأة أو متروكة؟ مرّات

....

وحين تتجوّل ذاكرتي في تفاصيل تلك الأيام وشروطها ومواضعاتها، أسأل نفسي مراراً: كيف نجوت من شرط السقوط؟

إنه سؤال يجب أن يوضع في مركز الإنتباه. لم أكن أملك آنذاك سوى سذاجتي وعفويتي. فكيف إذن لم أسقط؟

كان نصف زملائي من العمال، عرباً إسرائيليين، وكانوا جميعهم يشربون ولهم علاقاتهم النسائية الواسعة.

أما النصف الآخر وهم الغزيّون، فكانوا بينَ بينَ، بعضهم يُصلّي والآخر لا تعنيه السماء، ولا يرى أكثر مما تراه عيناه.

هل هي الحصانة الغريزية، ما حفظتني؟

أم تديّني الوطيد بالفطرة؟

أم تربية البيت؟

أم وعيي الجنيني بأنّ عليَّ مسؤوليات رب بيت صغير؟

وأن ظروفي تختلف؟ وأنني بحاجة إلى كل قرشٍ.

أم كل ما سبق مُضافاً إليه رحمة ربي ورعايته؟
لعله كل هذا جميعاً.

* * *

ولم أكن قديساً، ولا أريد. فأنا أحب آدميتي، وأحاول أن أطوّر البشريّ فيها إلى مستوى العصر وامتحاناته.
ولقد وجدتُ في المجتمع الإسرائيلي مجتمعاً عصرياً بكل ما له وما عليه.
كان مجتمعاً مُغايراً لذلك المجتمع الذي جئت منه.
وكان لا بد للعبة المُهلكة، لعبة المقارنات، أن تستهلكني وما كان أظلمها.
كنت أقارن في كل صغيرة وكبيرة بين غزة وتل أبيب، وكانت تل أبيب بالطبع تكسب.
ولم تكن ثمّة ضحية لكل تلك المقارنات غير العادلة وغير المنطقية، سواي!
كان لا ينبغي من البداية أن أسقط في شَرك كهذا، ولكنّه مستوى الوعي آنذاك، هو الذي جعلني أتمادى فيما يسمونه اليوم (جَلد الذات).
كانت تل أبيب تجلدني وغزة في تخلّفها الذي لا شفاء منه كذلك، وكنت طريد وضحيّة المدينتين!

* * *

ولم أكن قديساً، ولا أنا مدعيّ حرف القداسة. لقد أخذت من الرسول الكريم على طريقتي، نصف ذلك الحديث الذي نصّه (إعمل لدنياك كأنك تعيشُ أبداً). ولقد فتنتني نصيحة هيجل الماسيّة مُبكراً (إسعوا أولاً نحو المأكل والمشرب، حينذاك ستنزلُ لكم مملكةُ الرب بنفسها).
ولم يكن العمل الذي أشار له الرسول، في وعي ذلك الزمان غير العمل في المتاجر، ولم يكن المأكل الهيجلي سوى أرغفة "الليخم" وعدس خانيونس وأكواز لبن "تنوفا" و"تكنيك" شوشانا. أما مملكة الرب فكانت، في خاطري وخافقي، هي (نيكفوت إسرائيل) بامتياز!
لقد بهرني أول ما بهرني في المجتمع الإسرائيلي، عُري الجسد الأنثوي ببهاء تجلياته. هذا العُري البادخ الفاحش البهيج حدّ الذهول.
كنتُ أنظر وأحدق، ثم يلفّني الدّوار.
يا الله كم هنّ جميلات وعفيّات، لا تشبع عين الفتى ولا (الشيخ) من النظر إليهن.
كان أشدّ ما أغواني فيهنّ: لمعان أجسامهن، ورشاقتهن، ونظافتهن البالغة، وعلى ما أذكر، خلوهن ـ جميعاً ـ من القبح العادي، لم أرَ ثمة فتاة أو سيّدة قبيحة، لكلٍ جمالها الخاص، وتعرف كيف تتعهده وتبديه في أجمل صورة.

* * *

منذ ذلك التاريخ (72) وحتّى ما قبل أربع سنوات (91) تاريخ منعي من الدخول إلى إسرائيل لـ "أسباب أمنيّة" حسب ضابط المخابرات، وأنا أعيش كإنسان وكشاعر على تماس حميم مع هذا "الآخر".

لعلّ من مفارقات الصدفة اللئيمة (والحياة نفسها صدفة لئيمة) أن يكون النصف الأهم من العمر هو ما (تبدده) في خدمتهم: عاملَ عمار ومزارعاً، وكنّاساً، وحارساً ليلياً، وجامعَ نشارة، ومساعدَ حلوانيّ، وأخيراً: حلوانياً (وهذا العمل الأخير دام 10 سنوات).

لقد امتلأ العمر المباح، أكثر ما امتلأ، بالـ (مُعلمين) اليهود.

كم مُعلماً استفاد وأثرى من طاقة هذا الجسد الذي انحنى ونحُفَ قبل الأوان؟كم مُعلماً استغلّه واستغلّ نباهةَ المخ فيه؟

كنت تفهم نصف حديث الرسول، على الطريقة الألمانية، وكأن الغاية القصوى من الحياة هي العمل.

كم كان فهمُك مغلوطاً، وكم كان باهظاً الثمن. ومرّة أخرى تواجه ذلك بحريق سؤالها الكبير: كم معلماً مرّ عليك، وكم معلماً بدّلت، بأكثر مما بدّلت حذاءً بحذاء؟

لستُ على العموم من هواة لبس الأحذية حتى هذه الساعة.

وإذا كان الحديث تداعيات وقوافي فلستُ أيضاً من هواة لبس الساعة. (هل هي طريقتك المراوغة في الهرب من استدعاء واستمراءِ الجرح؟) لا.

لا تمارسها الآن.

إنها لحظة البوح، لحظة المكاشفة، لحظة الإعتراف، لحظة الإنكشاف على سياق بانوراما. تحاولُ مجنوناً عدم التورط في تحويلها إلى سنتمنتاليّة الميلودراما، وتجاهد عالياً في منحها مهابة الدراما.

... ... ولكن جسدك المرئي بدّل بالفعل عشرات المعلمين وعشرات المدن.

هل تذكرُ؟

لم تكن خادم سيدين، ليكون الأمر سيئاً، بل كنت خادم كثرة من السادة.

الإيراني البخيل والروماني الحريص والمغربي الداهن واليمني الطيّب، والروسي المجنون، والألماني إبن الحاخام الذي استبدل آلهة إسرائيل بـ "البروك"... وغيرهم من أشتات متنافرة، تكيفتَ معهم، لأنك تمتلك خاصيّة التكيّف مع الجحيم!

عاشرت هؤلاء الأقوام، على علاّتك، وعلى علاّتهم، على مدار 18 عاماً، يوماً فيوماً، وليلة فليلة، في الجدل وفي ريشون لتسيون، وفي حولون، وشمالاً: في بات يام ويافا وتل أبيب حتى هرتسليا وقيساريا.

عرفت الشوارع الخلفية لهذه المدن وعرفت عتمة سجونها، وزهوة الشمس في ميادينها وحدائقها، وعرفت بشرها في لحظات مصالحة نادرة، إنسانيين لا أبهى ولا أصفى، وفي غالب اللحظات، كنت طرفاً في معادلة ثنائيّة كلاسيكيّة لها رسوخ المُطلق، عربياً فلسطينياً أمام يهوديّ صهيونيّ أو، عاملاً أمام معلّم.

سمعتُ منهم، العادي والمبتذل، والهامشي، والإباحي، والإنساني/ إجتماعياً.

وسمعتُ منهم، المتطرف، والمتشنج، والعصابي، واليساري/ سياسياً.

وتعاملت مَع مَن يستكثر عليك أن تكون حياً.

ومع مَن أفسدتْ حياته (فوبيا المناطق) وفوبيا العرب.

ومع مَن قدّر أنك عربيٌّ مثقف وشاعر واحترم ذلك، وتباهى أمام الآخرين بأن لديه مُستخدماً عربياً من هذا الطراز غير المألوف.

تعاملت مع معظم الشرائح، من نساء الجنرالات وبنات الوزراء وكبار رجال الأعمال، وأعضاء الكنيست، حتّى مومسات آخر الليل سيئات الحظ.

كُنّ يأتينَ إليكَ، ليطفئنَ هوسهنّ في سُكّر الحلوى بأنواعها.

كانت صنعتك بطبيعتها، تفرض عليك التعامل الحسيّ مع دلّوعات الطبقة الأكثر ثراءً في إسرائيل، وكنتَ تُرهف السمع، وتراقب بصمت ومثابرة هذه النوعيّة من النساء، لترى إلى مباذلهنّ، وضحالة وعبهنّ، وضيق أفقهن، وصغر عالمهنّ وصَغاره في آن، ولطالما تحمّلتَ حماقاتهن ونزواتهن الصغيرة، ومكائدهنّ غير المبررة!

كُنّ يتقربنَ إليكَ، لكي تتفنّنَ أكثر في صناعة ما يرغبن، و"تتوصّى" في حشو حلواهن بشكل خاص، وكان البعض منهنّ يتقربن لغايات أخرى، ألستَ وسيماً وذا صنعة مرموقة ودخل مرموق؟

كنتَ في نظر بعضهنّ "تستحق" المحاولة، وكان بعض هذا البعض يعرف أنك عربي والآخر يجهل، وبعيداً عن كلّ ما له علاقة بالأخلاق، خيبتَ حساباتهن جميعاً!

* * *

كنتَ تعمل بقوة (ثلاثة عمّال) دون مبالغة، وكنتَ ابيضضتَ من أثر البقاء سنوات في أمكنة مُغلقة وشديدة الإضاءة ليلاً ونهاراً، وكنت تقدّمت بسرعة في الصنعة، وساعدتك ثقافتك ورهافتك في ابتكار أشكال وأنواع تحلويات معينة صاروخية السّعر وتحتاج إلى فن وحرفنة معاً.

ومن هنا أصبح معلمك يحيل الزبائن (الخاصين) إليك مباشرة، ولكم تساجلتَ معهم. فعرفتَ بمنأى عن التنظيرات المجرّدة الخائبة، وبمنأى عن الافتتان الأوليّ المستفحلّ بالآخر ما لم يكن ممكناً أن يعرفه بنو جلدتك إلا بأبهظ الأثمان. • عرفتَ أولاً أن اليهود ينظرون إلى (الإنجاز) كقيمة مركزية عُليا في الحياة • وعرفتَ ثانياً أنهم شعبٌ (إيروسيّ) بامتياز، يعشق أن يعيش بكليّته، ويجب أن يتمتع بلا حدود، وأن يمتلك أسباب الترف والرفاهية. • وعرفتَ تفصيلاً أو تنويعاً على ما سبق إنه شعب يأكل جيداً، ويقرأ جيداً، ويُقدّر الوقت على نحو يبدو للعين العربية السكونية: مُبالغاً فيه وربما شاذاً. • وعرفتَ ما يجب أن ينتبه له المعنيون، وهو أن هذا الشعب الخليط والهجين كما هو في الحقيقة، وكما تعودنا أن ننظر إليه، صائرٌ لا محالة إلى التجانس والتناغم والانصهار، وكرُّ الزمن في هذه النقطة يعمل إلى صالحهم تماماً.

أمّا ما تعوّدناه من القول بأن ما يفرقهم أكثر مما يجمّعهم، فإنه قول بحاجة إلى معاودة النظر فيه، وطرحه على بساط البحث والمساءلة، لأنه أصبح الآن مُنتسباً إلى كسل الميثولوجيا، أكثر من انتسابه إلى جدل الواقع، بل إنني أخشى التصريح بأن مثل هذه الأقوال التي رفعناها، أو رفعها الخطاب الإعلامي والفكري العربي إلى مستوى المُسلمات، تمخضت في النهاية عن مجرد أوهام تخصّنا نحن وحدنا!!

• وعرفتَ كذلك، أن هذا الشعب، الذي جاء إلى هذه البلاد، مُحققاً فرصته التاريخية الكبرى، على حساب شعب آخر، لن يفرط أبداً بما حققه، ويعرف تماماً كيف يوفر جميع الأسباب، لكي يبقى ويتطور ويتسع.

فيما نحن سادرون في توفير الشعارات وتبديلها وتطويرها، لكي يكون لكل مقام شعاراً هم

بالتكنولوجيا ونحن ببلاغة الشعارات. والنتيجة معروفة لكل من يمتلك بقية من عقل.

• لقد بدأ العطب ـ يقول عاموس عوز ـ عندما أقمنا الدولة: كنا نعتقد أننا وصلنا إلى شاطئ الأمان، وحان الوقت لكي نعيش سعداء وألاّ نكون إباحيّين كما في دول الغرب. ولكن الأغنياء في الغرب يعرفون قيمة العمل. إنهم يعملون بأنفسهم. انتهى كلام عاموس. ولا بدّ من تفنيد أو توضيح بعض مغالطاته. فالأغنياء والفقراء في إسرائيل يعرفون قيمة العمل بشرط أن يكون (أبيض). أما الـ (عقودا شحوراه) في دولة حديثة السن. فلم تكن من نصيب هؤلاء الأغنياء الذين أوحى لنا عاموس بكسلهم "اللوكي". وإنما من نصيب (الهنود الجدد).

يقول "تسفي" بطل روايته (هنا وهناك في أرض إسرائيل) ما يلي:

(أنا في الثامنة والسبعين. وفي كل صباح في الرابعة أو الخامسة. أخرج للعمل في الأرض. هل تعرف؟ في الخامسة صباحاً هذه الدولة تصبح عربيةً. من دان حتى إيلات. يبكر العرب للعمل واليهود يواصلون النوم).

وبعيداً عن خيبة تسفي من اليهود. وبهجة غيره أيضاً من هذا المنظر الصباحي. وبعيداً عن مقولة عاموس عوز الشهيرة في كتابه الشهير من (أن تكون عاقلاً يعني أن تكون مجنوناً. الجنون تماماً في إسرائيل هو الإنسان العاقل).

بعيداً عن كل هذه الهواجس التي نفهمها ونقدّرها في سياقها الأدبي. فإننا نقول ـ وبألم جليّ ـ أن ما يقوله الواقع جد مختلف. وأن ما لم يقله عاموس عوز في روايته المذكورة. هو ما يجب قوله الآن وهو باختصار أليم ـ إذا جاز للألم أن يختصر ـ أن هذا الشعب شعبك يا عاموس تحوّل ـ بتواطؤ التاريخ ولا مبالاة الجغرافيا ـ إلى شعب سيد ونموذج حديث لنصائح من الشعوب كنّا نظن أنها فحسب موجودة في الأوراق الصفراء.

لقد أيقظتم ما دالَ. ليبقى

وها أنتم بسلامكم التلفزيوني تكرّسون الأمور. وكأنها ذات صبغة قدرية.

لذلك. لا تسألني يا عاموس سؤالك إيّاه: (ماذا عليّ أن أفعل!) لأن الحل الوحيد لمعضلة هذا العداء التاريخي المشترك بيننا وبينكم. لن يكون. كما خطر ببالك (أن ننظم مجموعة من الجانين. يطلقون على أنفسهم إسم: الجانين. ونقوم بالعمل في الأرض أو في الصناعة. ونكون نحن مثالاً لغيرنا. على أمل أن ننجح في تحريك الجيل الصاعد).

إننا. على العكس تماماً. بحاجة إلى العقلاء منكم لكي يحركوا ضمير الجيل الصاعد وجيل "الحرس القديم" إن أمكن. وإلاّ. فليس غير الكارثة. قصُرَ الزمان أم طال. أليس كذلك يا عاموس؟

* * *

وأنت يا أبراهام ب. يهوشواع؟

ألم تقل ذات يوم إن (علينا أن نتحدث بصراحة الواحد للآخر عن الكوابيس والمخاوف والنزاعات والأحلام. لأن بواسطة ذلك فقط يمكننا التخلص من السرطان الذي ليس كهانا سوى رمز له). ألم تقل ما سبق كإسرائيلي/ يهودي طالباً بالمقابل من العرب الفلسطينيين أن يتحدثوا إليكم بنفس الصراحة؟

حسناً يا "أبرام". ها أنذا أحاول.

لقد مات كـهانا/ الجسـد. ولكنّ كـهانا الرمز: "حاي فكيـام" (حي وقائم) في عـشرات الألوف من لابسي خرقته. و"كيبته"؛

إنهم، كفصائل معيّنة من الذباب، يمتلكون القدرة الهائلة على التكاثر الفاحش.

ورغم أجواء السلام المنقوص، فإن العـنف الإسبرطي في بلادكم لا يلشي إلا بمزيد من العنف. وإذا كان هذا العنف موجهاً لنا أي (لخارجكم)، فإن من طبيعة الأمور أن يتسرّب الكثير منه إلى (داخلكم) أيضاً.

مثلاً يا أبرام: مـاذا تسمّي منع شـاعرنا محـمود درويش من زيارة قـريته الأولى وأهله الأولين. ألم تعرف يا أبرام أن بنت شقيق شاعرنا أجّلت عُرسها على أن يشارك "عمّها" في العرس؟

لماذا أطرح هذه التفاصيل الصغيرة؟ ألِلذهاب إلى مزيد من الفجيعة؟ ومزيد من الإذلال؟ ألِلذهاب إلى حقل الدلالات؟ ربما. ولكن ماذا تسمّي هذا المنع؟ هذا الحرمان من حق أوليّ؟

أليس هو العنف، آتياً هذه المرة من أعلى مستوى؟

أين أنتم، أيهـا الأدباء الإنسانيـون، من واقـعـة بسيطة وعـميقـة كـهـذه؟ وفي أية وأقواقٍ ملعونة يمكن أن نحسّ بروحيّة هذا السلام؟

لقد قيل إن رابين شخصياً وراء هذا المنع.

ولقد قيل إن الجنرال يدون كاكيه هو نفسه الجنرال.

ولكن، قيل أيضاً، إن لكم كلمة مسموعة في مجتمعكم. فلماذا يا أبرام لم نسمع هذه الكلمة في هذا السياق؟

ها نحن ذا ــ كما طلبتَ ــ لنتحدث عن هموم آنيّة ــ بذات الصراحة؟

فهل تسمعوننا، أم أنها لو كانت غيّمت، لأمطرت؟

لستُ طبعاً بحاجة للفت إنتباهك ونباهتك إلى ما يشكّله محمود بـالنسبة لنا.. إنه بلسانكم أنتم: "فم الشعب الفلسطيني". فأين المنطق إذن، وأين الحد الأدنى من العدل؟

* * *

لا ينبـغي على المرء أن يعود القـهقـرى، وبدون "لكن" وما يعـقـبهـا. يا راشيل مـزراحي، فإن فـينا ــ نحن فلسطينيي 1995 ــ رغبة حقيقية في مقاربة المستقبل.

إن إرثاً دامياً وباهظاً وجهـماً يدفعنا دفـعاً لأن نظلّ أسراهُ ومـعيدي قـراءته وإنتاجـه. وها نحن نقاوم. لأن مَناحنا الوحيد أن نتقدم وأن نعيش. لا ننسى. ولكن نتناسى. فلا تخذلونا في بؤسنا هذا أيضاً!

هل تسمعون؟

* * *

إنّ الخيارات المتروكة لمواطني فلسطين وإسرائيل محدودة غـالباً. وأحد أهم هذه الخيارات هو خيار العيش سوياً، كلّ في دولته. بحضور مـا يحقق إنسانيته أولاً. وبحضور ما يرقى بهـذه الإنسانية ويطورها إلى درجة

الوجود الفاعل المبدع.

على هذا أراهن أنا الشاعر الفلسطيني إبن خانيونس وإلى هذا أنظر رغم الخراب الكبير ورغم إنكسار الروح، ورغم إنشراخ الحلم..

إن لم يكن من أجل جيلنا، الذي أفسدته وسممته الكراهية التاريخية ـ فمن أجل مَي ومُنى ومايا وأحمد: أبنائي ونوافذي على المستقبل.

لأن هنا تكمن نقطة الضعف الأساسية، وهنا بالضبط تكمن أكبر قوة لنا.

إن ما نحتاجه ـ عرباً وإسرائيليين ـ وإسرائيليين بخاصة لأنهم مارسوا دور الجلاد: ما نحتاجه فحسب: كثير من النزاهة الأخلاقية، وكثير من الجهد والعرق لندفن نحن: ضحايانا، وهم: نصف قرن من الإضطهاد العسكري ولنبدأ، من حيث كان يجب لنا ولهم أن نبدأ.. فهل نبدأ؟؟

أم ينبغي على المرء دائماً، أن يعود القهقرى؟!

* * *

إنه، على أية حال: سؤالٌ

يصحُّ أن نجعله "اختياراً" للآخر بقدر ما هو اختيارٌ لنا، وبقدر ما هو رهان على المستقبل وإرتهانٌ به معاً.

..عموماً حتى هذه اللحظة، أستطيع إعادة إنتاج ما جاء في العنوان وبنفس الصياغة فـ:

الآخر ليس شيطاناً ولا أخوياً

إنه عدوٌ فحسبُ

إضافةً إلى ذلك، وخروجاً عن السياق فإن من الخفّة والخَطَل، أن ألخص تجربة استغرقت النصفَ الأهم من العمر، على هذا النحو السريع والتعسفي واستجابةً إلى "طلب" خارجيّ لذلك اقتضى التنويه، ولذلك أيضاً "فاتتني أشياء كثيرة".

أو كما قال القائل: "ترغب بكتابة رواية.

فتجدُ نفسك تكتبُ في الفلسفة، لا

يكونُ المرء وحيداً في جلده!" أبداً.

أبداً.. يا ميشو!!

(خانيونس ـ 1995/9/28)



غريب عسقلاني

(إبراهيم الزنط):

سيرة ذاتية

- مواليد المجدل عسقلان ـ 1948.
- أنهى تعليمه الثانوي في مدارس القطاع ـ 1965.
- حاصل على بكالوريوس الإقتصاد الزراعي من جامعة الإسكندرية ـ 1969. وعلى دبلوم الدراسات الإسلامية من القاهرة ـ 1983.
- عمل مهندساً زراعياً في مشروع سد الفرات في سوريا حتى العام 1974 حيث عاد إلى أرض الوطن.
- عمل في التعليم الثانوي في مدارس القطاع حتى العام 1994.
- يعمل حالياً في وزارة الثقافة الفلسطينية.
- كتب القصة القصيرة في وقت مبكر ونشرت قصصه في الصحف المحلية والعربية.
- حاز على جائزة القصة القصيرة من جامعة بيت لحم ـ 1977.
- حاز على المرتبة الأولى في القصة القصيرة في مسابقة "إتحاد الكتّاب" ـ القدس ـ 1990.
- شارك في تحرير مجلة "البيادر الأدبي" في بداية صدورها. كما شارك في تحرير مجلة "آفاق".
- ترجمت بعض أعماله للإنجليزية والألمانية والروسية والعبرية.
- صدر له حتى الآن:

1 ـ "الخروج عن الصمت" ـ قصص ـ "منشورات البيادر" ـ القدس. 1979.

2 ـ "الطوق" ـ رواية ـ "دار الكاتب" ـ القدس. 1979.

3 ـ "زمن الإنتباه" ـ رواية ـ طبعة خاصة ـ 1983.

4 ـ "حكايات عن براعم الأيام" ـ (حكايات) ـ "إتحاد الكتّاب" ـ القدس. 1990.

5 ـ "الصبي والشمس الصغيرة" ـ قصص ـ "إتحاد الكتّاب" ـ القدس. 1992.

غريب عسقلاني: **شهادة**

..فما الإبداع إلاّ أن تحاصرك فجأةٌ الإكتشاف فتفاجئُ وتدهش

لعل اندلاع الكفاح المسلح، وعنف المواجهة مع الإحتلال، شدّنا في القطاع نحو المتابعة والرصد.. ولم يترك لنا الفعل اليومي المتفجر مساحات للتأمل أو حتى التريّث إن جاز التعبير. ومن هنا جاء معظم ما طرحناه من قصص قصيرة إنطباعياً أو تسجيلياً وكدنا نؤجل أو نتغاضى عن زوايا ومحاور من الضروري للمبدع ولوجها وسبر أغوارها. واقتصرت زوايا التقاطنا على فعل المواجهة المباشرة مع المحتل. وكانت مشاهدنا وصورنا في حدود الأبيض والأسود. واستغرقنا دلالاتنا ورموزنا التي شاعت بيننا في حينه. والتي انصبّت على بشاعة الآخر مقابل قدسية الأنا والنحن والقليل منا من لامس الأبعاد الإنسانية الأخرى للحياة في ظلّ الإحتلال.

قد يكون الأمر مرتبطاً بالمرحلة مع ناحية. وطبيعة القصة القصيرة التسجيلية وسهولتها من ناحية أخرى. وقصر ثقافتنا وتجاربنا. يعزز الأمر عزلتنا عن الإبداع العربي، والعالمي. وبؤس واقعنا المعيش (كل كتّاب القصة القصيرة في القطاع من سكان المخيمات) وشحة الدخل (معظمنا صغار موظفين أو عمال) وأياً كان الأمر فقد كنا نختزن معاناة الناس في المخيم ونفرغها فعزفنا على أوتار متقاربة حتى أواخر السبعينات.

وأنا من الذين أرّقتهم اللغة فولجت الحلم وركبت متون الجملة المكثفة في المونولوج الداخلي مع الوعي لواقعية القص بقدر الإمكان.

قد أكون وفقت في بعض نماذجي وتعثرت في نماذج أخرى سيما وأن ما شغلني في تلك الفترة موضوعة الصراع الطبقي والصراع القومي مع ولعي الشديد لدرجة الصرامة بالواقعية. قد يكون ذلك مرتبطاً بما نشأنا عليه نحن أبناء مرحلة المد الناصري وتلاميذ أطروحات اليسار الفلسطيني. لكنني اقتربت من لغة الشعر وغصت في الحلم وبحثت عن صوفية خاصة وكنت مقاتلاً يغوص في هواجسه، يبتعد عن واقعية المعاش ليقترب منه.. وكانت المفارقة تجارب قصصية.. لكنها لعبة مرهقة.. إذ كان هاجسنا أننا نسجل مرحلة حساسة ونحفظها من الإندثار. كان يتقمصنا هم الأمانة التاريخية. فيما كان الواقع من حولنا يمور بالأحداث والمفاجآت. والمجتمع المحاصر يفرز عاداته وقيمه في زمن الإحتلال. ثم ضعف الكفاح المسلح

والضربات التي تلقتها الثورة الفلسطينية خارج الوطن من أيلول الأردن إلى الزعتر في لبنان.

وواجهتنا الأسئلة عن دور الأديب في الوطن المحتل وكيف تجيب القصة القصيرة عن أسئلة الواقع وهل المطلوب منها أن تقدم إجاباتها.

وهل الرواية التي تأخرت في الضفة والقطاع تفرد مساحاتها لعكس ما يتشكل من ظواهر وممارسات.

في تلك الأجواء (1978) كتبت رواية "الطوق" (نشرت 1979) سجلت فيها ما حدث في "مخيم الشاطئ" عام 1970 حيث فرض الطوق ومنع التجول على الجزء الغربي من المخيم ولمدة 40 يوماً متواصلة. الحدث الذي كان علامة بارزة في سجل القمع حتى تفجّرت الإنتفاضة وأصبح الطوق ظاهرة يومية غير مدهشة لمن هم على أرض الوطن

حاولت في الطوق أن تكون البطولة للمخيم حيث قدمت ما حدث في أحد أزقة المخيم وعلى مدى يوم وليلة لينتهي زمن الرواية بنسف الزقاق (وهذا ما حدث فعلاً في الواقع).

كيف تصرّف الشاب المثقف. وفتاة معهد المعلمات. والصيّاد الذي مُنع من ركوب البحر. والأرملة. والعربجي. والأستاذ الذي ينحصر عالمه بين باب بيته وباب المدرسة التي يعمل فيها. والفتاة خطيبة الفدائي المطارَد.

أستطيع القول أن رواية "الطوق" قوبلت بارتياح فور صدورها.

ما الأمر؟

هل لأن الساحة الأدبية في الضفة والقطاع لم تكن قد استقبلت روايات محلية باستثناء "الصبار" لسحر خليفة و"بنت من البنات" لزياد حواري أم أن الجمهور كان بحاجة لوثيقة تحفظ نضالاته؟! خاصة أن المعتقلين في سجون الإحتلال احتفوا بها بصورة لافتة للنظر ومبالغ فيها

بعد رواية "الطوق" عدت للقصة القصيرة وطاردني هاجس أن تبقى المحاولة يتيمة. فعدتُ إلى نجيب محفوظ وحنا مينه وفتحي غانم والطيب صالح والطاهر وطار وبهاء طاهر والربيعي وراجعت غسان كنفاني أكثر من مرة كذلك قرأت ما توفر من روايات مترجمة للعربية.

وفي هذه الأجواء أتيح لي السفر إلى مصر أكثر من مرة وتواصلت مع الحياة الأدبية ورافقت مطبوعات الماستر واطلعت على نتاجات جيل الستينات والسبعينات. قرأت صنع الله ابراهيم وابراهيم عبد المجيد وجمال الغيطاني ويوسف القعيد ومحمد قنديل وابراهيم أصلان وكمال القلش ـ هذا الجيل الذي حاول تجاوز المألوف شيئاً وفكّرت في المغامرة ثانية. وكانت رواية "زمن الإنتباه" ولكن لم أتخلص من أسلوب "الطوق" إلاّ قليلاً في البناء وفي "زمن الإنتباه" حاولت الإجابة عن سؤال كان يتردد في الساحة الغزية عن دور اليسار الفلسطيني (الحزب الشيوعي) في الثورة المسلحة في القطاع. وجاءت القصة شديدة الواقعية تسجيلاً لما عايشت من شخصيات وأحداث.

هل أغراني في "زمن الإنتباه" معايشتي لمن كتبت عنهم واكتشافي أنهم يشكلون نماذج روائية. الأمر الذي أثار لغطاً بين المعارف والأصدقاء؟!

الغريب أن الرواية حوربت ولم يجرؤ ناشر على إصدارها حتى أنها وجدت ذات المعوقات في "إتحاد الكتّاب" الأمر الذي دفعني إلى إصدارها في طبعة محدودة التوزيع. وأحاول هذه الأيام إصدارها في طبعة ثانية.

وبعد.

هل ما قدمت يدخل في باب الرواية؟

سؤال يؤرقني وأنا أقتحم بوابات محاولتي الثالثة. الحق أقول أنني متهيب من الدخول برغم شروعي في عمل روائي جديد. لكنني وكلما كتبت فصلاً أو بعضه أجدني مبهوراً بالإبداعات الروائية العربية في السنوات الأخيرة.

المهمة كبيرة. لكن الطموح أن ندخل عوالم متشابكة ورحيبة ومجهولة. ولكنها ليست مخيفة وإن كانت مفاجئة. فما الإبداع إلا أن تحاصرك فجأة الإكتشاف فتفاجئ وتدهش.

النورس يتجه شمالاً

غريب عسقلاني

تطلعت المرأة صوب البحر

رغوة الزبد تمتطي هامات الموج، والهدير يفسد سكون الضحى على الشاطئ، وريح تشرين تمتص دفء الشمس تتسرب في أزقة المخيم.. وثمة نورسة بيضاء تتجه شمالاً تنبئ باقتراب النوّة.

حدّثت المرأة نفسها.. أهو موعد ركوب البحر..؟ واشتاقت لطعم السردين المهاجر، وابتلعت ريقاً مراً وتأملت سماء المخيم المجلل بالسواد.

مرق الصبي اليتيم سهماً يصيح:

ـ إفتحوا الأبواب.

استطالت تستجلي الأمر شرق المخيم، رأت الناس يتدافعون نحو الأزقة والزوايا، سيارات الجيب تحوّم في شارع الهدد تعفر ثعابين ترابية تتصاعد، تغلف فضاء المكان، تبدو ظلال الكائنات أشباحاً تتخبط، انسحب الشباب نحو الشاطئ، تعثّر أحدهم قريباً منها فانخلع قلبها، ارتمت عليه، لهجت:

ـ يا ولدي.

وأحست به يتحوصل في جوفها فاستماتت عليه، حتى ابتعدت سياراتهم، هدأت واستقر صدرها، وانتبهت لوخزات خفيفة تثير جلد بطنها، نهضت.. كان رجلاً وكانت امرأة، احمرّ وجهها وانزوت في دارها مرتبكة.

حدّثت جارتها:

ـ وقع على الأرض فتكومت عليه، استكان في حضني وعندما نهضنا كان فحلاً كثيف الشارب.

ـ هكذا هم، أطفال عندما نريد ورجال عندما يريدون.

* * * * *

قصدت المرأة سوق المخيم.

كان القصير ينادي على سمك طازج، شدتها أسماك المرمير الفضية، تساءلت "لم تهدأ النوّة بعد؟.."

فتحت خيشوم سمكة فتأكدت من فعلة شنعاء قذفتها في القرش الخشبي حانقة.

قال القصير:

ـ من سمك بحرنا.. اقسم.

ـ أعرف ذلك.

ـ إنه صيد اليوم.. طازج.

ـ أعرف ذلك.

بُهت القصير. غضب أمر في عينيها.

ـ كيف اصطدته؟

ومضت لم تلتفت إليه.

حدثت النواتي عن سمك المرمير الذي يعيش في زوايا الصخور العميقة بجاور أبو جلمبو الأسود.. لا تغريه طعوم سنانير الصيادين ولا يغادر مكامنه إلا بعد هبوب النوة. يصعد للسطح. يستجلي دفء الماء ويتلاقح مع أشعة الصبح على مرايا الماء ثم تعود إناثه تضع البيض. تجدد دورة حياتها. فيما تبقى الذكور تلهو مع دفء الشمس فتقع بكامل فحولتها في شباك الصيادين.

سأل أحدهم:

ـ كيف يأمن المرمير أبو جلمبو الأسود؟

ـ المرمير عاشق يمارس فتوته وله وسائله حيث تعكس قشوره الفضية اللامعة بريق الضوء فيموّه على "أبو جلمبو" بطيء الحركة ولا يخلو الأمر من ضحايا.

وعندما عادت المرأة إلى الزقاق رأت الناس يخرجون من بيت جارتها يندفعون نحو الشاطئ. رفّ قلبها وطارت. الأطفال مُمَدَّدون عند حواف الموج. يتنفّسون بهدوء. والنواتي يصيح في الناس:

ـ يا خلق الله.. وسعوا. خلّو النسيم يمر عليهم. لا تفسدوه.

حاذاها اليتيم.. قال:

ـ طاردوني. وكان الباب كعادته مفتوحاً فقصفوا البيت بالغاز.

قبلته. وملها جلد بطنها. فافتقدت كثيف الشارب. قالت للنواتي:

ـ القصير يعرض سمكاً سميناً!!

بصق على الأرض.

ـ إخص. لم تفارقه غريزة الصيد بالسم.

* * * * *

قصدت المرأة الشاطئ بعد سكون النّوة مضت في الماء حتى ركبتيها. هو عهدها وللفارس وصيته. حلّت ضفائرها.. تركت شلال شعرها لنسيم البحر وانبهرت لدفء شمس الضحى في تشرين فامتلأ بدنها خصوبة. تابعت على صدر البحر نورسة بيضاء تلحق سربها المتجه شمالاً وكانت مجهدة.. وكان النواتي يشقّ البحر بزورقه الصغير حتى غيَّبه المدى.

عبت نفساً عميقاً وقفلت راجعة.. رأت اليتيم يعدو مقطوع الأنفاس. فرقصت على الرمل وفتحت

ذراعيها تلقفته وغطت وجهه المذعور بضفيرتها.. دسّ رأسه في صدرها.. بكت لهول الخوف في بدن الصبي واشتاقت لولد.. قال:

ــ سقط الرجل.

ــ مات؟

ــ خلصني منهم. فوقع بين أرجلهم. وهجم الناس.

وفي المساء رجع النواتي وتحدث الناس عن شاب خلص اليتيم منهم فحاصروه. ولما اشتدّ عليهم حصار الناس أطلقوا عليه النار فصرعوه.

وفي العتمة راحت المرأة توزع صيد النواتي على بيوت الزقاق وانشغل النواتي يقلب الأسماك على النار.. وعندما نضجت حثّ الصبي:

ــ كل حتى يشتدّ عودك.

بكى الصبي:

ــ قتلوه يا عمي.

ــ هو حد أجله يا ولدي.

وعضّ الرجل شفتيه يبتلع دمعة داراها عن الصغير. لكنها انزلقت.. طشطشت في جمرات النار وتبخرت. تمتم: افتقد البحر رجلاً كثيف الشارب. واخذ رأس الصبي بين كفيه:

ــ متى تركب البحر يا ولدي؟

ــ ليس في البحر حجارة.!؟

ــ وليس في البحر جنود.

* * * * *

تهيأت المرأة..

تستمري: الحالة كعادتها من سنوات. يسكنها خدر لطيف يتمل خلاياها.. تنبض زوايا الجسد العفي وجداً وخصوبة.. قبّلت اليتيم فانطلق يجمع لسان البحر "محار الحيار الذي يتخفى عن أعدائه بتلوين ماء البحر بحبر داكن ويدعم جسده الرخو بصدفة جيرية طرية أبيض من فلق الصبح".

ومضت إلى جارتها تشعلان الفتيل المنقوع بزيت الزيتون الصافي تطعان كحلاً و"كحل الزيت دواء وزينة".

وعندما مالت الشمس نحو البحر غمرت الأشياء حمرة الشفق.. راح النواتي والصغير يجمعان زلف الشاطئ. حتى تنظمه المرأة قلادة وأساور.

وفي الليل شقت الدنيا فهربت إلى السماء من شق القرميد المهشم تطارد النجوم نجمة إثر نجمة.. ومع الفجر تصعت أسنانها بمسحوق لسان البحر.. وشاغلت جفنيها بكحل الزيت واطمأنت على غمارة ذقنها.. وغسلت ضفائرها بمنقوع النعنع البلدي ثم فردت شلال شعرها وانطلقت..

وعلى بوابة الأنصار سألتها عجوز:

ــ من يكون؟

ـ عريسي.

ـ زوجك؟

ـ ليلة واحدة وأخذوه.

وتحسست جلد بطنها:

ـ حاصروه قبل أن تنمو بذاره.

أوصت العجوز:

ـ كوني بهية.. نضرة.. حتى يعود.

وراحتا تنصتان لصوت الموج ينادي على الأسماء.

ومضت تسند العجوز. هللوا من خلف الطاقات الشبكية.

ـ أطلت العروس.

رفعت ذراعيها.. وكشفت عن صدرها. فسطعت قلادتها على نصاعة جيدها الطويل ورنت أصداف أساورها.

جلست أمام طاقتها خاشعة.. تسارع وجيب الرجل خلف شبك الطاقة.. سهمت فيه. خرج صوته:

ـ ما الأمر؟

ـ البحر حنون والنواتي يشق البحر كلما لاحت الفرصة.

ـ وماذا؟

ـ نشرت ضفائري لنسيم البحر بعد النوّة.

ـ وبعد؟

ـ اليتيم يشبّ على عتبات الصبا.

غمرت بشوق وضحكت غمازة ذقنها.. ضحك فضحكت.. قالت:

ـ ولكنه لم يصبح كثيف الشارب بعد.

أخرج لسانه فاستحلبت ريقاً عذباً وتهدج صوتها.

ـ الأرض اشتاقت لبذارها.

وحطّ بينها صوت الموج.. انتهت الزيارة وجم كثيف الشارب وتمرد بؤبؤ العين الكحيلة. قالت على عجل:

ـ سأنشر ضفائري مع ريح الشمال.

ونهضت تسبقها رنات أساورها.

* * * * *

وعندما عادت إلى البحر، كان اليتيم يتابع صغار الموج تتكسر على رمال الشاطئ.. تعلق بقلادتها وراحا يرقبان صدر البحر ويتابعان النوارس البيضاء المتجهة شمالاً.

(غزة)

الجوع

غريب عسقلاني

أحكم سعيد لف حطته حتى لم يعد يظهر من وجهه إلاّ عينان يمور فيهما القلق والغضب. تنهد بمرارة، وضغط على أسنانه حتى لا تخرج آهاته الحادة تلفح وجه زوجته الواقفة أمامه تستنجده أن ينقل الخطى فلقد حاول طوال الأسبوع الماضي ينطلق قبل طلوع الفجر كالآخرين. ولكنه كان في اللحظة الأخيرة يركل باب الدار بحنق، ويرمي زوّادة الطعام التي أعدت له. ويقفل راجعاً إلى فراشه لا يصحو إلاّ الظهر الحمراء (على حد تعبير زوجته) وهي لا تدري أنه يتقلب على نار حمراء تحرق أعضاءه خلية خلية. واليوم لم يعد بد من الانطلاق فقد قاوم كثيراً عسى أن يجد مخرجاً فعضه الجوع. باع ما تبقى من مصاغ زوجته. وانتقلت أشياؤه القليلة إلى أيدي الآخرين لقاء ليرات معدودة. ولم يتوار الجوع. إلاّ بضعة أيام تعالت بعدها صرخات الأطفال تسري في شرايينه فانطلق مجنوناً يجوب المدينة الجاحدة بحثاً عن عمل. والمدينة مشغولة بأعمالها عنه والعمال أكثر من الهم على القلب. وتدبّ الأقدام من حانوت إلى آخر ويبتلع فشله مكرراً الإجابة التقليدية على السؤال التقليدي:

ـ ماذا تعمل؟

ـ لا أعرف مهنة محددة.. ولكن..

تخترقه نظراتهم الهازئة فيمسك عن الاستطراد حيث تسبقه الشفاه الممطوطة.

ـ آسف. لا عمل لدينا يناسبك.

ـ أي عمل يا سادة.

ـ الأجر لدينا قليل لا يرضيك.

ـ يرضيني أقل القليل.

ويصمت السادة ويعرف أن لا أمل في العمل ومع ذلك تتسمّر قدماه حتى يأتيه الجواب.

ـ ليس لدينا عمل.

ويعود بعضهم يكلمه بحقارة من موقع الحرص عليه:

ـ لماذا لا تعمل في الداخل..؟!

وسخرية يتسلى به بعضهم، إن كان هناك متسع للدعابة.

ـ ما هي مهنتك يا شاب؟!

مهنتي لا تقدرون عليها. آه لو تعلمون ما هي مهنتي. لقد مارستها حتى نخاع العظم أيها الأنذال. تركت آثارها خلف الجدران السوداء. ويغيب. يغيب بعيداً خلف الجدران.

هناك تركتهم يصنعون المستقبل. وها أنت تخرج إلى نور الشمس والجوع يستبد بك والدنيا تدير لك ظهر المجن. آه لو يدري الرفاق. كل الأمور. كل الأمور دُرست هناك بدقة وحُددت المهام العاجلة والآجلة. ووضع البرنامج شاملاً. ومقاطعة العمل في الداخل مهمة أساسية. وأمور أخرى هامشية. لم يتبادر إلى الأذهان الوقوف عندها طويلاً. لم تلح عليهم كيفية حصول الأهل على رغيف الخبز في ضوء الشمس. ويضرب في الهواء قبضة غضبى إذ استفزته فكرة فجرت ينابيع الحقد والحزن من جديد. "لقد كانت وجبات الأكل على حقارتها تأتي بانتظام خلف الجدران حتى لم تعد تسترعي الإنتباه". ومع تكرار الأيام وكانت حلقات الدرس والمناظرات تعقد باستمرار ويشتد النقاش ويعلو. يعلو. ويغطي على صراخ الأطفال وعناء الزوجة والأم في الخارج. فالغد الجميل أقوى من كل الأرغفة. واليوم تخرج إلى ضوء الشمس منتظراً. واليوم الجميل لا بد وأن يسبقه يوم أعجف يكفيه بعض الحاجة ويقف عند حدودها فلا تبذير. قانون اليوم الأعجف يتطلب ذلك. حتى تحافظ على بسمة الأطفال. وبسمة الأطفال مهمة عاجلة باستمرار. ومدينتك الغانية تغمز بعينيها أينما رأتك فيتقاطر إليها الآخرون يشبعونها قبلاً وعناقاً ونفاقاً ودراهم. وبقايا خطواتك في كل الدروب بارود وشظايا وقنابل. وبدايات خطواتك اليوم تسعى تطلب خبزاً وتتسلى بالحقد على عشّاق مدينتك الفاجرة. وتسجل في ذاكرة مجهدة أيام العهر وقبلات الغانية المسبية. وها أنت تلفّ الخطة حول وجهك تخاف أن يراك الناس مهما يكن. فالأمر بسيط. سيزيد طابور العمال واحداً اليوم وبتحدد عملك في مصنع أو ماخور. سيان. سيكون القرش المجبول بكل قذارات العالم. تسكت صرخات الأطفال. ويسيل الدمع المتحجر في مآقي زوجتك المتكولة فيك. طابور العمال يزيد اليوم وصباح الخير يا أبا الأطفال. و.. و.

رفت رموشه رفات سريعة أمام صوت زوجته الواجف:

ـ توكل على الله يا سعيد. لست أول الناس ولا آخرهم.

ربت على كتفها بهدوء عجيب. وقبل بؤبؤ العين الحزين.

ـ سأذهب اليوم يا عزيزتي.. فأنا لست.

وخرج مسرعاً حتى لا تدميها دمعة انحدرت على خده المشدود.

* * *

قذفته السيارة على دوار الجدل وانضم الى جموع العمال ينتظر. مدارياً انفعالاته. وراح يرصد الكم المتباين الأشكال والأعمار من الرجال. فتملكته رغبة لقياس ركامات النعاس العالقة بهم حتى تلك الساعة. عسى أن يكشف مقدار حاجتهم للراحة. ولكنه سرعان ما ارتدّ مذعوراً. إذ تبيّن بوضوح شديد أن القلق واليأس يسكنهم حتى أعمق مساحات خلاياهم. عندها رآهم يتدافعون بسرعة نحو سيارة "بيجو" اخذت تخفف من سرعتها بحاذاتهم وسمع أكثر من صوت ينادي

ـ شلومو.. شلومو.

استغرقه المشهد.. تلفّت حوله فاصطدمت عيناه بعجوز أعجف يقف بجواره.. نظر حول الرجل فتشجع الأخير وسأله؟

ـ لماذا لا تندفع كالآخرين؟

ثم أردف مغرياً:

ـ قد يكون لك نصيب مع شلومو.

ـ من يكون شلومو؟

ـ مقاول بناء.. يختار الأشدّاء لرفع الحجارة وأكياس الأسمنت.

وفهم أن عضلات جسده القوي مرشحة لمثل هذا العمل ولم يجد الرغبة لمتابعة الحديث فاختصر قائلاً:

ـ كل شيء قسمة ونصيب.

صفعه الرجل بثقة:

ـ إسعى يا عبد وأنا أسعى معك.

وانفجر بركان في جوفه.. أهكذا يكون السعي.. ما أشقى العبد عندما يصبح رقيقاً على ناصية "المجدل".. وراح يرقب سيل "العبيد" عندما يتحلقون الرجل الذي نزل من السيارة. تمارس شفتاه رياضتهما حول مبسم غليون ضخم.. أخذ الرجل يفتش فيهم من خلال غلالات الدخان الثعبانية التي كانت تنتشر سحباً رمادية. تحط على صفحات الوجوه المهزومة. تتكسر على أطرافها إشعاعات الصباح الدافئة.

وبينما الخواجة يجيل النظر في الوجوه اصطدمت نظراتهما للحظة قصيرة.. قصيرة.. اعترت سعيد خلالها رعشة تُحدّ غير واضحة المعالم. عبّر عنها بأن فتح عينيه على آخرهما محدقاً في اللاشيء.. حتى لم يتبين إشارة المقاول له ولبعض الشباب الذين سرعان ما هرولوا نحو السيارة.

انتبه على العامل الأعجف يلكزه مؤنباً:

ـ أسرع. ما بك غائب عن الدنيا؟!

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد أشار لك الخواجا.

نظر غير مصدق فحثه العجوز محذراً بإشفاق:

ـ إذهب يا ولدي. قد لا تجد عملاً آخر اليوم.

لحق وألقى بجسده في الصندوق الخلفي للسيارة فوجد نفسه محشوراً بين الرجال والأشياء. أحسّ بضيق المكان.. حرر رأسه من الحطة. وألحت عليه الرغبة في التدخين. وراح يرقب الأشياء من خلال حلقات الدخان المتصاعد من اللفافات المتقدة. غائباً عما حوله من الرجال متحاشياً النظر إليهم.. بينما كانت السيارة تشقّ طريقها إلى مكان العمل الذي لا يدري أين هو ولا متى سيصله. وغاب مع سيجارته حتى دخلت السيارة منطقة البنيان وأخذت تخفف من سرعتها وتوقفت بجوار هيكل لإحدى البنايات.

قفز العمال من السيارة وراح بعضهم ينزل الأدوات على الأرض. بينما تسلقت عينا سعيد العمارة. كانت شبكة هندسية من الأعمدة الإسمنتية العارية نزع عنها خشب الطوبار حديثاً. وخمّن بأنه

سيشترك في كساء هذا الهيكل بالجدران وباقي مستلزمات الحياة حتى يكتمل تكوينها إلى شقق ومكاتب تحتوي في جوفها طوفاناً جديداً من المهاجرين عبر البحار.. سيكسو هذه البناية حتى إذا اكتملت سيغدو هو هيكلاً تذروه الرياح.. لا خيار.. سيبقى أحدهما هيكلاً ولا خيار فالعمارة لا بد وأن تكتمل.. لا بد وأن تكتمل.

ـ المنهبل(1)...

قالها أحد العمال مشيراً نحو رجل مُقبلٍ عليهم. حتى إذا وصلهم بدأ يوزعهم. كلاً إلى عمله. أشار "المنهبل" إليه:

ـ ما إسمك؟

ـ سعيد.

ـ أنت يا سعيد تعمل مع أبي محمود في الدور الثاني.

وأشار "المنهبل" إلى أحد مداخل العمارة فاتجه سعيد دون أن يسأل فكساء العمارة يتطلب أن يذهب إلى هذا الأبو محمود.

*****

ـ السلام عليكم يا أبا محمود.

ارتجت أوصال الرجل المعلق فوق "السقالة"، وسقط "المسطرين" من يده. فانحنى سعيد يتناوله فانبثقت من أعماق الفجأة صورة أبي محمود في مخيلته شملته موجة رعب.. هزته حتى كاد "المسطرين" يقع من يده المشرعة إلى أعلى، ولكنه تمالك نفسه وتشبثت أصابعه حول مقبض "المسطرين". أهذا هو أنت يا أبا محمود؟ ولعن في سره هذا اليوم الأغبر وما يخبئه من مفاجآت. أقف اليوم معك يا أبا محمود نكسو عظام الهيكل. وارتسمت أمامه موجة الرعب في عيني الرجل يوم أن مزّق بطاقة عمله ورماها في وجهه برعونة. لم ينتظر يومها حتى يسمع كلماته المتعثرة الواجفة.. ولا أحسّ بتيار الهلع الذي اجتاحه.. ولم يتصوّر يومها أن الألم في عيون الصغار أقوى من بطاقة العمل، ومقبض "المسطرين"، بل أقوى من أعمدة الإسمنت العارية. لا خيار. وحرك رأسه بعنف طارداً سيل الذكريات عائداً للحظته.

نظر نحو الرجل وقد اغتصب ابتسامة شاحبة رقصها على شفتيه..

ـ الله يعطيك العافية يا عم أبو محمود

تمتم الرجل بصوت خفيض متوجس:

ـ الله يعافيك.. كيف حالك يا ولدي؟

ـ الحمد لله.. أنا في الخدمة.

وابتسم سعيد حتى يخرج الرجل من حسياته.

ـ لقد أرسلني "المنهبل" إليك. عملي اليوم معك.

ـ خير يا ولدي

ـ خير يا أبا محمود.

قالها بصدق فتسلل الهدوء إلى الرجل بينما تابع سعيد:

ـ ماذا يمكنني أن أعمل معك؟

ابتسم أبو محمود غير مصدّق. سعيد اليوم يعمل في البناء أدواته قوالب الطوب وجرادل الخلطة. ولم يسترسل هو الآخر في خواطره والجّه إلى الشاب بجدية:

ـ إما أن تخلط المونة وتحضرها إلى هنا، أو تناولني قوالب الطوب.

وفجأة ارتفع بينهما جردل مملوء بخلطة الإسمنت الطرية ترفعه يد مرتعشة لرجل في الأربعين لم يتعد وزن لحمه وعظمه هذا الرقم بكثير. ولم يصدق سعيد أن هذا الهيكل الآدمي يستطيع أن يتحرك.. ولكنه خجل من العروق المستفزة تئن تحت أثقالها تتحدى بصمت.

تناول أبو محمود الجردل وقال مخاطباً الرجل

ـ "عزرا".. معك اليوم سعيد فقاسمه العمل.

مد "عزرا" يده إلى سعيد مصافحاً.. بينما ردّ أبو محمود مبتسماً على سؤال أخذ يتراقص في عيني سعيد:

ـ لا تستهتر. هذا اليمني يتكلم العربية أحسن منك فلا تدعه يتفوق عليك في العمل.

ضحك اليمني بفرح غامراً سعيد:

ـ أبو محمود أحسن معلم في العمارة. هذا رجل ذهب.

وانسل هابطاً الدرج يتبعه سعيد بادئاً يومه الأول بينما راح أبو محمود يراقبهما بود كبير.

* * * * * *

الصباح خريفي، والريح باردة تداعب العظام بسماجة تظهر آثارها على تغضنات الوجوه وصرات العيون. وأبو محمود معلقاً على سقالته في الدور الخامس يعالج حائط الآخرين، واليمني المسكين ترك قطيع الماعز على أطراف صنعاء، وفقد الحليب الدسم، ومخشفات القات اللعينة، وأتى يداعب خلطة الاسمنت ينوء تحت أثقال جرادلها صعوداً وهبوطاً، وأنت كالآلة تناول الحجارة، وتشاهدها جداراً تعلو. ومهارة أبي محمود لا تدعك تتوقف لحظة.. وكل لحظة يرتفع البناء وترتفع معه.. وسهول الجدل تمتد من تحتك بساطاً أخضر محرماً عليك. تتمنى لو تغفو في ظل شجرة حول بئر الماء الذي تعمدت من مياهه.. وأقسمت أمك أن تغسل جراح ختانك على حافته كي تظلّ متجدداً كماء البئر.. أين منك الأمنيات.. تسترجع وقع أقدامك الصغيرة حول البئر فالعمل من الصباح حتى آخر النهار، وآخر النهار إنهيار بشملك. والأمنيات تتقلص في إغفاءة على الفراش استعداداً لليوم التالي والفراش يضمك حطاماً لا تقوى على خرشات زوجتك التي تتمحك بك وتتلوى بجوارك بل وتجرؤ على استفزازك فتتظاهر أنت بالنوم. فقواك المقتولة قد تخونك والمرأة جسد يتلوى ورائحة الشبق تلسع خياشيمك. ومع ذلك تتظاهر بالنوم. حتى الزوجة لم تعد ترضيها.. فصرخات الأطفال أقوى من رغبات الجسد.. ولكنك غالباً ما تكفر بذلك، وتحتويها بكل بقايا الفحولة فيك. وتعود إلى العمل، وكل يوم تمر على البئر وجميزات السبيل وأمنية تضربك على أم رأسك لو عدت صغيراً تتسلق الشجرة تساق إلى أقرب مخفر شرطة، بتهمة مضاجعة شجرة مباركة، وإفساد حليبها الشافي.. و"عزرا" المسكين ترقت أظافره لكثرة ما خدش الجميزة مستحلباً الحليب عسى

أن تبرأ طفلته من دمامل وجهها. بعد أن أعيته علاجات الأطباء ولا جدوى. والطفلة المكسينة تتلاشى أمام مرضها اللعين ويتلاشى "عزرا" باحثاً عن الخلاص حتى جفت ينابيع جيوبه. ولم تجف سيلانات الدمامل في جسد وحيدته. واستنجد بقوة فلا بد أن تدخل الطفلة المستشفى ولا بد أن يبحث عن "شلومو" آخر وعمل آخر. وسوق الخضار في الليل عالم آخر و"عزرا" بين الليل والنهار. يغيبه الليل عتالاً لصناديق الخضار، ويحتويه النهار عتالاً لجرادل الخلطة. وجيوبه على الدوام فضفاضة. فالمستشفى بالوعة والطفلة تصرخ و"عزرا" يصرخ.. يلعن اليوم الكافر، ويرقص الرب على شفتيه. مستمطراً اللعنات على شجرة الجميز. والصبح خريفي بارد و(أبو محمود) رجل طيب. ويده طاهرة. واللقمة لا بد أن تأتيه حلالاً صافياً. وتعلو الجدران بين يديه. وتكتسي عظام العمارة. وأنا لا أكاد ألتقط أنفاسي مناولاً إياه الحجر تلو الآخر. وعروقك يا "عزرا" لا تكاد ترتخي. حتى تعود مشدودة تحت ثقل الجردل. حتى لا يتوقف أبو محمود الرجل الطيب يا "عزرا".. أحسن معلم في العمارة.. رجل ذهب.. والعافية تذهب وعيون "المنهيل" تتعرف على عملنا من تشنجات عروقك وخدوش يدي المجدورة من أسنان الحجارة الحادة. والجدل لاهية عنا وسوق الخضار يموج بالناس والباعة. وشجرة الجميز مباركة تحمل سبعة بطون في السنة. واليوم الجميل لا بد وأن يسبقه يوم أعجف و.. و..

وانتبه على أبو محمود يقفز من فوق السقالة وهو يصرخ:

ـ لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي القدير. اليمني يا سعيد.

ـ ماذا جرى؟

ـ وقع.. وقع يا ولدي.. لا إله إلاّ الله.

وقفز سعيد يعدو خلف أبي محمود. لا يعرف كيف وقع ولا أين. لكنه أحس بوقوع كارثة. فلقد كانت كلمات أبي محمود ملتاعة حزينة.. انطلقا نحو الرجل المكوم على كوم الخلطة وقد انغرس وجهه في طين الاسمنت.

حملاه ومدداه على ظهره في ظلّ الحائط بعيداً عن تيار الريح. كانت يداه مرميتين على الأرض. وقد تهدلت عضلاتهما. وظهرت العروق الزرقاء الداكنة تتلوى كديدان الأرض المقتولة. بينما كانت فقاقيع الزبد المختلطة بمخاط منخريه الأصفر تنتشر على صدغيه حاملة معها ذرات الاسمنت السوداء التي غطّت وجهه عندما ارتطم بكومة الخلطة. كان يتنفس بصعوبة. تهتز عظام صدره بإعياء يظهر على خطوط عينيه المعلقة بالفضاء. أخذ أبو محمود يثني ساقيه المتصلبتين ويفردهما. بينما انهمك سعيد في تدليك صدره بليونة متلصصاً على ضربات القلب المجهد.

حرك "عزرا" أطرافه كالذبيح فتنهد أبو محمود بعمق وخرج صوته متهدجاً:

ـ الحمد لله. الحمد لله. يا رب.

ونهض يدور حول الرجل يتمتم بعبارات متقطعة وكأنه يخاطب شخصاً قادماً من أعماق الغيب: "لا إله إلاّ الله.. نصيب عيالك يا "عزرا" وطفلتك المسكينة.. سبحان العلي القدير.. يحيي العظام وهي رميم"..
مسح سعيد سيلانات الزبد والمخاط اللزجة عن صدغي "عزرا". فدارت نظرات الأخير مع حركات اليد وأخذت شفتاه ترتعشان فلم يقو صوته على الخروج.. ربت على جبهته مشجعاً ومطمئناً فاستغرق "عزرا" في

بكاء صامت. تنهمر الدموع على وجنتيه بغزارة. حاول سعيد أن يهدئ من روعه ولكنه توقف بذهول. ارتخت أوصاله وغاب محدثاً ــ عبر سيل الدموع ــ بعيداً.. بعيداً.. خلف الجدران السوداء.. لا فرق.. لا فرق.. "عزرا" اليوم وصالح الأمس.. صالح بئر السبع والجدران المظلمة وأكياس الإسمنت والحجارة. والسجناء في بئر السبع يبنون مزيداً من غرف السجون لمزيد من الرفاق. ورياح الصيف تلفح الوجوه. تستفز العرق من أعماق الخلايا. يترسب ملحاً جيرياً على الشفاه بانتظار الاستراحة. وصالح بجسده الضئيل ينوء تحت ثقل الحجارة يرفعها للدور الثاني يستحلب الابتسامة الهازئة على شفتيه مغالباً عجزه ووهن قواه.. حتى لم تعد الابتسامة قادرة على ترطيب مرارة الملح المترسب على الشفاه. فسقط على الأرض وسقط الحجر من بين يديه على صدره.. ومن جوفه يفور الزبد الأبيض تذروه رياح الصحراء بعيداً.. واليوم رياح الخريف الباردة تجمّد الزبد على صدغ "عزرا". والرفاق يتركون ما بأيديهم ويتحلقون حول جسدك المُسجّى على الأرض يا صالح. يرقصون عنفاً وإرادة وهديراً وعروقاً مستفزّة. وصراخ وجنود مذعورين بالهراوات وأعقاب البنادق. ولا جدوى. وصالح يرسل ابتسامة سخرية تحملها رياح الصحراء بحنان. والإضراب وصالح ممدد. والإضراب عن الطعام حتى يأخذ صالح العناية الطبية اللازمة. وإرادة الشباب بيانات وخطى ثابتة. واليوم يتمدد صالح في عيون "عزرا" والرفاق سيلاً من الدموع. إنهض يا "عزرا" فأنت الأقوى.. إنهض.. واحتضن "عزرا" بحنان.. ولكن قبضة قوية صفعته من الخلف فألقمته الأرض. نظر سعيد حوله.. كان "شلومو" ينظر إليه بحقد يلوح بقبضته صائحاً:

ــ إلى العمل يا حمار.

قفز أبو محمود بينهما موضحاً الأمر.

ــ "عزرا" وقع يا سيدي.. ونزلنا نسعفه

ثم مستدركاً:

ــ العمل بخير.

يصق شلومو باشمئزاز:

ــ العمل زفت. كلكم زفت.

قفز سعيد واندفع نحو "شلومو" تستحوذ عليه إرادة الفتك. ولكن أبو محمود حضنه بقوة وأخذ يدفعه متوسلاً إليه:

ــ إهدأ يا سعيد. إحنا مش قده يا ولدي.

أخذ سعيد يرفس برجليه ويديه محاولاً التخلص من حضن أبي محمود الذي استمات في إبعاده عن المقاول. متصاً غضبه بتوسلاته:

ــ إحنا مش قده.. هذا نذل.. عرص.. قواد كبير.. كل الدنيا عنده فلوس.. مش كل الناس يقدر يشتريها بالفلوس..

زحف "عزرا" حتى وصل سعيد ونهض معتمداً على ساقه ولكنه سرعان ما وقع على الأرض يلهث:

ــ إهدأ يا سعيد.. أرجوك.. كله بسببي.. إهدأ يا سعيد.

أحسّ "شلومو" بحرج الموقف فأخذ يتراجع.. لا تفارق نظراته المتوجسة سعيد حتى وصل إلى سيارته..

قفز خلف مقودها.. وصرخ بغيظ:

ـ أبو محمود، أنت مطرود.

قذف أبو محمود ملء فمه:

ـ مطرود مطرود. يلعن أبوك وأبو شغلك. إنصرف عن وجهنا.

أدار "شلومو" محرك السيارة وبصق بشماتة مشيراً نحو سعيد و"عزرا"[1]:

ـ والحمير أيضاً مطرودين.

أفلت سعيد من حضن أبو محمود واندفع نحوه كالقذيفة. ولكن السيارة انطلقت مسرعة وقد خلفت سحابة دخان وغباراً كثيفاً غيبتهم في جوفها ثلاثة أشباح وسعال شديد.

* * *

(من المجموعة القصصية: "الخروج عن الصمت" ـ منشورات البيادر ـ 1979)

(1) كلمة عبرية تعني المعين.

وردة بيضاء من أجل ديڤيد

غريب عسقلاني

ـ 1 ـ

أن تقف أمام الموت وجهاً لوجه.. أن تختار بين موتين. تقتل أو ترى ابنك يقتل.. لكني قذفت الحجر بكل خوفي على ولدي.. استقرّ الحجر في جبهته. جحظ. حطّ بصره عليّ.. استوعبني تماماً.. هل عاتبني؟ تحوّلت عيناه إلى كرتين من زجاج ميت.. كان الأمر مروعاً.. رقّ قلبي.. خيّل إليّ أن الجندي فقد الرؤية لكنه لم يتهاو.. هل كان فزعاً؟؟ هل يشكل الخوف حالة انهيار؟ وحالة انبهار؟.. هل ينشف الإنسان ويستحضر حالات حياته في لحظات قصار. لا تتجاوز رفات القلب.. تخشّب. مالت يده على البندقية وانسحب إلى سيارة البور.. أشهد أنه لم يحرّك ساكناً.. استبدّ بي الفضول رغم خوفي! لم يمسح خيط الدم الذي انبثق من جبهته. غطّى وجهه وسال إلى زاوية فمه.. هل رشف الدم ساخناً؟ وأشهد أنه دفع الجندي الذي هبّ لإسعافه. هل كان هائجاً؟ ولماذا لم يتحوّل إلى وحش كما يفعل الجنود؟.. للحظة تخيلت أنني ميت.. مكوّم على الأرض. تكة على الزناد يمسح المكان رصاصاً وموتاً وقتلى ومجزرة في غمضة عين. لكنه لم يفعل. الذي أعيه أنني عالجته بالحجر. وفرّ حسام وهرول الجنود وتفرّق الأطفال.. واحتدمت حالات المخيم. تنفّسنا المسيل للدموع واحتمينا بالأزقة التي يرهبها الجنود. يخافون مساربها.. ازدادت كثافة النيران والدخان.. عطسنا.. عطس الجنود واندلقت دموعنا. لسعات الغاز أحرقت أغشيتنا.. استنفرت مسامات جلودنا وازداد الهياج. تلاحم الناس بالناس وانسحب الجنود. كالعادة حسمت جموع الناس الجولة.. وتدخلت بنادق الجنود رصاصاً.. انهالت الحجارة على الميكروفون الذي راح ينعق يشق الجموع.

ـ انتبهوا.. انتبهوا.. بأمر من الحاكم العسكري.

اندفعت إلى البيت. صرخت:

ـ أين حسام..؟

ضربت هيفاء صدرها. ولولت:

ـ ولدي طخّوه..؟؟

انطرحت وانطلقت أعدو في الأزقة. أتفرس وجوه الصغار. كانوا يتقافزون لا يبالون بأل "إنتبهوا" ولا بالحاكم العسكري. يجهرون لاستحضار حالة أخرى من حالات الجحيم. لحق بي أخي الأصغر عبد الله.

ـ ما لك داير مخطوف لونك..؟

ـ شفت حسام يا عبد الله؟

ـ خير، حدث شيء؟

ـ ما رجع للبيت!

ـ ومين منهم رجع لدارا يشوفوا الزقة ويرجعوا؟

ـ يا رجل أنا شفت الجندي يصوّب عليه!

ـ نقلوا الجرحى. ما حدا شاف حسام. لو جرى له شيء الناس قالت.

أدرك عبد الله خوفي على ولدي. قال يداري قلقه هو الآخر:

ـ إيش معنى حسام من دون الخلق؟! لماذا حسام من دون الأطفال؟.. ولماذا ديفيد من دون الجنود؟.. أهو القدر؟.. أهي الحرب..؟ ولكني وجدت نفسي بين جموع الناس. أذوب. أنصهر. هي الإنتفاضة..!!

ـ2ـ

ـ إنتبهوا. إنتبهوا.

وحسام يغط في النوم مهموداً من تعب النهار. البسمة لا تفارق شفتيه. ماذا عساه يحلم. هل يأتيه ديفيد كابوساً مرعباً. لا عليك يا ولدي. أنت الآن في حضني ولكن ما يكون

ـ والله يا بوي لما حطّ البارود في صدري. خفت. صرخت تقول.

حبّة بخّت عليه.. نطيت من بين رجليه.

قالت هيفاء صدرها يلهث مع ولدها:

ـ طيّب قوم نام. والله يعطيك العافية.

تبسّمت. مصّت شفتيها. همست: "الحمد لله على السلامة". وتوهّج وجهها. قالت:

ـ بكره تشوفه راجل يفرّح قلبك.

غمزت بعينين راغبتين:

ـ يشبهك تماماً يا محمود

ودفنت رأسها في صدري. شمشمت مساماتي. وشوشت بأصابعها تحت إبطي. بح صوتها:

ـ الأولاد جن أزرق. صدق من قال أولاد منع تجول

تكوّرت في حضني. لحست شعيرات صدري. وكنت غارقاً فيه. غرسي وسندي. أحدّق في سقف القرميد الذي فتحت فيه راجمة الحجارة. طاقات كثيرة سدتها هيفاء بقطع النايلون. فرستني وكانت شبقة. إنحدرت دمعة على خدها. قالت تغالب البكاء:

ـ أنت زعلان لأنك فتحت رأسه. طيب وحسام..؟

كالملدوغ احتويتها. خبّأت حالي فيها. أحتمي بها. تحتمي بي. نتوحّد معاً. نرتعش معاً. نغتسل بضوء القمر الذي انسلّ من طاقات القرميد. ينعكس الضوء علينا.. كانت بيضاء بضة. متوهّجة. لم نخجل من

عُرينا وكان حسام يغطّ في نوم هادئ. ما زال يبتسم.

ـ 3 ـ

سلخ الحجر جلد الرأس. ترك جرحاً مستعرضاً. وارتدّ عن غطاء الجمجمة. انبثق الدم. غطّى مساحة الوجه. لفوا رأسه.. إتصلوا بالقيادة يبلغون عن جندي مصاب في أحداث مخيم الشاطئ. فيما جلس ديفيد يحدق فيهم. بندقيته ممددة على أرضية السيارة.

زغردت صبية عندما مروا بها. وسجّلت علامة النصر في وجوههم. اشتد هياج الضابط. قذف قنبلة دخان يغطي على مدى الزغرودة.

قال جندي حانقاً:

ـ كان الصبي بين يديه.. تركه يمضي. لماذا؟

قال الضابط:

ـ كيف أصيب..؟

مطّ جندي شاب شفتيه. قال متوتراً:

ـ وهل كنا في نزهة..؟؟

وفي المستشفى أكد الطبيب أن الحجر قذف من مسافة قريبة جداً وربما أحدث شرخاً في عظم الجمجمة وقرر تحويله إلى جهاز الأشعة..

ملاحظة: (تجاهلت نشرة أخبار المساء أحداث المخيم تماماً)

ـ 4 ـ

عدت يا ديفيد. شتّان ما بين الزيارة والزيارة. كانت زيارتك الأولى مباركاً قدوم حسام إلى هذه الدنيا. وكانت "أستر" بصحبتك. كنت عريساً وكانت هدية حسام سريراً جميلاً.. يومها طارت استر فرحاً وهي تهدهد الصغير في سريره. تهش له. تناغيه. حسام.. حسام.. مبهورة بسواد عينيه.. تعلقت يومها برقبتك وقالت:

ـ لو تنجب بنتاً بعيون عربية!

يومها احتويت زوجتك. قبّلتها أمام الجميع. احمرّت عيون أخواتي الصبايا خجلاً. أشاح أبي إلى بعيد حتى لا يرتكب معصية النظر. وضحكنا كثيراً.

وعند الغداء. تربّعت استر فانكشف نصف لحمها. لهث أخي عبد الله. ورمت أمي شالها تستر عري إستر. وانفجرت أنت ضاحكاً.. كان خوفاً وخجلاً عربياً لم تتوقعه أنت. ولكنك أردفت بالعبرية تخاطبني:

ـ الزيارة القادمة تحضر إستر بالبنطلون.

وعندما سألتني أمي عن إسم زوجتك. كان لفظ إسم إستر غريباً عليها. قالت العجوز:

ـ الحمد لله. إسمها مستورة..

وغرقنا في الضحك من جديد. وكانت المستورة مبهورة بالزيارة. تطلّ في عينيها أسئلة وتساؤلات. تكتشف الأشياء بلذة الميلاد.. دارت في المخيم مع هيفاء والصبايا. غسلت قدميها بماء البحر.. راقبت الصيادين على صدر البحر أهداها أحدهم سمكة جميلة.. وضعها في كوز ماء.. أحضرته معها.. عادت من

جونتها بعقد من الأصداف يزيّن صدرها، وأساور من زلف الشاطئ حول معصمها.. كانت تمضغ من رغيف طابون ساخن هدية من عجوز تخبز على فرن الطين في طرف الزقاق.

لو تذكر يا ديفيد.. قلت يومها أنها زيارة مدهشة.. ووعدت بتكرار الزيارة وكنت أخاطب نفسي أنها لذة اكتشاف عالم جديد.. أما إستر فكانت تمضغ خبز الطابون تهتاج: "فنتاستك" ديفيد. وتبخل عليك حتى بلقمة من رغيفها، تتدخل أمي:

ـ أعطيه خبزه.. هذا جوزك حبيبك..؟

كانت إستر طفلاً يلهو.. يتعلم، يستوعب.. مبهورة بخبز الطابون، وأصداف البحر وزلف الشاطئ. يومها زارتنا بثوب يكشف نصف لحمها، وعادت آخر النهار ترتدي الثوب المجدلاوي، هدية من أمي، وشالاً عربياً يزيّن رأسها هدية من هيفاء.

وعندما زرتك يا ديفيد بصحبة هيفاء وحسام استقبلتنا إستر بالثوب والشال، وكانت قدرة الفخار تتوسط صالة البيت.. تضم باقة ورد بيضاء نضرة يحيط بها عقد من الأصداف وأساور من زلف الشاطئ.

احتضنت إستر الصغير وهتفت بك:

ـ صورة يا ديفيد..!

قبلت هيفاء قالت تخاطبني بالعبرية:

ـ أحلم بطفلة عربية العيون!

ترجمت لهيفاء قالت:

ـ سبحان الله.. يحلمون بسواد عيوننا.. ونحلم بزرقة عيونهم وبياض بشرتهم.

وها أنت ذا تعود يا ديفيد دون إستر.. هل تصوّرت يوماً أن يحدث.. ما حدث.. يرسلونك لتقتلني دفاعاً عن نفسك.. وأرميك بالحجر دفاعاً عن حسام.. هل جئت تجتث حساماً.. تكسر أضلاعه، تهشم أطرافه ثم توسده السرير، ذلك الذي باركته يوم ميلاده.. هل تتصور إستر تهدهد طفلاً مبتور الأطراف؟ مطفأة عيونه السوداء.. لكنك لم تفعل يا ديفيد..!

ـ 5 ـ

أدور في المخيم.. أندفع مع الناس.. جيوبي محشورة بالحجارة، أسابق الأطفال والصبيان والنساء كلما لاحت دورية الجيش تصرخ ملء الصدور:

ـ عليهم.. عليهم..

تندفع، تسبقنا حجارتنا، وتسابقنا قنابلهم وزخات الرصاص، تطاردنا السيارات.. أنزوي، ألتصق بجدران الأزقة.. أتفرّس وجوه الجنود.. أبحث عن جندي معصوب الرأس.. يداهمني حزن.. هل كان جرحه عميقاً؟ هل نتقابل ثانية؟ هل أجد الجرة تتوسط الصالة.. وإستر هل تحتفظ بالثوب والشال المطرّز؟ هل تتذكر إتفاقية الشيخ عوض يا ديفيد..؟؟

ـ 6 ـ

شيء لله يا شيخ عوض.. تسلّمنا العمل من شركة "سوليل بونيه" الشهيرة للإنشاء والبناء.. وكنت أعمل مع مقاول حفريات.. تنفذ مشروع مجاري الضاحية السكنية على شاطئ عسقلان.. كان ديفيد

مهندس الشركة المسؤول عن مراقبة التنفيذ. كان هادئاً يأتي أول النهار يُحدِّد علامات الحفر ويعود في نهاية اليوم يُسجّل كميات الحفر. يتأكد من سلامة الشواخص. بقيس المناسيب. وكان المقاول لا يرتاح لديفيد. وكنتُ أشعر بالإلفة لوجوده. يبتسم للعمال. ويمتعض عندما يصرخ المقاول فينا. كانت الضاحية السكنية تفترس مساحة واسعة أمام مقام سيدي الشيخ عوض. وعندما أبلغت أبي. غامت الدنيا به. هاج:

ــ على رقبتي..!!

لكنه سرعان ما استكان فرد كفه. تمتم: "كف يلاطم مخرز". قام. توضأ. استغفر ربّه كثيراً. وبعد صلاة العشاء سألني:

ــ الحفر يصل التوتة الكبيرة؟

التوتة الكبيرة تقع في بطن الخط الرئيسي. أومأت مؤكداً. توجه إلى أمي وقد اتخذ قراراً.

ــ يا حاجة صفية. بعد بكره نزور المقام

* * * * *

اضطجع أبي في ظلّ جدار الشيخ عوض. أما أخي عبد الله فقد انطلق إلى البحر يتابع الموج. ينكسّر على أجساد النساء العاريات على الشاطئ. بينما أشعلت أمي النار تحت القدر تعد غداء الجريشة الأثير لدى الوالد.

وفي آخر النهار. خلا الموقع من العمال والأعمال. مسح أبي المكان بعين الصقر. هبّ آمراً.

ــ هيا بنا.

تجاوز شيخوخته. ومضى كالتنهيم إلى التوتة. سرت في بدنه رعشة شملت كل مساماته. إبتهل إلى السماء وضرع. جثا على ركبتيه مأخوذاً خاشعاً. فيما انتصبت أمي خلفه كرمح رمان ريان. منديلها ينهدل على كتفيها. يكشف عن ضفيرتين من شعر كثيف. اكتشفت أنها مكحولة العينين. مشّطت شعرها بعناية فائقة. كانت صبية في أواخر أيامها.

إنتصب أبي. غرس قدمه عند جذع التوتة. خطا ثلاث خطوات نحو الشرق توقّف ثم انحرف ثلاثاً نحو الشمال. وفي منتصف المسافة بين خطوة البداية وخطوة النهاية تسمَّر. نادى عليّ:

ــ تعال هنا.

ترددت. تلفتُّ امسح المكان. ماذا لو رآنا أحد؟ ماذا لو مرّ المقاول؟

عاد صوته أكثر إصراراً.

ــ تعال هنا يا ولد.

وجثا يخربش بيديه المعروقتين. كنت أحسّ بنبض عروقه. وكنت خائفاً. صوت خلفي. أعرفه جيداً.

ــ من هذا يا محمود..؟

ديفيد! وقع ما كنت أخشاه. ودلقت هواجسي دفعة واحدة.

ــ إنه أبي وهذه أمي.

قال أبي فيما كانت أمي شامخة لم تطرف لها عين:

ــ قل له نريد ردّ الأمانة!!

ــ ديفيد. أبي دفن هنا شيئاً خاصاً به منذ ثلاثين عاماً. واليوم يريد استرداده.

بُهتَ ديفيد. همس لنفسه "فنتاستك". وراح يتأملنا. يوزّع بصره علينا وعلى جذع التوتة. هرول إلى سيارته. تأكدت أنه لا بد فاعل شيئاً. خفت على العجوزين لكنه سرعان ما عاد بجاروف دفعه إليّ. قال بحزم:

ــ أحفر يا محمود.

إستجابت التربة للجاروف. صدر أبي يلهث حتى طبّ سن الجاروف بشيء. رفع العجوز يده. توقفت وراح يزيح التراب بحذر حتى تميزت الوديعة. سالت دموع أمي. وقف ديفيد مبهوتاً.. مأخوذاً. أخرج والدي قدراً صغيراً من الفخار واستند إلى جذع التوتة. اقترب ديفيد يحاول أخذها. تشبث العجوز بإصرار وانتصبت أمي بين الرجلين تستنهضني وأخي عبد الله. سأل ديفيد:

ــ ماذا بها؟

قلت:

ــ ليس ذهباً على أية حال.

نزع أبي خرقة قماش من فوهة القدرة وأدخل يده يتفقد محتوياتها. يوزع نظراته علينا. قال:

ــ هذه القدرة ملكي أنا.

أومأ ديفيد موافقاً.

سحب أبي ورقة مطوية عدة طيّات. فرّدها.. كان اتساعها غير عادي

ــ هذا كوشان الكرم مختوم عليه تواقيع الشهود.

أومأ ديفيد مصدقاً.

سحب أبي ورقة أخرى ونظر نحو أمي بوجد:

ــ وهذا عقد زواجي من صفية.

إختلجت أمي وطفا الحياء على وجهها الصبور. ابتسمت لديفيد. ابتسم لها. وقال أبي:

ــ وهذا خلخال عروسي. آخر ما تبقى من مصاغها.

وقال:

ــ وهذه رصاصات بندقيتي التي صادروها.

دسّ أبي أوراقه ورصاصاته في عبه. وحزت أمي خلخالها. كانت الشمس تتقدم نحو المغيب. وحمرة الشفق تتلون بلون أرجواني بديع ينعكس على رمال الشيخ عوض الصفراء. تتلألأ وهجاً دافئاً. كانت الموجودات تسبح لخالقها وكنا خاشعين. همس ديفيد برجاء:

ــ هل تهديني القدرة يا شيخ..؟

قاوم أبي دمعة انحدرت على خده. مدّ يده بالقدرة. قال:

ــ إحتفظ بداخلها بأشياء عزيزة عليك.

ـ 7 ـ

الصبح يتنفس. أمواج البحر تتكسر على رمال الشاطئ. ينتشر المد هسيساً خفيفاً يهدهد البيوت المنخفضة. أنفاس الكائنات يغلفها خدر لذيذ. صوت الأذان يشقّ الفضاء، محملياً يداعب الجفون الاسيانة. أزقة المخيم تستقبل الضياء الوليد. وظلال أشباح ملثمة تطرّز الجدران. شعارات وانتصارات. ونعي وشهداء تبشّر الناس بجدول أعمال الأيام القادمة.

العمال وجدول أعمال حذر خجول. ما عادت الباصات تنتظرهم عند بوابات المخيم. ما عادت ساحة السوق تكتظ بهم. خطى جماعات العمال تفرّقت. خطوات مفردة خجلى أمام حاجة الأفواه التي تلوّن طعم الأزقة بمذاق جديد.

محمود يحمل زوادته بعد غياب طال عن العمل. قال لزوجته: "إذا تأخرت أبيت هناك وأزور ديفيد". لم ترحب زوجته بالفكرة. غشيها إحساس باحتمال الغدر. لم تفصح عن قلقها أمام رغبته.

سيارة جيب تقترب. ضوء الكشافات يطغى على خيوط الفجر. تغشى الأبصار. تتسمر الخطى. صوت آمر:

ـ تعال هون.

يتقدم. يُشاهد رجالاً سبقوه. جنود يهرولون. ركلات. لكمات وصفعات على الوجوه. هراوات تهوي. وجع العظام أنين مكتوم. صفوهم. تحسسوهم حتى أضيق زوايا أجسادهم. سلبوهم هوياتهم. كانت سحناتهم تشي بحقد كبير. لم تغير أنفاس الصبح قساوة ملامحهم. قال ضابط الدورية ملوحاً بالهراوة:

ـ أنزلوا العلم وانتظروا لما أرجع.

ومضى.. وقال أحد العمال:

ـ نهار من أوله أخذنا الرزق من بدري.

ردّ عليه آخر من خلال وجعه:

ـ إيش نتوقع من عدو..؟

قال شاب وسيم نال قسطاً وافراً من اللّكمات:

ـ الرحمة طبعاً..!!

وانفجر ضاحكاً. لكن آلام فكه المرضوض كانت أقوى.

محمود يتحسس وجهه.. تدمع عينه. لكمه الملعون عندما تلكأ في إخراج الهوية. جفنه يتمدد. يسد طاقة الرؤية عن بؤبؤ العين. عينه تسبح في بحيرة ملح تدمع بغزارة.

العلم يرفرف شامخاً. مقلاع من خيط وحجرين. حجر يشبحه في سلك الكهرباء. وحجر يتدلى إلى أسفل يحفظ اتزانه. يرفرف العلم يعلن عن ميلاده. والصبح ميلاد يوم جديد. ويوم عمل جديد ينتهي قبل أن يولد.

خيوط الشمس تصافح مساحات الأزقة. والأزقة تقذف جيوشها. تدبّ الأقدام الطفلة. يخجل الرجال العمال من عيون الصغار.

امرأة تحضر عود بوص طويل. يعتلي أحدهم كتف أحدهم يضيف لطول العود طولاً جديداً يقترب من

صدر العلم. عيون العمال على الأطفال وعقولهم خلف هراوات الجنود. واحتمالات تكرار علقة ساخنة.. وغضب يمور في الصدور. لامس طرف البوصة خيط العلم. هلل الأطفال على مقربة منهم.

ـ بالروح.. بالدم.

قذف صبي مقلاعه فاتزن علم جديد يصافح أشعة الشمس. ويبتسم لتهليل الصغار الذين راحوا يطبلون على حقائب المدارس بإيقاع رجولي بديع:

ـ بالروح.. بالدم.

قال رجل من العمال:

ـ الظاهر مش راح نرجع الهويات اليوم.

قال آخر:

ـ إحتفظوا بالبوصة للعلم الجديد.

نظر محمود نحو العلم. ردّته لسعة حرقان في عينيه من دمع الكمة. يستند إلى الحائط يتقي وهج الشمس. رأسه يطنّ بصداع قاتل. لم يدرِ لماذا ألحّ عليه ديفيد.

ـ 8 ـ

تقوم العمارة على ناصية السوق. يرتفع الطابق الأول. يحتجّ الجيران. يتدخل المختار.

ـ البناء مرتفع والشبابيك تكشف ستر الجيران يا "أبو عاصي".

يمصّ الرجل شفتيه: "حسد والله العظيم حسد". لكن الأصول عند أولاد الأصول. تجبره على إغلاق الشرقي والشمالي ويكتفي بالغربي. يسرح ويمرح مع نسيم البحر. يرتفع الطابق الثاني والثالث. تستقيم العمارة وسط المخيم. تصبح دليلاً يسترشد بها من يستدل على دروب المخيم.

وعندما تبدلت حالات المخيم. تحوّل السوق إلى ساحة قتال. وموقد إطارات. ومواقع هجوم. وخطوط دفاع. لاحت العمارة للجنود ملجأ. امتطوها ونصبوا علمهم على سارية هوائي التلفزيون الذي طالما اختال به "أبو عاصي" على الآدميين. لم يعد إسم "أبو عاصي" مريحاً.

وفي النهار يمسح جندي المراقبة بمنظاره فوهات الأزقة. يرصد تجمعات الشباب. بؤر الإنطلاق. يترك المنظار. يلاعب رشاشه. زخات هوجاء تنعق في فضاء المخيم. يهيج المخيم. يصبح اقتحام العمارة هدفاً يومياً.. حلماً ينام عليه الصغار والكبار.

وفي الليل تصمت الأشياء. يتميّز هدير البحر وأحلام الصغار. تحت الأغطية. يرتعب الجنود. يصادرون النوم من جفون الناس. يصطادون براميل ومرايا الحمامات الشمسية. أما البيوت المجاورة فتلقى نصيبها من الحجارة تدبّ على ألواح الأسبست. وقطع القرميد القديمة. وفي حالات منع التجول تطرق الأبواب. يسحب الرجال صيداً إلى العمارة. وفي نهايات الليل يتكوّم الصيد بقايا حطام. وأطراف مرضوضة مهشمة.. يحملهم الأهالي إلى ذويهم بصمت وتغلي في الصدور قدور على نيران لافحة بصمت أيضاً.

ينشق الليل عن صبح. تمور في الصدور قدور الغضب. تنضج أحمالها. يلتقي الهياج بالهياج. يندفع الهياج صوب العمارة. مقاليع الصبيان ونقافات الصغار حصن يحمي الإندفاع. تعوي أجهزة اللاسلكي. المخيم. كل المخيم نحو العمارة. يزخّ الرصاص غزيراً وفي كل اتجاه. يصرخ حسام:

ـ عمي عبد الله!!

تكوم عبد الله ينزف بغزارة. الجنود يلتفون حوله يمنعون أحداً من الوصول إليه. صبية تندفع ترتمي عليه. تهوي الهراوات عليهما. عبد الله يحدق. تغيم المرئيات من حوله. امتصت الرمال الدم النازف. سرى الدم بين مسامات التراب. افترش دائرة حمراء قانية. لاحت على البعد سيارة الأمم المتحدة. سحب الجنود الجريح إلى سيارة الجيب فيما انشغل ممثل الصليب الأحمر بإسعاف رجال الإسعاف.

ـ 9 ـ

اختفى عبد الله. لم يستقبله مستشفى. لم يبلغ عنه في سجن أو معتقل. اختفى أثره. تاه الصليب الأحمر ولم يعد يخبر. ممثل الأمم المتحدة يشدّ شعر رأسه ويصرخ في الحاكم:

ـ رأيته بعيني!!

يتهكم الحاكم:

ـ تبحث في الأمر!!

أبي سربله الوجوم. يدور في الأزقة. يتفرّس وجوه الناس. يحتويهم بأبوة فيّاضة. يأسى الناس:

ـ الله يصبره.

يبتسم للأطفال. يدور. يدور. يجلس حيث سقط عبد الله. يفرك حبيبات الرمل بين أصابعه. يستنشق رائحة يعرفها جيداً. يبكي. تخضل لحيته البيضاء. تلمع في وهج الشمس. يوزع الحجارة على الأطفال. ويعود للبيت. يتحاشى النظر إلى أمي التي حلت ضفائرها ومسحت كحل عينيها. وأقسمت ألا يمسّ الماء جسدها قبل عودة عبد الله حياً أو ميتاً. ساهمة تبكي. تحتضن حسام. تهمس:

ـ أنت شفت عمك ساعة ما سقط على الأرض؟

يهزّ الطفل رأسه. يتطلع إلى عيون جدته. ينكمش بجوارها واجماً. تتمتم العجوز بآية الكرسي ترقية من رؤى ليلية. تلازمه منذ وقع عبد الله. يصحو حسام من نومه فزعاً. تهدهده. يغفو قليلاً ثم لا يلبث يستغيث مذعوراً. تزداد خوفاً عليه والبيت تحول إلى عيون ترد على عيون. ودموع تأرجحت على الأهداب. والحوار صمت طويل. وأمل أبكم.

* * * * *

كالحلم كانت البشارة. أطلقها عابر الطريق ومضى:

ـ عبد الله حي يرزق!

يا هذا الهاتف. حلم أنت أم حقيقة. كيف وأين..؟؟

ـ في مستشفى "تل هشومير".

"عثر عليه حارس بيارة بين الأشجار. عارياً مجهولاً مطعوناً. نقل إلى المستشفى على خلفية جنائية".

وكدت آجن. كيف لم أقف عند خبر سربته نشرة الأخبار عن مجهول عثر عليه مطعوناً في إحدى بيارات عسقلان. وما زال التحقيق مستمراً للتعرّف على هوية الجني عليه.

* * * * *

قال الطبيب مبهوراً:

ـ إنه يتحسن بسرعة. جسده يستجيب للعلاج بصورة غير عادية!!

وقال رجل يرقد في سرير مجاور:

ـ سبحان الذي يحيي العظام وهي رميم.

كان الرجل مواطناً من خانيونس ينتظر جراحة غضروف. قال:

ـ لم نعرف إسمه إلا بعد أسبوع. عندما نطق. إعتقدوا أنه جندي مخطوف. لكن أحداً لم يبلغ.

كان عبد الله رائقاً شفافاً. تحتويه نظرات أبي. تنفذ من مساماته. تحيله إلى وهج من حنان ينصب على أمي التي ضفرت جدائلها. وكحلت عينيها وانتصبت كعود رمان ريان. حسام يتعلق برقبة عبد الله يتهامسان يضحكان. تذكر عبد الله:

ـ زارتني إستر قبل يومين..؟!

ألجمتني المفاجأة. قال عبد الله:

ـ كانت ترافق ديفيد لمراجعة طبيب الأعصاب!!

أشار عبد الله إلى مزهرية بها باقة ورد بيضاء. قال:

ـ سألوا عنكم.

لهجت أمي تتأكد:

ـ المستورة وزوجها يا عبد الله؟

أطلقت زغرودة رنانة نبهت المرضى والزوار. لغطوا بلغات شتى. وشت ابتساماتهم بفرحة السلامة. تورّد وجه أمي. غمزت لهيفاء فانطلقت زغرودة مزدوجة تجاوبت بين الأسرَّة.. طافتا توزعان حلاوة السلامة على الحضور. مدوا أيديهم. مضغوا بشهية. كانوا سعداء. ورفرف على الناس سلام السلامة. تمتم أبي لنفسه:

ـ لو تعرفون كيف وقع عبد الله..؟

وانزلقت دمعة على خد العجوز.

ـ 10 ـ

بين الإضراب والإضراب أيام مواجهة.. نسرق أنفسنا بحثاً عن أيام عمل تلتقط رزق أيام قادمة في بطن الغيب. وفي المواجهة يسقط الشهداء. يشتدّ هياج الناس. يبقى المخيم مشدوداً على وتر الإضراب. ينطلق مع سهام المواجهات ولا تذمر. فالناس تصنع الأحداث. وترقب النتائج والتفاؤل. طير يحطّ على الجميع. هيفاء مشغولة بحسام الذي يُجدد نقّافته كل يوم. آمي .أبي يستقبلون ويودعون بسلامة عبد الله.

* * * * *

ديفيد يشفى من حالة الإكتئاب التي لازمته شهوراً. تركت جرحاً مستعرضاً في جبهته. فشلت عملية التجميل في إخفاء آثارها الناتئة. يرفض الإجابة على حيرة زميلة في الدورية. لماذا لم يمسك الصبي.. لماذا لم يطلق النار رغم إصابته. وهيفاء تجمع المحار تشكل الأصداف عقداً بديعاً. وتصف زلف الشاطئ أساور رنانة. تشتاق لرؤية إستر. كيف يكون اللقاء. كيف يكون السؤال. والجواب يا ديفيد..؟؟

* * * * *

ترددت. قلبي يدق. أحاسيس ومشاعر تختلط بكلمات هيفاء: "أخاف عليك الغدر". لكن ها هي ذي هيفاء تسبقني بمشوقة متناسقة. عروس أبنوس صلبة. ثوبها الجدلاوي. شالها الأبيض المطرّز. إصرار وثقة. تقف بالباب تمسك بيد حسام.

فتح الباب. كان ديفيد بلحمه ودمه.. تواجهنا. وكان حسام بيننا. داهمني الخوف على ولدي. كدتُ أقفل راجعاً من حيث أتيت. لكن ديفيد سبقني. قبَّل الصغير ومضى به للداخل. فاندفعت هيفاء خلفه وكانت قوية. تميز صوت إستر من الداخل:

ـ هيفاء.. حسام!!

تداخلت المرأتان شوقاً وعناقاً. تسمَّرتُ أنا فيما داعب ديفيد شعر حسام. همس:

ـ مدهش.

طوقته. قبلته فوق جرح جبهته. أحسست آثار الجرح تنبض بين شفتي. بللت الجرح بلعابي أتدارك نتوء الجرح. انفرجت أساريره. وكان هادئاً ورحت أتطلع في عينيه. أستطلع إجابات لتساؤلات تطن في رأسي. لكنه راح ينظر للقدرة الفخارية العتيقة. تحيط بها قلادة من أصداف المحار وأساور من زلف الشاطئ. كان في القدرة باقة زهور بيضاء. غطسنا في الصمت فيما مضى حسام يجوس في البيت كمن ولد فيه.

* * * * *

أطلت علينا إستر بالثوب الجدلاوي والمنديل الأبيض. تقلدها هيفاء عقداً وأساور. وقفتا خلف القدرة. حملت كل منهما زهرة بيضاء. هاجت إستر:

ـ ديفيد. صورة.

وقبلت هيفاء. همست. رشفت دمعة. قالت:

ـ ما زلت أحلم بطفلة عربية العيون.

* * * * *

يحلث عن حسام. كان يطلّ من الشرفة يتابع مجموعة من الجنود ينتظرون عند موقف الباص. نظر نحوي. تنهد. رأيته عملاقاً مجرداً من سلاحه. وكان يبحث عن شيء. قال:

ـ لو معي النقافة؟!

إرغَ قلبي. جرح ديفيد ما زال أخضر. هدأ حسام في حضني. وقدم لديفيد زهرة بيضاء من باقة القدرة.

(من مجموعته القصصية "الصبي والشمس الصغيرة"
منشورات إتحاد الكتّاب الفلسطينيين. القدس ـ 1992)

تعلِّمُني حكمتي

علي الخليلي

ألملمُ نفسي
وأركضُ أركضُ أركضُ
حتى يتوقف خفقان قلبي
وأسقط ميتاً
في ميدان واسع ليس فيه سوايَ
أفوز فيه، وأموت.

* * * * *

كذلك قال الجدار
أباركه كي يظلّ ورائي
جداري الأخيرْ
أباركه كي أسيرْ
ويبقى هنالكَ منتظراً أوبتي من فنائي

* * * * *

تعلمني حكمتي
أن أشيخ وأهرم، وهي الصبيةُ باقية في صباها
على رُكبتي،
وأنا في حماها

دليلٌ عتيق لمليون عابر
يدقُّ على طبلتي،
وأنا في ذُراها
أدقُّ على شيبتي
وأمزِّقُ كل الثياب
فتضحك مني وعنّي عليّ
وتخرج من جثتي كاسيتي
حين أعرى وأدخل دون موازينها في الغياب

* * * * *

أصرخُ في الباطن
هذا الظاهر غشٌّ
أصرخُ في الظاهر،
هذا الباطن بهتانٌ
أصرخُ فيَّ أنا الإنسان معادلة لا يفهمها إنسان
فمن يعدل في الميزان
ومن يصرخ في البرية
إلاّي؟ أنا الساكتُ لولاي.

* * * * *

قنطرةٌ فوق الماء،
مشيتُ، وثمة قبل دخول اللعبة،
كنتُ أغوصُ،
وأعرفُ سلفاً أن القنطرة هباء

* * * * *

ولما سألتُ الشجرة
عن سرها، مثل كل طالب نجيب،
لا يتوقف عن نهل العلم، وقد بلغ من الكبر عتياً
لطمتني على وجهي،

وقالت، أيها العاق
كيف تسأل عن شروشك التي تقف عليها،
كأنك لم تتفجر من رحمي، قبل ساعة واحدة،
وكأنك لم تشرش مثلي
على هذا السر الصبياني الذي نكشف عنه الغطاء
في كل يوم، ثم نلقي عليه بالتراب،
لنحدق مجدداً، ونتابع السر الذي نكشف عنه،
ثم نلقي عليه.

(ضاحية البريد/ القدس)

قصائد

سلوى النعيمي

قصيدة إحتمالية

على سرير الحكايات،
أتمايلُ وأنثني،
ألمسُ بأصابعي السماء
وأحفرُ ودياناً في جناف الروح.
الماذا تدهشين، بعدَ الهزات اللزجة، من تلوّنِ عمودكِ الفقري؟!
الحبُ كرةٌ تتقافزُ من جسدٍ إلى جسدٍ لتعودَ إلى فمي كلمةً سمراء.
اما هو دينُك؟!
سلامٌ عليّ كلَّ يومٍ، أبعثُ ممتلئةً كحبةِ عنبٍ، على حافةٍ منفصلةٍ
(كنتِ حزينة؟ لا. كنتُ على شفا حفرةٍ من)
قلبي عضلةٌ فقط (تعرفين جيداً) ودمي سائلٌ سحري يجفُّ ببطءِ الحسنِ الحظ.
لماذا كلُّ هذا الخوف إذن؟
في الليلة العمياء يفتقدُ؟
حكَّ بإصبعكَ جلدي المتقشر.
الماذا تفتحين رغباتكِ في الشمس، وأنت شبحُ كلماتكِ القديمة؟!
ضحكتي تعرشُ مجنونةً على جدرانِ الذاكرة،
اهل عرفتِ وطناً آخر إلا جسدك؟!

عليَّ أن أميلَ كي تنحدرَ أسرعَ إلى مصبك.

إرهـــــاب

لا شهرزادُ ولا شهريارُ
لا نهاراتُه ولا لياليها
لا رائحةُ الخيانة ولا طعمُ الخوف.
لا الحكاياتُ ولا حتى أطفالُها الثلاثة،
ليبدو أنّ الكلامَ المباحَ لم يمنعْها من تأدية واجباتِها الزوجية.
ألفُ ليلة وليلة؟
يا للقذارة!
عليَّ أن أحمدَ اللهَ أنني جئتُ في هذا الزمن الجميل:

بسمر

قنبلةٌ موقوتةٌ، طلقةُ مسدس في منتصف الجبين، سيارةٌ مفخخة
ويدركنا الصباحُ معاً:
أنا
والملكُ الذي كان سعيداً.

ماضٍ مركّبٌ

أنا عمياءُ ظهراً وبطناً
(والعينُ بابٌ للفتن)
أكسرُ نفسي عنِ الكلماتِ وأمرُ مرَّ الأرنبِ المطارَد.
ترى النّاسَ وما هم (إاخفضْ لهم جناح)
لكنْ عذابَ الذلّ شديدٌ

ما إسمُ هذه المدينةِ اليانعة؟

تمتّعٌ مِنْ شميمٍ...

في مواجهتي:
العجوزُ لا تتوقفُ عن الأكل.
الخبزُ والجبنُ ثم العنبُ، حبةً حبة.
غفتْ قليلاً. الخبزُ والجبنُ من جديد.
فتحتْ علبةَ البسكويت اللماعة
(عندما استعصى عليها الورقُ الشفافُ مزقتهُ بأسنانها المستعارة)
تلوكُ وتلوكُ وتلوكُ
تأكلُ برتابة دون أن يتأثرَ تعبير وجهها
فكُّها السفلي وحدهُ يتحركُ
تطحنُ وتطحنُ وتطحنُ

العجوزُ، في مواجهتي، ملأت علبةَ القمامة حتى الحافة
ثم قامت بخطوات صغيرة.
أعرفُ أنها ستعودُ
لتغفوَ قليلاً
قبلَ أن يتحركَ فكُّها السفلي من جديد.

انسلَّ لونُ الليل إلى القطار
فجأةً وجدتُهُ أسودَ أمامي

حتميات فيزيائية

لنْ تحملَ الأيامُ رأسَكَ الدامي إليَّ
ولا المصادفةُ
الكَ وجهٌ في نفسي، ووجهٌ آخرُ في الآفاق،
وثالثٌ في وجهي،

يحتجبُ عن الأبصار،
ويحلمُ بالأحمر)،
عيناي معصوبتان كآلهة
تتناثرُ أمواجي، معجونةً باللذة، خدراً،
في كفي وشفتي وباطنِ قدمي،
ما همي، في هذه "اللحظة الحاسمة"
أن تكونَ أنتَ
أو أي رجلٍ آخر؟

(*) سلوى النعيمي كاتبة وصحفية سورية تعيش في باريس.
أصدرت، حتى الآن، مجموعة قصصية.

قصائد

زكريا محمد

مَعان

الموت، أيضاً، لا تقع فيه
لأنه يقف بسكّته على رأس الشلو
ويصرخ بيغاله ويمضي
ثلمه لا يتوقف أبداً
وبغاله لا ترتد

* * *

والأبناء غبار
تتركهم خلفك مبتهجاً، ها قد تركت أثراً!!
آه مثلما يترك الجدريّ أثره في وجوه المجدورين
وكما يترك الحريقُ دخانَه في وجه الشمس

* * *

العين مفتوحةٌ بلا جفنٍ للغبار
والمنخرُ يُطبقُ الشفتين
ولا شيء سوى طنين الأذنين
يأتي من الباطن

ويغور فيه

* * *

وكلٌّ يتبع طنين أذنيه

* * *

واسمع
كيف تخفق خطاكَ خلفكَ
مثل خطى غريب

* * *

والصمت
حجرٌ من رخامٍ
على حجرٍ من رخامٍ
يمضيان الليل كله على عتبة

* * *

ومن كان بلا إسمٍ
سيُبرى له إسمٌ
ومن كان بلا فمٍ
سيُفتح له فمٌ بالسكين.

* * *

ظلُّ السيف
ناثرٍ تحت السيف على الجدار
ظلُّ الكلمة يغلّ
حمله على ظهره
وروحه في شجر العلّيق.

(1994)

الليل

الليل يفتح زهرته

للهابطين من درجٍ إلى درجٍ
ومن فتقٍ إلى فتق
الليل يفتح زهرته السوداء
والخوف يتدحرج كالبطيخ.

(1995)

الشمس

الشمس دوّارة كرحى
وكعين مدهوشة
دوّارة على أيتامها السبعة
عادية
يتدبيها وكلابها وحراسها الأربعة

(1995)

المرآة

مفتوحةٌ وراء الفراش
كي يطأها لهاثنا
الخطيئة تجرحها كمقصٍّ من ماس
والخطيئة تكبرُ فيها كالثمرة

مفتوحةٌ كي نكون أعداءً
مفتوحةٌ على الإسم
على البرعم والدرّنة

المرآة مفتوحة كباب
كفتحة سياج
وكثغرة في العقل

ثغرةٍ دامية.

(1995)

حاجب

معقود فوق العين الحاجب
وكل حاجب ليل
معقود على الجبين المنديل
وكل ثنية نسيانٌ مضاعف
معقود على الإصبع الخاتَم
وكل خاتَمٍ طلاق
ومعقود حبلُ السرّةِ على عنق الجنين.

(1995)

غور

شجرُ العُشَر
والطَّرفاءُ
والقيظُ الذي يرجفُ فوق الصخر
والماءُ
وبخرُ الماءُ
والريح التي ترعى على سبخة ملحٍ
ما تشاءُ
شجر البخرِ الذي يرجفُ خلفَ النهر
والريحُ وملحُ الصخر
والعين التي تقفل جفنيها
على بخرٍ وصخرٍ وسماءْ.

(1995)

موت

هبط الطفل إلى الوادي
شعره يخفقُ في الريحِ
التي تصعد للسفحِ

وعند الماء،
ثغاء
ومعزى
ونُغاء

ولدي
يا ولدي
موته يركض في صندله عند مجرى الماء،
ثغاء
ومعزى
وبكاء

(1995)

الكلمة

ليس للكلمة مجد
مجدها أن تُغلقَ الباب

فاتركوا كل شيء على حاله
إمسحوا بصمانكم عن الكأس
والمفتاح
سيّجوا بالطباشير جثة القتيل

وارفعوا بالمنديل أزرار القاتل
ليس للكلمة مجد
مجدها أن تغلق الأبواب.

[1995]

(رام الله)

أيامُنا ورقٌ على ورقٍ...

شفيق حبيب

هل تَرتَوي الأوراقُ من أفكاري؟
فتضمني بعواصفي وغباري؟

وتنوءُ بالحِملِ الثقيلِ إذا قضى
ربُّ العِبادِ بغُبتي عن داري؟

حمّلتُها فرحي وأحزاني وما
أعطيتُ للإبداعِ من أشعاري

حمّلتُها عُمري بكُلِّ صفاتِه
وشقائه وبدمعي المِدرارِ

أيامُنا ورقٌ على ورقٍ وفي
طيّاتِها المخبوءُ من أسراري

ودّعتُ أيامَ الطفولةِ لاهثاً
نحوَ الصِّبا، ومناهِلِ الأوزارِ

جاءَ الشبابُ كبرقِ ليلٍ خُلَّبٍ
فنضوتُ عن كتفيَّ ثوبَ عذاري

وكرعتُ من صهبائه ما لذَّ لي
وتركتُ فوق كؤوسه أخباري
تمضي بنا الأيامُ تأكلُ لحمنا
فنقولُ تلك مشيئةُ الأقدارِ..

* * * * *

إني سجينٌ كالهزارِ ومأملي
هذا الفضاءُ الرَّحبُ خلفَ إساري
مَن يُعطني حريتي انتصرتُ لَهُ
دُنيا من الإبداعِ والأفكارِ
لا تقتلوا الوحيَ المُضيءَ رحابُهُ
فالفكرُ يأبى ظُلمةَ الأوكارِ.

* * * * *

يا شعرُ! هل تنسى احتراقَ حشاشتي؟
هل ماتَ بُلبلُ دوحِكَ المعطارِ؟
في كلِّ حرفٍ قطعةٌ من خافقي
وعلى شفاهِ العاشقينَ شعاري
أشعلتُ في دُنياهُ نارَ حرائقي
حتى اكتوى شبقُ الشبابِ بناري
ونثرتُ شعري أحرفاً مشبوبةً
وزرعتُ في قلمي لهيبَ أواري.

* * * * *

لا الخيلُ خيلي، والقوافي أنكرتْ
مَن كانَ صوتَ دويِّها الهدّارِ

إني أضعتُ العُمرَ خلفَ سرابها
واضعتُ دربي في شعابِ قفارِ
ظمأً على ظمأ.. بُسِبتُ قريحتي
فالماءُ غاضَ وجفَّ في آباري
أينَ الينابيعُ التي بأكُفِّها؟
شحّتْ مواسمُهُنّ في أنهاري

* * * * *

إنّي انتصبتُ مع القوافي شاهراً
حرفي بوجهِ الظّالمِ الجبّارِ
ووقفتُ في قومي أدافعُ كلّما
غدرَ الزمانُ بعزّتي ووقاري
نافحتُ عن أهلي، صددتُ مكائداً
فتهشّمتْ كفُّ الرّيحِ فوقَ جداري
وعرفتُ كلَّ الناسِ، هذا ناصعٌ
وسواهُ لطّخَ وجهَهُ بالعارِ
فمطامعُ الكلبِ المطاردِ عظمةٌ
ومطامعُ الأشرارِ في أثماري
إنّ الذوائبَ خيرُها في جنسها
لكنّما الإنسانَ وحشٌ ضارِ

* * * * *

يا أرضُ! لو تدرينَ لاعجَ صبوتي
لعذرتِني في سكرتي ودُواري

غنيتُ للأرض التي احتضنَتْ بها
جذري وطالتْ فوقها أشجاري
نَبي الترابَ المِسْكَ قومٌ خُنَّثٌ
باعوا مقابرَهم ببعضِ نُضارِ

* * * * *

وطني! عشقتُكَ مَهْدَ خيرٍ دافقٍ
وعشقتُ فيكَ مثاويَ الأبرارِ
يا موئلَ الصّادي إذا عصفَ الظّما
يا دفءَ عُشِّ زُواغبِ الأطيارِ
أنا في سمائكَ يا خليلي! راصدٌ
أنا في فضائكَ صيحةُ الأحرارِ
ستظلُّ في صدري الهوى أحبابنا
حتى تواريني رحابُ الباري

* * * * *

(ديرحنا)

قصّة حبّ بدويّة

حسونة المصباحي

تركتُ بيتنا القديم للسكون بأشباح الماضي وصوره، ونهتُ في الدروب الرملية مثلما اعتدت أن أفعل أيام صباي ومراهقتي. لا شيء تغيّر. المسجد الصغير المقشّر الحيطان حافظ على هيئته الأولى وكأنه يريد أن يوحي لي أن الزمن هنا لم يتحرك قيد أنملة. أشجار الزيتون تنتصب معفرة بغبار الخريف على نفس الصورة التي كانت عليها قبل أن أغادر. الهضاب المسلوخة الجبطة بالقرية ظلّت على حالها حتى أنني أحسستُ وأنا أتأملها أن تيهي الطويل ربما كان مجرّد وهم.. أمشي ومن حولي تتقافز الذكريات مثل فقاعات ماء يغلي على نار حامية.. هناك كنّا نلعب "عظيم زارا" تحت القصر الصيفي بينما الكبار ساهرون قرب بيادر القمح. وفي مخزن التبن ذاك، قبّلت فاطمة بنت سعيد، ولعبت بنهديها الحارين. وتحت تلك الزيتونة العجوز قرأت "النبي" لجبران وبعض روايات نجيب محفوظ. وفي ذلك الدرب النحيل النازل على عجل باتجاه "وادي العفاريت" بكيت بحرقة بعد أن ضربني أبي بقسوة شديدة لأني سهوتُ وتركت بقرتنا الحمراء ترعى في زرع عمّي صالح. توغلتُ في الحقول، بينما واصلت الذكريات رقصاتها المجنونة من حولي جارّة إيايّ إلى أحداث ووقائع كدّس عليها الزمن غباره السميك حتى أنها غابت تماماً عن ذاكرتي.

أمس وصلت.. اندهش أهلي حين رأوني أنزل من الحافلة القادمة من العاصمة. لحين ظلّوا يتأملونني كما لو أنني شبح عائدٌ من العالم الآخر. ثم فجأة اندفعوا نحوي، وراحوا يقبلونني وهم يبكون.. لقد غبْتُ طويلاً.. عشرة أعوام على ما أظنّ. عشرة أعوام طفتُ فيها بلداناً كثيرة، وخضت مغامرات زرعت الشيب في رأسي، وحفرت وجهي بالغضون والتجاعيد. عشرة أعوام حصدت خلالها هزائم وخيبات كثيرة، ولم أنتصر إلاّ قليلاً. ورغم ذلك كنتُ دائماً أقصي كل فكرة أو رغبة في العودة. لقد جرح موت أمي روحي كما لم يجرحها حادث آخر في حياتي كلها. ولعل سبب إمعاني في السفر والترحال كان الخوف من الإصطدام بالفراغ المرعب الذي خلفه غيابها.

رحت وأهلي نتقدم من بيتنا القديم. ولما وقفنا أمام الباب، برزت أمّي أمامي بقامتها الفارعة، ووجهها

القائض حناناً وحُبّاً، وملامحها الزيتونية اللون. فلم أستطع أن أتماسك. وأجهشتُ بالبكاء وبكى أهلي مرّة أخرى.

منذ بداية السهرة، أحطتُ علماً بكل ما حدث في أثناء غيابي.. عمّتي فاطمة، التي تجاوزت المائة، ماتت قبل عودتي بنصف عام تقريباً.. ماتت بهدوء ومن دون أيّ ألم.. في الصباح طلبت من كنّتها حليمة أن تخرجها للشمس. ففعلت. ظلّت هناك ما يزيد على الساعة. ثم نادتها وطلبت منها أن تعيدها إلى غرفتها وأن تعدّ لها شاياً بالنعناع. بعد ربع ساعة، دخلت عليها حليمة ومعها كأس الشاي المنعنع فوجدتها باردة مثل الحديد في عزّ الشتاء. ولم يكن قبرها قد جفّ بعد حين فاضت روح محمود إبن عمّي صالح.. هو أيضاً لم يمرض. فقط، في الشتاء أُصيب بنزلة صدرية حادة حتّمت عليه البقاء في الفراش أسبوعين كاملين. بعدها تعافى وعاد يروي حكاياته الطريفة عن حرب "الإندوشين" كما اعتاد أن يفعل منذ أن سرّح من الجيش الفرنسي قبل نحو أربعين عاماً. وعندما عادوا من جنازة عمّتي فاطمة، طاف في البيوت وراح يحثّ الناس على نبذ التباغض والتحاسد.. "إسمعوا" ـ قال لهم ـ "..عمّتي فاطمة كانت قبل ساعات بيننا، وهي الآن تحت التراب. نحن كلّنا إلى الموت. فلمَ الحرص إذن على أوساخ الدنيا الفانية؟!". قبل وفاته بساعة، شرب شاياً، ثم طلب من زوجته أن تغطيه لأنه يشعر بالبرد. وكانت زوجته تتأهبّ لرمي الغطاء الصوفي عليه حين شهق شهقتين غريبتين ثم أسلم الروح.. نجاة، إبنة أختي سالمة التي تركتها تلعب في الرمل تزوجت وأنجبت طفلين.. والآن هي حُبلى في شهرها الخامس.. عمر إبن عمّي الذي يعمل شرطياً في إحدى مدن الجنوب طلّق زوجته بعد أن اتضح له أنه عاقر.. خالتي عائشة تنوي الذهاب إلى الحج العام القادم.. الحكومة وعدتهم بالماء والكهرباء وأوصتهم بأن يحتاطوا من قوم ملتحين يتستّرون بالدين ليثيروا الفتنة بين الناس، ويخرّبوا إنجازات الدولة.. ظلّوا معي حتى ساعة متأخرة من الليل. وحالما اختفوا في الظلام، واجهني خيال أمّي فلم أستطع أن أنام. في الصباح امتلأ البيت بأهلي من جديد. مكثتُ معهم ساعة ثم انصرفتُ.

أمضيتُ النهار بطوله أطوفُ في مراتع طفولتي وسنوات مراهقتي، متوقّفاً عند أطلال الماضي، مسائلاً الحجر والشجر والدروب والأودية وسفوح الهضاب، باحثاً عمّا يمكن أن يساعدني على إزاحة كتل الغبار التي ركمها الزمن في ذاكرتي. عند الظهيرة، تعبت فتوسّدت ذراعي وغفوت قليلاً تحت زيتونة "الجمل". بعدها عدتُ إلى التيه مرّة أخرى. وقبل الغروب بقليل قفلتُ راجعاً إلى البيت. وكنتُ أسير بمحاذاة سانية اللوز التي أسفل بيتنا حين طلعت عليّ عجوز نحيلة، غائرة العينين، مهمومة الملامح، ترتدي ملاءة باهتة اللون. وتبدو جدّ متعبة كما لو أنها مشت طويلاً في الفيافي. لبضع لحظات ظلّت تتفرّس فيّ ثم هتفت وقد غمر البشر وجهها المحروق:

ـ أظنّ أنك إبن المرحومة زهرة.. أليس كذلك؟!

ـ نعم.. قلت أنا..

ـ لقد غبتَ طويلاً يا ولدي غير أنكَ لم تغب عن بالي أبداً.. وأمس فقط، وأنا مارّة قرب بيتكم، عبرت ذهني

فقلت هذا فألُ خير.. لا بد أنه على وشك العودة.. وها قد صدق حدسي.. فالشكر لك يا رب!

من تكون؟! ظلّت الذاكرة مقفلة، وظللتُ أنا حائراً لا أدري كيف أتخلّصُ من ذلك الحرج الذي انتابني.. ولّما أحسّت هي بذلك، قالت بمرارة:

ــ يبدو أنك نسيتني يا ولدي!

عضّت على شفتها السفلى وكأنها تريد أن تحبس دمعاً، ثم أضافت وقد ازداد صوتها تهدّجاً:

ــ أنسيتَ خالتك مهرية التي طالما أعطتكَ الحلوى وأنت صبي؟!

مهرية؟! إنها هي بالفعل. لكن لا شيء في ملامحها يمكن أن يشي أنها هي نفسها تلك الصبية الفائقة الجمال التي خطفها رجالنا من الشمال، وكانت بطلة أروع قصة حب عشناها في ذلك الصيف البعيد.. يا لفظاعة القسوة التي يسلطها الزمن على الكائنات.. حاولتُ أن أقول شيئاً غير أن الكلمات انحبست في الصدر ثقيلة كالصخر، وامتلأ فمي بالتراب.

ــ أنتَ بالفعل نسيتني.. غير أنّي لن ألومك.. لقد غيّرني الزمن وشوّهني حتى أنّي أنا نفسي لم أعد أعرف نفسي.. لكن تيقّن يا ولدي أنّي الآن سعيدة جداً أن أراك.. لقد كانت المرحومة أمك بالنسبة لي أماً وصديقة وأختاً في نفس الوقت، ولا مرة بخلت عليّ بشيء أو كشّرت في وجهي، أو جرحتني بفعل أو كلام.. وحين رحلت شعرت أنني يتيمة ووحيدة كما لم أكن أبداً!

نعم.. أتذكّر ذلك جيداً.. أتذكر أنها كانت تأتي إلى بيتنا مرّة أو مرتين في الأسبوع.. وكنتُ أنا أفرح كثيراً حين أراها.. وأمي أيضاً.. وكانت هي تدسّ الحلوى والحلقوم في جيبي وتداعب شعري وتقول لأمي أنها تتمنّى أن تنجب ولداً عاقلاً وجميلاً مثلي.. وكانت أمّي تحتفي بها أكثر من كل النساء اللائي كنّ يزرننا.. وطول الظهيرة تظلاّن تتهامسان وتتحدثان جالستين على الكليم الذي بألوان قوس قزح.. وأنا ألعبُ في الرمل وأحلم.. وأحياناً يطوّح بي الخيال بعيداً.. بعيداً.. فإذا بمهرية هي نفسها الجازية الهلالية التي تقاتلَ الرجال من أجلها في الصحراء، وعنها يروي الكبار قصصاً بديعة في الليل أمام نار الشتاء بينما الريح تهدج في الخارج: "ومرّة دعت الجازية ستة من أجمل وأنبل فتيان بني هلال للعشاء، وعندما رآهم ذياب مارّين في جيائبهم البيض، ترك غنمه وتبعهم، وغضبوا هم فراحوا ينهرونه: "عُد إلى غنمك أيها الراعي الوسخ.. حتى لا تفضحنا أمام الأميرة!".. غير أن ذياب لم يعبأ بتهديداتهم وظلّ يتبعهم إلى أن وصلوا إلى الخيمة، وعندئذ صاحت فيهم الجازية: "أدخلوا سبعة وخلفوا أربعة عشر!". ولم يفهم الفتيان اللغز، فاضطربوا وارتبكوا.. أما ذياب فقد قفز مثل فهد وقال لهم: "يبدو أنكم لم تفهموا لغز الأميرة؟! حسناً.. أنتم ستة وأنا سابعكم.. فلندخل ولنخلّف وراءنا فردات أحذيتنا الأربع عشر!". وعندما سمعته الجازية قالت لوصيفتها: "يا ويلي.. من هذا الفتى!".. أتذكر كل ذلك.. أتذكره جيداً.. ولكن ما جدوى هذه الذكريات أمام هذا الخراب الماثل أمامي؟!

راحت مهرية تحدثني عن حياتها.. وقالت لي أن زوجها الهذيلي مريض بالروماتيزم وهو رهين الفراش منذ عدة شهور.. وأن ابنتها زينب تزوجت من رجل فظ يضربها كل يوم تقريباً.. أما أولادها الثلاثة فقد تفرّقوا، كل واحد ذهب في اتجاه ونسوها تماماً.. أطلقت زفرة حرّى ثم أضافت: "كما ترى.. حياتي كلها مصائب.. ورغم ذلك أنا صابرة.. وماذا تريدني أن أفعل أمام قضاء الله وقدره!".

وقبل أن تتركني قالت: "لا بدّ أن أراك قبل أن ترحل.. أنا مشتاقة كثيراً أن أشمّ رائحة المرحومة أمّك من خلالك!".

ذابت في الظلام الذي تكوّم فجأة، وبقيت أنا مسمّراً في مكاني.. لا، ليست لي أية رغبة في أن أعود إلى بيتنا.. ولا طاقة لي بأن أرى أحداً، أو أستمع إلى أحد.. لقد رميت بسرعة في عالم آخر.. عالم تلك القصة العجيبة التي ملأت حياتنا ذلك الصيف.. وها أحداثها تحلّق حولي مثل طيور الخطاف، وتغريني بأن أستمر في تيهي وسط الظلام لأعيش تفاصيلها من جديد..

★ ★ ★

كنت في السابعة من عمري حين حدث ذلك.. مرّ الشتاء دون قطرة مطر واحدة، وجاء الربيع بسحب كاذبة كانت تتراكم فوق قريتنا ساعة من الزمن ثم سرعان ما تتلاشى ليعقبها العجاج والعواصف الرملية. صلّينا صلاة الإستسقاء أكثر من مرّة، وذبحنا ثوراً أسود أمام ضريح سيدي أحمد بن أبي سعيد، غير أن السماء ظلّت خرساء فوق رؤوسنا. ولما طال الجفاف، قال الإمام الشيخ في خطبة الجمعة أن ما حلّ بنا ربما يكون بسبب خطايانا وأفعالنا الشريرة، وانحرافنا عن تعاليم ديننا الحنيف. بعد تلك الخطبة تضاعف عدد المصلين، وكفّت الصبايا عن الغناء في العين، وحلمت أنا بكلب يطاردني وأنا وحيد في الخلاء، وتحت وطأة الخوف والبأس، بدت قريتنا شبيهة بقبر منسيّ في العراء منذ أمد بعيد..

عند اقتراب الصيف، شرع الفقراء من أهل القرية في الإستعداد للرحيل باتجاه الشمال كعادتهم كلما ضربنا الجفاف. وعندما انتهوا من حزم متاعهم على ظهور البغال والأحمرة، بكت أمّي بحرقة. أما أنا فصعدت مع الصبية إلى قمة الهضبة الحمراء. ومن هناك ظللنا نشيّعهم بالعين إلى أن اختفوا في غابة "الفج الخالي"..

★ ★ ★

تحت شمس حزيران الحارقة، غنّى الهذيلي وهو يحصد القمح مع بقيّة أهل قريتي الذين رحلوا إلى الشمال:

أمّا بلادك بلاد افريقا — بلاد الوخَمْ والعلايل

أما بلادي بلاد الصحرا — بلاد الزنا والفعايل(1)

فاض الحنين، وتموّجَت الجبال والهضاب، ومالت الأرض تحت الأقدام فارتبكت أيادي الحصّادين والحصّادات

حتى أنهم لم يعودوا قادرين على جمع السنابل.. ومن بعيد كان صاحب الحقل على بغلته الرمادية يراقبهم بنظرات نارية، مفعمة بالإحتقار والحقد.

أرض الشمال سوداء، وجبالها عالية موحشة، وأهلها قوم غلاظ متجهمون طول الوقت مثل الشتاء هناك. وأهلي لا يحبونها.. لذا هم يغنّون.. يغنّون وهم منحنون يحصدون لكي ينسوا وحشة الغربة، وإهانات صاحب الحقل، والجفاف الذي أجبرهم على الرحيل.. يغنّون لكي يستذكروا السهول المنبسطة، وسواني اللوز والزيتون، ومواسم الخير والبركة حين تكثر الأعراس في قريتنا فتتسابق الخيول وسط الغبار والزغاريد، ويرقص الرجال مطلقين الرّصاص في الهواء، وتتبختر الصبايا الجميلات في ملاءاتهن الزاهية الألوان أمام الفتيان المتحلقين تحت أشجار الزيتون..

ظلّ صوت الهذيلي يتهادى شجياً فوق حقل القمح المترامي الأطراف إلى أن غلى الغضب في صدر صاحب الحقل، وعندئذ التفت إلى خادمه وقال له: "إسمع يا مبروك.. إذا ما نادى هذا الفتى الفاسد في الغناء فسوف أطرده مثل الكلب من هنا!"...

***

جاء صوت الهذيلي إلى مهرية إبنة صاحب الحقل وهي ممددة فوق السدّة وليس على جسدها غير ثوب خفيف.. جاءها عذباً منعشاً مثل ماء زلال فانتشت روحها وأحسّت كما لو أن الحياة بدأت تدبّ في جسدها من جديد.

منذ أسابيع عدّة، ومهرية تبكي ولا تنام ولا تأكل لأن أباها قرر أن يزوجها من إبن عمها، وهو فتى فظ السلوك، بشع الخلقة، خشن الصوت، عبوس حتى في أوقات الهناء والأفراح. وعندما حاولت والدتها إقناعه بالعدول عن قراره، أقسم ثلاثاً أنها لن تكون لواحد آخر غيره.. والآن هي على يقين تام أن زواجها من إبن عمها هو بمثابة الذهاب إلى القبر قبل الأوان.. لذا هي معتصمة بغرفتها طول الوقت. لا تطيق أن ترى الناس ولا أن يراها الناس. ثم فجأة، هذا الصوت العجيب. وها هي الآن خفيفة مثل خطاف سعيد يطير نحو واحات خضراء دافئة بعيداً عن بلاد الشمال السوداء القاسية:

بالله يـــا العين السّــودا
يــا حنّـــا واش الحــــلا
سآلملي على زرق الوشما
وقوللها رَاوْ خالك جَــا(2)

ترى لمن يكون هذا الصوت؟! الرجال هنا لا يغنون.. بل إنهم يعتبرون الغناء فحشاً.. وإذا ما تجرأ أحدهم وغنّى، فإنهم يقاطعونه، ويقصونه من مجالسهم كما لو أنه أجْرب أو مجنوم.. إذن لا بدّ أن يكون صاحب الصوت واحداً من أولئك البدو الجنوبيين الذين يأتون في أوقات الجفاف والعُسر ليعملوا في حقول والدها.. أغمضت مهرية عينيها. راح الصوت يتموّج فوقها، مداعباً خصلات شعرها ونهديها وفخذيها، مقبّلاً

عنقها وشفتيها إلى أن ذابت فيه تماماً. وباتت واثقة أن ذلك الصوت القادم من بعيد ليس غير صوت روحها التائقة إلى الحب والحرية.

في اليوم التالي أرسلت خادمتها الصغيرة للتعرف على صاحب الصوت البديع.

★ ★ ★

لم يكن الهذيلي يخلو من وسامة أو جاذبية.. فقد كان نحيلاً، مشيق القامة، بشعر جعد، وعينين صغيرتين حادّتين، وخدّين غائرين، وشارب دقيق وشفتين مكتنزتين، مزرقتين من كثرة التدخين. وكان حلو اللسان، طيّب المعشر، سريع الحركة، قليل الغضب، ميّالاً إلى المرح والزهو. وقد عاش الهذيلي طفولة يتيمة مرّة. فعندما كان في الرابعة من عمره، جرف وادي "مرق الليل" والده بينما كان عائداً من القيروان في ليلة خريف معطّرة. وكان في السادسة لما هلكت والدته بداء السل. وعاش هو بعد ذلك سنوات قاسية عرف خلالها الجوع والضرب والبرد والإهانات والإحتقار والنوم في مخازن التبن مع الدواب. والذين عرفوه في تلك الفترة يقولون إنه كان شديد الجَلد والصبر، حَيِيّاً حدّ أنه لم يكن يجرؤ على رفع عينيه أمام امرأة أو رجل يكبره سناً. ومرة في عرس بولاعراس، إبن عمتي فاطمة، قفز فجأة من حلقة الفتيان وغنّى. فأصيب الرجال بالذهول. أما النساء فقد خرجنَ عن طورهن من فرط الطرب والإعجاب حتى أن البعض منهن أغمي عليهن. ومن تلك الليلة، أصبح الهذيلي زينة أعراسنا وأفراحنا في مواسم الخير والبركة.

وبسبب جمال صوته، وحسن إدائه للغناء، حدثت للهذيلي أكثر من مرة وقائع خطيرة كادت تؤدي بحياته إلى التهلكة. فقد هجم عليه عمر الأطرش المعروف بشدة البطش والغيرة بفأس بعد أن سمع زوجته تقول لإحدى صاحباتها: "والله أنا أتلذذ حين يغنّي الهذيلي أكثر ما أتلذّذ حين يجامعني زوجي!". ورماه رجل من أولاد السّباع بالرصاص غير أنه أخطأه بعد أن بلغه أن ابنته الكبرى، وكانت مخطوبة لابن خالها، بدأت تميل إليه بعد أن سمعته يغنّي في عرس من أعراس عرشها. وقيل أن البعض من رجال القرى والعروش المجاورة سعوا أكثر من مرة إلى تسميمه غيرة وحسداً.. حين يصعد الهذيلي مع أهالي قريتي إلى أرض الشمال السوداء يخفّ حزنهم، وترتاح نفوسهم، وتذهب عنهم تلك الوحشة التي عادةً ما تصيب الناس في أوقات الرحيل والفراق. أما الذين يتبقّون في القرية، فيظلّون طوال الصيف الحارق يتطلعون إلى جبال الشمال العالية هناك حيث يغني الهذيلي أغاني الحب والوفاء في حقول القمح المترامية الأطراف.

★ ★ ★

ظلّت مهرية حريصة أن تتمدّد كل يوم على السدّة في نفس الثوب الخفيف لتستمع إلى صوت الهذيلي وهو يغنّي هناك منحنياً تحت الشمس. وبين وقت وآخر، كانت ترسل خادمتها الصغيرة لتنقل إليه إعجابها بصوته.. ومع مرور الأيام، أصبحت أغاني الهذيلي بمثابة الرسائل المحملة بالإشارات والرموز والرغبات المكبوحة. فحين يغنّي:

دموع العين على خدّي سواكبُ

وطول الليل تَـرْعَى في الكواكبْ
غزالي نعشقه وهو مشاغبْ(3)

تدرك مهرية أن حبّه لها بلا حدود وأن العذاب الذي يكابده بسبب ذلك لا يضاهيه أيّ ألم في الدنيا كلها. وحين يغنّي:

ناديت في ظلمـــة الليل	والقلــب هايمْ يُـنادي
ما أبطاك يا حبيبة القلب	غيث عشيقك ينادي(4)

تفهم أنه يتعجّل لقاءها.. وأن شوقه إلى رؤيتها والتحدث إليها لم يعد يُطاق

أما حين يغنّي:

غـابـوا عنّي الأحباب	والمْ أعمالـــي
مـا بين كدّي وشـعـاب	غـبّـبـــوا
قطعـوا عني الشراب	بَعْدمَا حَلالي(5)

تعلم أن ساعة الفـراق أصبحت وشيكة وعندئذ تداهمها المخاوف فتبكي بحرقة حتى تبتلّ كل وسائد السدّة. وفي الليل تظلّ سهرانة، بينما خيالها سارح في تلك الشعاب الجرداء الموحشة التي تنزل باتجاه سهول الجنوب هناك حيث يختفي الهذيلي ومعه صوته الجميل.

* * *

في ذلك اليوم الحار الذي لم يعرف له أهلي مثيلاً منذ أن قدموا إلى بلاد الشمال. غنّى الهذيلي أغاني جديدة لم يكن قد سمعها أحد من قبل. ولما اشتدّ به الطرب، ألقى بالمنجل بعيداً، ورقص ورقص معه بعض الرجال. أما النساء فقد أطلقن الزغاريد كما لو أنهن في عرس. وحالما عاين والد مهرية ما يجري، قفز من فوق ظهر بغلته، وجرى نحوهم ملوّحاً ببندقية صيد. وعند وصوله، انهال على الهذيلي سبّاً وتقريعاً:

ـ أنتَ أيها الفتى الفاسق، عُد إلى عرشك الذليل الجوعان حينا وإلاّ فإنّي قاتلك كما تُقتَل الجرذان!

فار الدم في عروق أهلي، وكاد بعض الرجال ينقضّون على الذي أهان عرشهم للفتك به. غير أن حامد وهو رجل عُرف بالرصانة والحكمة، غمز لهم آمراً إياهم بالتريّث والصبر، فانصاعوا مكرهين. أما الهذيلي فقد صاح وصدره يعلو ويهبط من فرط الغيظ:

ـ إسمع أيها السيد. أنا لا أسمح لك بأن تعيّرني وتعيّر عرشي بمثل هذا الكلام!

إحمرّ وجه والد مهرية واصفرّ وازرقّ واسودّ. وصاح وسبابته باتجاه الطريق النازل نحو الجنوب:

ـ إرحل حينا. قلت لك. هذه أرضي. وأنا لن أسمح لفتى فاسد مثلك أن يطأها ثانية. أفهمت؟!

ـ أنت على حق. هذه أرضك. وأنا لن أطأها ثانية. لكن تأكد أيها السيد أن فعلتك هذه سوف تكون

وخيمة العواقب!

قال الهذيلي ذلك، ثم ذاب في صَهْد القيلولة.

ظلّ أهلي واجمين لا يدرون ما يفعلون للرد على تلك الإهانة القاسية التي لحقت بهم وبعرشهم. ولما ابتعد والد مهرية، قال لهم حامد: "إسمعوا، نحن هنا لا نستطيع أن نفعل شيئاً. وإذا ما حاولنا ذلك فسوف يَستنفرُ هذا الخنزير أهله الغلاظ فيمزقوننا تمزيقاً. لذا أرى أنه من الأفضل أن ننتظر، وأنا على يقين أن هذه الإهانة لن تمرّ دون عقاب"!

* * *

وصل الهذيلي إلى قريتنا مساءً كاسفاً متغيّر اللون. أحطنا به رجالاً ونساءً وأطفالاً. شرب إبريق ماء بكامله ثم روى لنا ما وقع وعيناه مغرورقتان بالدموع. وكالعادة في مثل هذه الأحوال، اختفت الفروق والخلافات بيننا في رمشة عين، وأصبح شرف عرشنا فوق كل الإعتبارات.

إنتفاضت قريتنا وهاجت وماجت من أقصاها إلى أدناها. وسارع الفتيان المعروفون ببأسهم وميلهم للعراك بإخراج بنادقهم وأعلنوا عن إستعدادهم للإنطلاق حيناً إلى بلاد الشمال لغسل العار. أما الأعيان الكبار في السنّ أصحاب الخبرة والقرار، فقد انتبذوا ركناً قصياً وظلّوا يتشاورون في الأمر طول الليل. وقبل طلوع الفجر بقليل اتّفقوا على خطة للإنتقام، وكلّفوا العكرمي وابن اخته الكبلوطي بتنفيذها في أقرب وقت ممكن.

كان العكرمي عداءً لا يجاريه في ذلك أحد، لا في قريتنا ولا في القرى المجاورة. حتى أن الناس كانوا يقولون إنه قادر أن يسابق الغزلان والخيول. أما إبن اخته، الكبلوطي المعروف بكسله وحبّه للنوم ولعب الورق فكان صيّاداً ماهراً حتى أن الناس لا يذكرون أن رصاصته أخطأت هدفها ولو لمرة واحدة.

* * *

الليل ساكن. لا حركة. لا صوت. لكأن كل الأحياء في تلك المنطقة غادروا إلى العالم الآخر. سور بيت والد مهرية ينتصب عالياً منيعاً. همس العكرمي لابن اخته الكبلوطي: "أمطر الباب برصاص رشاشك.. أما أنا فسأتسلق سور البيت..". شرع الكبلوطي في تنفيذ ما آمر به. تململت القرية مذعورة. نبحت الكلاب غاضبة. وبخفة فهد، تسلّق العكرمي السور، ثم قفز إلى باحة البيت وفتح الباب الكبير على مصراعيه وصاح: "أخرجوا مهرية حالاً وإلاّ أحرقتُ البيت ومن فيه!". لا جواب. إستمرّ الكبلوطي يطلق الرصاص مثل مجنون. وكرر العكرمي نداءه بأكثر حزم. بعدها بقليل ظهر شبح في باحة البيت.. ثم جاء الصوت نحيلاً منطفئاً من الرعب: "أنا مهرية!". - "إقتربي ولا تخافي!" صاح فيها العكرمي. نفّذت مهرية الأمر. ظلّ البيت ساكناً مظلماً. حمل العكرمي مهرية على ظهره ثم ركض بسرعة فائقة باتجاه الشعاب الوعرة النازلة باتجاه الجنوب. أما الكبلوطي فقد واصل إطلاق النار بغزارة.. ولما تيقّن أن العكرمي أصبح خارج منطقة الخطر بدأ ينسحب في هدوء وسط نباح الكلاب الهائجة مطلقاً النار من حين إلى حين.

في الصباح فتحنا عيوننا فإذا مهرية بيننا وهي في ثياب النوم! في مساء اليوم ذاته، جاء أبوها على بغلته الرمادية ومعه جمع من رجال عرشه طالباً الصُلح. استقبله أعيان قريتنا بحفاوة بالغة وقالوا له: "نحن لسنا لصوصاً ولا خاطفي نساء. وإبنتك في الحفظ والأمان وهي مقام بناتنا. غير أننا أردنا فقط أن ننبّهك إلى أن إهانة الرجال حتى ولو كانوا فقراء ليست أمراً يسيراً كما أنت تتصورا". بعدها عانقوه بحرارة حتى أنه بكى من شدّة التأثر.

أواخر ذلك الصيف، زُفّت مهرية للهذيلي وأقيم لهما عرس دام سبعة أيام وسبع ليالٍ بأكملها.

* * *

واصلتُ تيهي. وفي عتمة الليل الخريفي بدت لي ذكريات الماضي وأحداثه شبيهة بخرائب وأطلال مدينة قصفت بشراسة حتى لم يتبقَ منها ما يمكن أن يدلّ على بعض من ملامحها القديمة.

(ميونيخ ـ 1995/11/11)

(*) المؤلف كاتب تونسي يعيش في ميونيخ ـ ألمانيا.

هوامش:

(1) أي: أما بلادك فبلاد الشمال بلاد البرد والعلل، وأما بلادي فبلاد الصحراء بلاد الرنا والفضائح.

(2) أي: كيف حالك يا صاحبة العينين السوداوين. بالله عليك سلّمي على صاحبة الوشم الأزرق وقولي لها إن خليلك جاء.

(3) أي: دموع العين تنسكب بغزارة
وأنا طول الليل أتأمل الكواكب
أنا أعشق غزالي غير أنه معرض عني

(4) أي: ناديت في ظلمة الليل — والقلب مريض يتوجع
ما أبطأك يا حبيبة القلب — أغيثي عشيقك الذي يناديك

(5) أي: غابوا عني الأحباب — فماذا فعلت
ما بين هضاب وشعاب — غابوا
قطعوا عني الشراب — بعدما حَلا لي

رسالة إلى السجن

حنا إبراهيم

والدنا العزيز

مضت مدة طويلة على رسالتنا السابقة إليك. بالطبع لم يكن ذلك بسبب الكسل أو قلة الإهتمام. لكننا، منذ عودة الرئيس عرفات، ونحن نترقب خروجك وزملائك من السجن بين يوم وآخر. ولم نتوقع كل هذه العراقيل والمماطلات. على كل حال لا يزال أملنا كبيراً. ونحن صابرون وصامدون كما تريد لنا أن نصبر ونصمد. صحيح أن الحياة صعبة، لكن يهون علينا أن الجميع في الهوى سوا وبذلك يسهل التحمل.

كان هذا الصيف مختلفاً. فقد انسحب الجيش الإسرائيلي من غزة واختفت من الشوارع ظاهرة رشق الحجارة. وتوقفت الإنتفاضة في إنتظار ما ستسفر عنه العملية السلمية. ويمكن القول أن العطلة الصيفية كانت مملّة لولا أنني تلقيت مع عدد من زملائي الطلاب المتفوقين في بداية هذا الشهر دعوة لقضاء عشرة أيام في مخيم صيفي في مدينة عكا التي طالما سمعت عنها وقرأت ولم يتح لي أن أراها.

لا أستطيع أن أوجز إنطباعاتي عن هذه الرحلة في رسالة واحدة. وإذا كان في الإمكان سرد الأحداث فإن التعبير عن مشاعرنا إزاءها ليس بالأمر السهل. ويمكن القول أنها كانت سلسلة من المفاجآت السارة والسعيدة. وفي الواقع لم يكن هناك مخيم ولا خيام. بل زيارة منظمة وبرامج إحتفالية في الأيام والأماسي بينما كنّا نقضي الليالي في ضيافة عائلات كما لو كان واحدُنا فرداً أصيلاً من العائلة.

في البداية اعتبرت نفسي أوفر الجميع حظاً لأن فرعتي كانت لدى عائلة يصعب عليّ إيجاد الكلمات اللائمة لوصفها ووصف الحفاوة والإهتمام اللذين عاملني أفرادها بهما. لكن تبيّن لي من حكايات الزملاء أن سائر العائلات المضيفة كانت من نفس الطراز. أما القائمون على المخيم من مسؤولين ومرشدين ومرشدات فأشعرونا كما لو كنّا برفقة أهلنا. بل لا أظن أن أحداً منّا كان ليلقى، لو كان برفقة والديه، ما لقيه لدى هؤلاء الناس الطيبين. والرائع في الأمر أن أحداً لم يعاملنا باستعلاء، ولم يشعرنا أحد بالنقص. بل أظهروا إمتناناً

لنا ولمن أرسلنا، كما لو كنّا بذلك أسدينا لهم معروفاً يذكر.

رجالات المدينة العرب بدءاً من نائب رئيس البلدية وممثلي المؤسسات المحلية ورجال فن وأدب عاملونا كما لو كنّا ممثلي السلطة الفلسطينية أو كما لو كانت بيننا صلة رحم. ولما كنت متأكداً من صدق مشاعرهم ولما كنت أعتقد أنهم نموذج عن الإنسان العربي في كل مكان وجدتني أتساءل: ما دام الإنسان العربي العادي طيباً وجيداً إلى هذه الدرجة، فلماذا نجد دولنا العربية على ما هي عليه من تشرذم وتخلف وانقسام؟ ربما سأجد الجواب حين يتقدم بي العمر. أما الآن فأجدني مطالباً بالتنويه بطيبة العائلة التي استضافتني، ولعل ذلك ينسحب على سائر العائلات وعددها أكثر من عشرين.

ليست هي بالعائلة الثرية على المستوى الإسرائيلي، ولكنها عائلة مرتبة ومتينة. لدى أبنائها كمبيوتر علموني على إستعماله حتى صرت نداً لهم في مباريات "الأتاري" التي نشارك فيها على شاشته.

في البداية حسبتها عائلة مسيحية لأن أسماء أفرادها لا تدل على إنتماء طائفي معين. فالأولاد وسام ووئام والبنت رائدة. ولم ألمس ذلك التزمت والتعصب في التعامل والتلبس الذي يميز المتعصبين دينياً، وسرعان ما شعرت كما لو كنت واحداً منهم. بل كنت ألمس معاملة متميزة كما لو كنت إبنهم المدلل. وفي اليوم قبل الأخير أخذنا رب الأسرة إلى متجر كبير حيث إشترى لي ملابس وحذاء وحقيبة مدرسية ودفاتر وأقلاماً وكل ما يمكن أن يحتاجه ولد في مثل سني يتأهب للعودة إلى المدرسة. وقد تأثرت بشكل خاص حين سمعت الوالد يهمس لابنه بأن دوره سيكون في آخر الشهر.

وقبل الوداع دسّ أبو وسام في جيبي ورقة نقدية من ذوات المئة شيكل. سامحني يا أبي لأني لم أجد مناصاً من قبولها. قالوا إنها هدية، والنبي قبل الهدية. ولأني لم أكن أعرف إذا كانت ستتاح لنا فرصة اللقاء ثانية فقد شعرت بالحاجة إلى أن أهديهم شيئاً ما بالمقابل. لكن ما تراني فاعلاً ولا خيل عندي أهديها ولا مال؟! وفطنت فجأة إلى أن لديّ شيئين عزيزين جداً. أولهما القميص الذي أرتديه، وكانت أمي اشترته لي بعد قدوم الرئيس أبو عمّار وصحبه واستبشارنا بقرب الإفراج عن السجناء. وأمي قالت أنه لا يصحّ أن أستقبل والدي بأسمال بالية. صحيح أن القميص كان أكبر من مقاسي. ولكنها قالت إنه سيكون ملائماً جداً بعد عام أو أكثر. قميص جيد كهذا يخدم سنوات. فأنا لا أرتديه إلا في المناسبات والأعياد وهي ليست كثيرة. خلعت القميص دون تردد وأعطيته لوسام. قبل به بعد أن شعروا أن الرفض سيزعلني كثيراً. وكان عليّ أن أقدم هدية أخرى لوئام. لم يبق لديّ إلا تلك التحفة التي أرسلتها إليّ من السجن، أي قبة الصخرة المنقوشة على حجر رقيق. لم أكن لأبدلها بتحف العالم. ولكني شعرت أنها تؤدي لي خدمة جلّى. خلعتها من عنقي ووضعتها في عنق وئام. قلت له أنها ذكرى من أبي نحتها في السجن. ولكني لا أشعر بأني أخسرها أو أتخلى عنها لأني أعطيها لأخ لم تلده أمي.

وهنا حدث يا أبي ما لم أكن أتصوره. بكت أم وسام من التأثر. قد تقول قلوب النساء رقيقة ودموعهن سخية. ولكن أبو وسام لم يستطع أن يخفي دموعه. بكى.. نعم بكى كزوجته.. لكن بصمت. إنحدرت

دمعتان كبيرتان على وجنتيه. حاول أن يقول شيئاً فاختنق صوته. حاول أن يبتسم فلم يستطع. فأدار ظهره.

طالما سمعتك يا أبي تقول إن البكاء لا يليق بالرجال. وأمي حدثتنا كيف كنت تنهرها بشدة إذا بكت في أثناء الزيارة. ولم تكن تجرؤ على البكاء أمامك. أعرف بل أحس أنك تكره دموع العجز والقهر. ولكن دموع أبو وسام لم تكن لعجز أو قهر بل هي دموع طاهرة ومطهرة. هكذا شعرت. وأحسست نحوه بعاطفة شديدة. ووددت لو أضمه وأعانقه. بل وددت لو أنك حين تعود تضمني ونبكي. نعم لا بد أن هناك دموعاً غير دموع القهر والحزن. لشدّ ما نحتاج إلى مثل هذه الدموع. ولن نشعر عندها بالعار. بل لعلها تطهرنا من شوائب كثيرة علقت بروح هذا الشعب الطيب.

أمنيتي أن تتحرر قريباً. وأن نزور عكا معاً ونلتقي أبو وسام الذي بكى. وأعتقد أنك ستحترمه لا أقل من إحترامك لأبطالك الذين لم يبكوا ذات يوم.

إبنك المشتاق رياض
غزة في 25 آب 1995

(البعثة/ الجليل)

الطاهر وطار:

الكتابة حالة صرع حين تأتي، تأتي!

حاوره: **إميل حبيبي**



• الطاهر وطّار أشهر الكتّاب الجزائريين في بلادنا وفي شرقنا. أصبح إسمه أسطورة مثلما كانت ثورة الجزائر ـ ثورة المليون شهيد ـ أسطورة. إلتقيناه في أروقة "معرض الكتاب الدولي" في فرانكفورت، أضخم معارض الكتب على الإطلاق في عصرنا. كما قيل لنا. إلتقينا على غير ميعاد. وهذه هي الصدفة التي جاء فيها أنها خير من ألف ميعاد. آخر مرة التقيناه في القاهرة. على ما أذكر. قبل حوالي خمس سنين. بإمكانك أن تصححني إذا كان لديك ما تصححه. وكانت المصائب التي حلّت بعالمنا. بعد. بركاناً خامداً تتصارع عوامله في باطن الأرض. وقد يكون الطاهر وطّار من القلائل الذين تنبّهوا إلى هذه العوامل الباطنية في روايته الشهيرة عن دواخل ثورة التحرير الجزائرية "اللاز".

لسنا ريشة في مهب الريح!

• إميل حبيبي: فإلى اين أوصلتك الرياح العاصفة. في هذه الأثناء ما كنت وما كنّا ريشة في مهبّ الريح. بل أشجاراً لا تموت إلا واقفة. حدّثنا عن حالك من بعدنا. إن وضعكم في الجزائر ـ وضعكم الشخصي ـ يعنينا مباشرةً. تفضّل.

ـ الطاهر وطّار: شكراً أستاذنا الجليل وكاتبنا العظيم. إميل حبيبي. معلّم الجيل والنخلة الثابتة

والصامدة في واقعنا المعرّض للرياح وللزوابع وللعواصف. في رواية "اللاز" التي بدأت التفكير فيها في سنة 1958، بعد أن بلغني مقتل المناضل الشيوعي الكبير، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجزائري يومها، العيد العمراني، رحمه الله، من طرف قيادة الولاية الأولى لجبهة التحرير وجيش التحرير الوطني رُحت أتساءل عن الأسباب. رُحتُ أبحث. رُحتُ أعرض نفسي لوضع الخلاف، الخلاف في الرأي مع رفاقنا في جبهة التحرير الوطني، واتضح لي إن هذا الذبح هو إقصاء لا أقول نهائي، ولكن إقصاءً متعمَّد للفكر، للرأي الآخر، للمعرفة السياسية في حركة التحرر الوطني الجزائرية، على عكس ما حدث ويحدث أيامها في فيتنام وفي كوبا وعلى عكس ما حدث في الصين. تهيأ لي أن حركة التحرر الوطني الجزائرية التي تقودها نخبة ليست بمستوى ثقافي عالٍ ووطنية، لا أقول متشنجة، ولكن وطنية تميل إلى فتح جسور مع المستعمر الفرنسي فكانت – ليست نبوءة – ولكن كانت حالة تسجيل لمعطيات وواقع موجود وحدث وقلت إن من ذبح زيدان من قفاه (زيدان بطل الرواية الذي يمثّل العيد العمراني) إسمه الشيخ، وهذا الشيخ الآن هو الذي يُذبح مهما تبدّلت بدلته سواء أكان بلحية أو بدون لحية.

• إميل حبيبي: الآن أنت..

– الطاهر وطّار: أريد أن أضيف حاجة..

• إميل حبيبي: تفضّل.

– الطاهر وطّار: في 1978 أضفت عملاً على هامش رواية "اللاز"، هو "العشق والموت في الزمن الحراشي".

• إميل حبيبي: نعم.. أذكره.

– الطاهر وطّار: أصف في هذا العمل معركة بين إسلاميين وبين طلبة يساريين ومتطوعين لصالح الثورة الزراعية والإصلاح الزراعي ويحدث الآن ما رأيته قبل تقريباً 40 سنة.

الجزائري لا يعرف الوسطيّة

• إميل حبيبي: أخي العزيز.. إن ما يحدث في الجزائر يؤلمنا أشدّ الألم، وربما إنطباعاتنا غير واضحة، وكنت أرغب في أن تساعدنا من موقعك، موقعك الإبداعي ومن تجربتك، على أن نفهم، ولو بإيجاز، ماذا يحدث؟ وبهذه المناسبة أذكر لك أنهم يقولون عن رواية "المتشائل" إنها تنبأت بالإنتفاضة.

– الطاهر وطّار: نعم..



• الطاهر وطار وإميل حبيبي ـ فرانكفورت / أكتوبر 1995 •

• إميل حبيبي، وأنا أعتقد بأننا نستطيع أن نجد في روايتك "اللاز" وما بعدها، جذور مأساة الجزائر الحالية، فما رأيك في هذا التقييم؟

ـ الطاهر وطّار: هذا صحيح، والكاتب كما تعلمون هو مسجّل لدرجة حرارة الأحداث قبل حصولها، إنه يستوعبها من داخله وليس من خلال أوراق أو وثائق وهو يعيش كالنحلة، يصنع بداخله المستقبل. ما يحدث في الجزائر يعود إلى طبيعة الإنسان الجزائري نفسه. الإنسان الجزائري بحكم موقعه على ساحل البحر الأبيض المتوسط، يستهلك حضارة ولا يصنع حضارة. يأتيه الله في نابليون، يأتيه البيزنطيون، يأتيه المسلمون، يأتيه الإسبان، يأتيه الفرنسيون.. وعادةً ما يأخذ فقط ما يحتاج مما أتاه ويتمرّد على الباقي. كان البدو البربر يثورون أيام البيزنطيين وأيام الرومان، يغزون القرى الفلاحية التي بناها بعض الذين ترومنوا من الجزائريين ويحطمونها. وأيضاً أيام الكنيسة الرومانية كان هناك تمرّد كبير من طرف الفلاحين الجزائريين المياومين (الذين يشتغلون باليوم) بقيادة القديس دونا (سانت دونا ـ دوناتيوروس) وهو جزائري ثائر تمرّد وفي نفس الوقت، الذي تمرّد فيه دوناتيوروس بقيادة الفلاحين البدو، كان هناك القديس سانت أوغستان ـ أوغستانيوس وهوجزائري تعلم في قريتي النحو والصرف والبلاغة..

• إميل حبيبي، قريتك؟

ـ الطاهر وطّار: نعم.

• إميل حبيبي: ما اسمها؟

ـ الطاهر وطّار: إسمها مادور.

• إميل حبيبي: مادور؟

ـ الطاهر وطّار: نعم. وباللاتينية مادوروس. وفيها نشأ أول روائي في العالم. وهو أبوليوس. صاحب "الحمار الذهبي م.ض." التي تقول عنها المعاجم لو أنه عاش لكان جزائرياً.. الحقيقة هو عاش في شخصه وفي شخص كاتب ياسين أيضاً. لأنه من هذه القرية نفسها. مادوروس. لقد كان القديس أوغستان. في الوقت نفسه. يدين القديس دونا الذي كان موالياً للرومان. ودائماً في الجزائر هناك "مترومنون "ورافضون للرومنة و"متفرنسون" ورافضون للفرنسة..

• إميل حبيبي: حتى في الطائفية. في الدين.. يعني كانوا مسيحيين؟

ـ الطاهر وطّار: كانوا مسيحيين.. نعم كانوا مسيحيين. وكانوا يهوداً أيضاً. الكاهنة. التي قاومت الإسلام قالوا إنها كانت على الدين اليهودي. وكل ما يحدث في العالم يصل الجزائر بسرعة. يصلها على ساحلها ويظلّ يتفاعل. للجزائري طبيعة خاصة نابعة من تضاريسه. تشبه طبيعة الكريتي في اليونان. لا يعرف الوسطية. يدخل طارق بن زياد..

• إميل حبيبي: يعني بالعكس مما يُقال عن المصريين؟

ـ الطاهر وطّار: نعم. يدخل طارق بن زياد مثلاً الأندلس/ إسبانيا ـ الأندلس أيامها ـ فببساطة يحرق سفنه ويقول لأصحابه: العدو أمامكم والبحر وراءكم. هذا خطأ عسكري ولكنه خطأ جزائري. عقبة بن نافع يدخل شمال إفريقيا. يمر بليبيا ثمّ بتونس ثم يمر المغرب ثم يعود.. ما أن يهين الجزائري حتى يقتله. وفي الوقت نفسه يقيم له مزاراً. وشبه معبد. مسجد. موجود إلى الآن. باسم سيدي عقبة بن نافع.

• إميل حبيبي: أين يوجد؟

ـ الطاهر وطّار: يوجد في الجنوب الشرقي قرب مسكره. قبر عقبة بن نافع. يُقال إن الخيزران. أم هارون الرشيد. كانت بربرية. كانت سبية بربرية. ما أن شهدت الخلاف بين ولديها حتى قتلت الآخر لصالح هارون

الرشيد بكل برودة أعصاب. للجزائري ردود فعل وعُسر هضم للحالة الحضارية، للفكرة. فهو هذا المغزو باستمرار من طرف الآخر باستمرار ليس له مرجع حضاري سوى الدين. عندما دخل المسلمون وجدوا كاهنة. بعضهم يقولون إنها يهودية، وبعضهم يقولون إنها مسيحية. قادت حرباً طويلة، وحين انهزمت أحرقت كل الجبال أحرقت المزارع والأرض. فلما دخل الفرنسيون لم يجدوا سوى رجل دين. أيضاً، هو الأمير عبد القادر. نصّب نفسه هكذا بقدرة قادر، وحمل السلاح وكان عمره 17 عاماً ثم انتقل إلى الشرق وصار رجل تسامح، رجل حضارة، رجل.. إلخ. الشاهد أن الجزائري ليست له مرجعية. ليس كالمصري مثلاً، له امتداد 5 آلاف، 6 آلاف سنة، ملوك وفراعنة، وليس كالعربي مثلاً في الجزيرة العربية يعرف نسبه من اليوم إلى جرهم وقحطان وثمود غير ذلك. ليس كالسومريين، ليس كالفلسطينيين، ليس كالفينيقيين.

• إميل حبيبي: هذا الكلام سمعته.. هذا التحليل سمعته في المغرب أيضاً.

ـ الطاهر وطار: ما نقوله إن الجزائر..

• إميل حبيبي: أنه لا يوحّد الأمة سوى الدين.

ـ الطاهر وطّار: ما نقوله للجزائري نقوله للبربري في شمال إفريقيا. هناك جوانب ليّنة وجوانب مكبّلة وجوانب ثائرة. تونس هي جانبنا الليّن المرن. هذا الذي يفتح بسهولة ويدخله الناس بسهولة، وينشئون فيه حضارة يقيم فيها الفينيقيون ثم البيزنطيون ثم الأتراك وإلى غير ذلك.. وهم باستمرار يُقتحمون بسهولة.

• إميل حبيبي: أنا تحدثت عن المغرب..

ـ الطاهر وطّار: نعم، وأنا آتي إلى المغرب.

• إميل حبيبي: هذا الشيء نفسه، هذا التحليل سمعته في المغرب..

ـ الطاهر وطّار: يبقى جانبنا الآخر المكبَّل لتوالد التاريخ هو المغرب. المغرب باستمرار فيه دول قوية، دولة المرابطين، دولة الموحّدين، باستمرار خاضع لسلطان قوي، بينما إلى الجزائر يهرب التونسيون ويهرب المغاربة.. إلى الجزائر.. وتونس والمغرب، بالحقيقة، هي قطر واحد وجنس واحد وعرق واحد وذهنية واحدة، ونستطيع القول إن جبال الجزائر هي الملجأ للمتمردين في شمال إفريقيا والمغرب العربي حالياً. فلا غرابة في أن قادة حركة التحرر الوطني الجزائرية يميلون إلى النفاق وتلك الجماهير الشعبية التي لا يمكن ولا يستطيعون تجنيدها لمرجعيات أخرى، ولا غرابة اليوم في أن يأتي أناس يلتحون، يرتدون ثياباً، يحفظون سوراً قرآنية

وأحاديث ويستولون على الناس. روايتي الأخيرة "الشمعة والدهاليز" التي...

• إميل حبيبي: "الشمعة والدهاليز"؟

ـ الطاهر وطّار: نعم...

• إميل حبيبي: هذه الرواية لم تصلنا بعد.

في الجزائر حالة جنون!

ـ الطاهر وطّار: هذه نُشرت في "أخبار الأدب" وستُنشر قريباً في "دار الهلال"، ونشرناها في الجزائر ولم نوزعها بعد. هذه الرواية تتحدث عن هذه الإشكاليات لدى الجزائري. أقول واصفاً لعقلية الجزائري. أقول إن يده في جيبه باستمرار، يمكن أن يستخرج نقوداً ليكرمك. ويمكن أن يستخرج سلاحاً ليقتلك! لا يمكن أن يكون أي شيء آخر بعد هذا.. فلا نستغرب نحن هذا الخاض الذي يجري في الجزائر. بالإضافة إلى عوامل خارجية أخرى. منها عامل التداخل الثقافي، حتى نتجنب القول المعهود بالغزو الثقافي. أنا أستعمل عبارة التداخل الحضاري والثقافي الحالي بحكم تزايد السرعة، بحكم تكاثر إتصال الناس ببعضهم، بمختلف الوسائل ومنها التلفزة. في كل بيت جزائري هوائي مقعّر تمدّه بعشرين ثلاثين قناة. وهي كالأكف المفتوحة فوق السطوح تطلب من الله العليّ أفلاماً خليعة وصدوراً عارية وأفخاذاً بيضاء!! هناك رد فعل. رد فعل طبيعي وأعتقد أنه صحي. لو وُجدت قيادة وطنية واعية لإستيعابه لما تمرّد الناس ولما اُصيبوا بالجنون.

• إميل حبيبي: اُصيبوا بالجنون؟!

ـ الطاهر وطّار: بالجنون.. أن يعيشوا حالة جنون.. حالات قتل أعمى. حالات طروحات عمياء. هناك شيء آخر. هناك تمزّق ثقافي في الجزائر. نحن لم ننشأ في دولة جزائرية قديمة. مثل الدولة المصرية أو الدولة المغربية أو التونسية. أسسنا كشعب، بكفاح مرير، دولة ووطناً. وطناً كبيراً لأول مرة في التاريخ. بحدوده العظيمة. واستطعنا. بإمكانياتنا. أن نحافظ على وحدته حتى اليوم. ولهذا لا فضل لحكومة أو لزعيم أو لقائد أو لجنرال على الشعب الجزائري. لم يمنحه إستقلالاً كبورقيبة مثلاً كما فعل بورقيبه أو كما يفعل معمّر القذافي أو صدّام حسين. نحن أسسنا هذا الوطن لكل الشعب إلى درجة أننا أصبحنا "شعبويين".. الدولة مدينة لنا. وكل تصرف منها. غير دمقراطي. كل تصرف فاشي. وكل دكتاتورية. وكل إحتقار للمواطن. له رد فعل جزائري طبيعي. الجزائر هي البلد الوحيد الذي نستطيع في الشارع أن نشتم أي وزير أو أي رئيس وأستطيع أن أصرح هنا في أية جريدة مطالباً بأن ينسحب الشاذلي بن جديد من الحكم ولا يزال هو في الحكم.. وأعيّن بعد سنة مديراً عاماً للإذاعة. عندما رُفضت روايتي "اللاز" في سوريا. بحكم أنها تمسّ بالثورة

الجزائرية. ورُفضت في بيروت بزعم أنهم لم يجدوا سوقاً لهذه الرواية. طُبعت في الجزائر. طُبعت الطبعة الأولى ثم الثانية ثم طُبعت طبعات مترجمة. وكان رد فعل الحكومة، على لسان الدكتور أحمد طالب، عجيباً وغريباً! قال لي مدير النشر: "والله ما كان من حقكم أن تنشروا هذه الرواية". لم يقل أحرقوها أو إسحبوها من السوق أو أقتلوا صاحبها أو إسحلوه.. سُررت من هذا الموقف وقُلت إنهم يخافون منّي أيضاً. يخافون منّي.

نحن شركاء في هذه الدولة!

• إميل حبيبي: لماذا يخافون منك؟

ـ الطاهر وطّار: لأنني شريك في هذه الدولة. ككل جزائري. ومن حقي أن أتكلم.. شريك في الثورة التحريرية. هذا ليس نقداً من الخارج. هو نقد ذاتي. ومن حقي أن أقوم بهذا النقد فأنا ساهمت في الثورة التحريرية قدر المستطاع وانقطعت عن التعليم وورثت أمراضاً عديدة. ومنها قراحات (قرح مختلفة) ورأسي مرفوعة. وهم يعرفون هذا. وهكذا حال كل الجزائريين. الشرخ الكبير في المجتمع الجزائري هو اللغة الفرنسية! ونمط لحياة أقلية.. أقلية تتلاشى وتتقلص وبقية منها أحياء فقط ولكنهم يتشبثون بمواقع إدارية ويتشبثون بمواقع في الجامعات. أقاموا لهم خيوطاً متينة بالمؤسسة "الفرنكوفونية" الفرنسية مثلما للبلجيكيين الفرنسيين. مثلما للكنديين الفرنسيين. مثلما للسينيغاليين الفرنسيين. مرتبطين تمام الإرتباط بالمؤسسة "الفرنكوفونية" الفرنسية. وصاروا يتوهمون أن في الجزائر عدّة شعوب. ومن جملة هذه الشعوب الشعب المُفرنس. تذكرون. أستاذ حبيبي. عندما كنّا في "معهد العالم العربي". أعد أحدهم كتاباً عن القصة الجزائرية والثورة التحريرية فأورد كلّ من كتب باللغة الفرنسية وأقصى ما كُتب باللغة العربية حتى وإن كان مترجماً للغة الفرنسية. أقصى كل ما كُتب باللغة العربية. فثُرت وثار معي الدكتور جمال الدين بن شيخ والمرحوم جون دي جو. الناقد الفرنسي المختص بالأدب المغاربي. هنا يؤكدون. يريدون أن يؤكدوا أن في الجزائر شعباً فرنسياً وأن في الجزائر فرنسا ما تزال موجودة وأن قضية العروبة والتعريب في الجزائر قضية ثانوية جداً. هامشية. وهناك قضية أهم منها هي قضية البربرية. هؤلاء الناس أضفوا زيتاً على نار الصراع الحضاري المحلي والعالمي وارتبطوا بالسلطة إرتباطاً بشعاً. أذكر أن مالك حداد. رحمه الله. الوحيد الذي أرسل برقية ليلة انقلاب 1965. انقلاب الهواري بومدين على بن بلا. فاستبشعت العملية. كيف يصح لشاعر وروائي وفنان أن يبارك دبابات تحاصر المجتمع المدني وتحاصر رجلاً يُقيم في شقة متواضعة بسيطة. رجلاً أعزل.

• إميل حبيبي: بن بلا..

ـ الطاهر وطّار: بن بلا. رغم أني لا أتفق مع بن بلا كثيراً. وكان هؤلاء الفرنسيون رؤساء تحرير الصحف

باستمرار. هم مديرو الجرائد وهم مديرو المؤسسات الإعلامية. وهذا شأن الإذاعة والتلفزة إلى اليوم. مدير التلفزة مفرنس ومدير الإذاعة مفرنس أيضاً. وكانت مديرية الثقافة في وزارة الإعلام. قبل إنشاء وزارة الثقافة. دائماً مفرنسة إبتداءً من مالك حداد وإلى الصديق بل أكثر من هذا. عينوا أبو بكر بو القايد ـ الذي قُتل أخيراً ـ على رأس وزارة الثقافة وهو مفرنس. تعليمه ثانوي فقط وليس كاتباً أو أديباً. زوجته فرنسية نورمندية. يعني جُرح كبير يحدثونه في شخصية الشعب الجزائري بعد 30 سنة من الإستقلال. يتغنون بالدمقراطية والإنفتاح الإقتصادي والتعددية وإلى غير ذلك. بعد ذلك يشكلون منهم رؤساء ومديرين عامّين للشركات الوطنية. بعض الضباط المتقاعدين وبعض الكتّاب والأساتذة في الجامعة يشكلون لجنة لحماية الجمهورية: هذه الجمهورية التي لم نَر وجهها منذ 1965. ليلة إنقلاب الهواري بومدين. باستمرار كانت هذه المجموعة. تعيّن. في الخفاء. القائد وتعين المسؤول. ولم نعرف أبداً جمهورية بالمعنى الحقيقي. ولم يقدّروا عمق الإختلاف بين النخبة الحاكمة وبين الجماهير الشعبية. بين النخبة المثقفة وبين الجماهير الشعبية. لا يعرفون أن النخبة الحاكمة في نظر المجتمع هي الوجه الثاني للإستعمار. لأنها لم تحل مشاكل هذا المجتمع وصارت لها تصرفات شاذة وغريبة من رشوة ومن إستيلاء على الأرزاق ومن محسوبيات وإلى غير ذلك. وهي الوجه الثاني للإستعمار الذي يستعمل لغة الإستعمار. وينظرون إلى النخبة. حتى وإن كانت في المعارضة. بمن فيها الطاهر وطّار حتى وإن كانت في السجون. على أنها الوجه الثاني للسلطة. إذا لم تكن اليوم في الحكم فستكون غداً. وتعلمون أن في عالمنا العربي في بعض البلدان. قليل من العسكر كثير من المثقفين. وفي بعض البلدان قليل من المثقفين كثير من العسكر. نستطيع أن نذكر أمثلة كثيرة. فلا حكم بدون عسكر ولا معارضة بدون عسكر.. هناك هذه الآن ينبغي معالجتها. فهذا موضوع آخر.

المشكلة هي البحث عن الصدق

• إميل حبيبي: أستاذ. تجربتي الشخصية المأساوية علمتني أن أجدادنا صدقوا في العديد من الأمثال التي توارثناها. ومنها أن المرء لا يستطيع أن يحمل بطيختين في يد واحدة. وأنا كدت أن أحطّم البطيختين بطيخة الإنحياز السياسي الحزبي وبطيخة الإبداع الأدبي الصادق. صدق الطبيعة نفسها. ولكنني بعد هذا العمر الطويل أجدني عاجزاً عن الترفّع عن وعثاء السياسة. تلك مسألة أخرى. وأجد تجربتك. أيها الزميل العزيز. أشبه بتجربتي. فما هي مسألتك في هذا المضمار؟ ما هي قضيتك؟ هل تستطيع؟ أنا شخصياً لم أستطع التخلي عن العمل السياسي. ولكن أنا واثق بأنه لا يمكن أن نحمل البطيختين في يد واحدة. ما هي تجربتك؟

ـ الطاهر وطّار: هي مثلما تفضلتم. تكاد تكون تجربتكم ربما المسار نفسه. أنا لست في أي حزب الآن.

• إميل حبيبي: ولا أنا..

ـ الطاهر وطّار: ولا أشتغل في السياسة إلاّ إذا سُئلت عن موضوع أعطي رأيي فيه. وعندما أجلس إلى طاولة الكتابة أعالج عادةً مواضيع سياسية لأنه صار لديّ شبه احتراف مهني. منذ فتحت عيني وأنا في خضمّ السياسة. حتى وإن أغلقت أذني بالرصاص فسأمارس السياسة.. مشكلة! منذ حملت القلم والبحث عن الصحّ. عن البراءة. عن النزاهة. عن الصدق..

• إميل حبيبي: عن الصدق..

ـ الطاهر وطّار: المشكلة هي البحث عن الصدق. وكثيراً ما يختلط لديّ العمل الإبداعي مع الحياة اليومية. حتى مع زوجتي ومع إبنتي. إن زوجتي لا تضع أصلاً أي مكياج.. منعتها أنا. قلت لها أريد أن أرى وجهك باستمرار كما هو بدون مساحيق. أخشى أن ألقاها شخصاً ثانياً. وكذلك إبنتي ـ عمرها الآن 18 سنة ـ تعلّمت أن لا تضع المساحيق على وجهها. ربما نحن قديسون جدد ـ لا أقول أنبياء إحتراماً لمشاعر المؤمنين ـ

لكل أمّة أديبها المصلوب!

• إميل حبيبي: يُقال لنا.. يُقال عن أدبك أنك أصبحت تميل إلى الغموض والفانتازيا.. هل حالك هو حال ذلك الذي في فمه ماء وهل ينطق من في فيه ماء؟ وهل كُتب علينا في بلادنا. كل بلاد أن تموت شهداء أم يحق لنا أن ننتهج طريق "كليلة ودمنة" حتى في هذا الزمان المتقدم؟ فهمتني؟

ـ الطاهر وطّار: نعم فهمتكم يا أستاذ.

• إميل حبيبي: أنا أتساءل.. هذا سؤال يواجهني..

ـ الطاهر وطّار: نعم.. أفهمكم بدقة. أولاً واقعنا أقوى من الكلمات. تماماً وأقوى من الأدب. واقعنا يفرض علينا حالات من الصرع. إننا في لحظات صرع قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة. لكن بالنسبة لي باستمرار ومنذ رواية "الزلزال". أستعمل ثلاث مدارس. أستعمل المدرسة الواقعية. وأستعمل التجريد وأستعمل شيئاً من تراثنا. شيئاً من "ألف ليلة وليلة." أو من "كليلة ودمنة" أو من أساطيرنا.

• إميل حبيبي: وهذا ما أفعله أنا.

ـ الطاهر وطّار: وقالت لي أكاديمية روسية ـ سوفييتية سابقاً ـ قالت لي: إنكم في العالم الثالث ـ العالم النامي ـ ذكرت لي إسمكم و بعض أسماء الكتّاب. أنتم أضفتم إلى الواقعية الإشتراكية واقعية

جديدة. واقعية مثلاً بطلها ليس إيجابياً مثلما لدينا نحن. واقعية بطلها جماعة وليس بطلها فرد. أحياناً واقعية بطلها مدينة وليس بطلها شخص.. لنا ظروفنا ولكن أعتقد أنه لا بدّ من الشهادة. لا أطلب من جميع الناس أن يُستشهدوا. ولكن لا بدّ من الثبات. أنا أؤمن بأن كل أمّة في كل عصر ينبغي أن يكون لها مسيحها الأديب المصلوب. وإلاّ فإن الأجيال التي تأتي بعدنا، لن تجِدَ قدوة. حتى في رواية "اللاز" لم تُتَحْ الفرصة لزيدان أن يهرب. بل دفعته إلى الشهادة كمثقف. عن دراية وعن سبق إصرار.. كما يقولون.

• إميل حبيبي: هل هذا أمر طبيعي؟

ـ الطاهر وطّار: نعم.

• إميل حبيبي: منذ ذلك الوقت. منذ أن قرأت "اللاز" وأنا أتساءل.. هل يحدث؟ هل على الرائد إذا سُمح له أن يتراجع أو أن يخرج من الأزمة التي عاش فيها. هل عليه أن لا يخرج؟ هل عليه أن يُستشهد. مثلما فعلتَ في زيدان؟ مثلما أشعر ربما أنك تفعل بنفسك؟

ـ الطاهر وطّار: أفعل في نفسي هذا وأكمل الشهادة من جميع الأطراف. إن التاريخ لم يسر إلاّ بهذه الشهادات. حتى وإن تحوّلت إلى أفلام وإلى حكايات للأطفال.. ولكن هناك لحظات معينة تحتاج فيها الشعوب إلى الشمعات في دهاليزها. هذه الشمعات تكون أبطالاً. تكون أدباء وكتّاباً. الحلاّج عندما مات كان يعرف أنه سيموت وغاليليو مات ليؤكد أن الأرض مستديرة.

• إميل حبيبي: غاليليو لم يمت.. غاليليو تراجع.

ـ الطاهر وطّار: تراجع؟

• إميل حبيبي: نعم.. غاليليو تراجع. الذي لم يتراجع هو تلميذ غاليليو. جوردانو برونو.

ـ الطاهر وطّار: هذه معلومة جديدة بالنسبة لي. لكنه مشهور أن غاليليو.. فليكن تلميذه إذن.

• إميل حبيبي: نعم تلميذه جوردانو برونو.. هذه من القضايا التي أثارتني.. أن رجال الفكر يصرّون على أن غاليليو لم يتراجع. بينما هو تراجع.. وجوردانو برونو هو الذي لم يتراجع. وغاليليو تراجع تراجعاً تكتيكياً. من أجل أن يستمر في عمله العلمي والإبداعي. وهذه قضية. أنا في يوم من الأيام كتبت رواية "لكع إبن لكع" وانتقدت فيها لويس عوض. قيل دفاعاً عنه إنه يساير حتى يستمر في إعطائنا أدباً جميلاً. أنا الآن. موافق مع لويس عوض. هذه هي القضية التي تشغلني. لماذا يجب أن نموت شهداء؟ لا يكون أمامنا

إلا هذا الطريق؟ أنا لا أقول أن تتخلى عن الصدق في مشاعرك ومبادئك. لا أقول هذا. ولكني أقول أنه يحق لنا أن نصمت أحياناً حتى نستمر في إبداعنا.

الشهادة لا تعني الإنتحار

ـ الطاهر وطّار: أنا معكم تماماً في هذا الطرح. والشهادة لا تعني الإنتحار، ولا تعني الحماقة أو الهوج أو الإرتماء في النار. لا. الشهادة هي آخر حل يصله المبدع بعد رحلة متعددة التشعبات ومتعددة الطرق. أنا الآن أدعو المثقفين والأدباء والكتّاب، وأدعو نفسي إلى عمل "رسكلة" جديدة، إعادة تجديد، إعادة تكوين، إعادة تصحيح للمعلومات والمفاهيم تجاه العصر. أقنع نفسي بأن جدار برلين سقط فعلاً. أقنع نفسي بأن أبا عمّار موجود فعلاً في الأرض المحتلّة، في الضفة الغربية وقطاع غزة. أقنع نفسي بأن الثورة ستسمّى إرهاباً وحتى أن القائد الذي كان يزعم أنه صاحب الزعامة الثورية، معمّر القذافي، اقتنع برد عبارة الإرهاب عن نفسه. أيضاً لأن هناك متغيرات وهناك صحوة ينبغي أن تلازم المبدع. وينبغي أن تكون عيناه مفتوحتين باستمرار. الشيء الوحيد الذي ينبغي أن لا يتخلى عنه هو الإنجذاب التلقائي نحو الصدق.

• إميل حبيبي: أتفق معك كل الموافقة. أنت أيضاً حطّمت المساطر التي يحملها النقّاد التقليديون. كما أفهم من أعمالك الأدبية، أصبح الأنا لديك منطلقاً نحو الجماعة ـ المجتمع، وأصبح المجتمع، كما أفهم، حصيلة ما لا يعدّ ولا يحصى من هذه الأنا إذا صح التعبير. إنه طريقنا إلى توكيد المشترك في مجتمعنا بعد أن كنّا، أنت وأنا وأمثالنا، لا نرى سوى الإختلاف، خصوصاً الطبقي منه في المجتمع. فما هو واجب المبدع في اعتقادك خصوصاً في هذا الوقت، وهو وقت من الأوقات المتغيرة. فما هو واجب المبدع، رؤية الصراع الطبقي فحسب أم إبراز المشترك؟ يعني أنا مثلاً أعطيك من تجربتي، حين كتبت "المتشائل" سألوني، إلى أية طبقة تنحاز شخصية سعيد أبي النحس المتشائل، إلى أية طبقة. في البداية أصبتُ بالبلبلة. ولكن فيما بعد فهمت أنني عفوياً أتحدث عما هو مشترك في مجتمعي. المشترك هو الإتكالية. المشترك هو البحث عن الخلاص عبر العجيبة، إلخ.. فسعيد أبي النحس المتشائل يمثّل المشترك في المجتمع، ووجدت أنه يمثّل المشترك ليس في مجتمعي فقط، بل في كل المجتمعات. كل المجتمعات المقهورة. فأنا أسألك، وأوجّه إليك هذا السؤال. ربما يجب أن لا أستبق جوابك. لكن أنا أشعر أنك أنت أيضاً، وربما أيضاً على الرغم منك، أنت تبحث عن المشترك في المجتمع، ما يوحّد المجتمع وليس فقط ما يمزّقه.

ـ الطاهر وطّار: أعتقد أن هذا التخصص في المهنة، إذا صحّ التعبير، هو تجنب العمل الذي يتوجّب أن يقوم به المناضل الحزبي في خلية أو في نقابة للتفرغ للنظر إلى القضية في مجملها من جميع جوانبها ومن جميع مسامها. وهذا التخلّص صحيح وسليم. هو توجه نحو الإلتزام الحقيقي وليس نحو الإلتزام بقول شيء مثلما كانت عليه قواعد الواقعية الإشتراكية، التي هي واقعية شعبية الأدب وحزبية الأدب وطبقيته، وإلى غير ذلك. هذا سمو بالنضال.. إختصاص.. وربما ارتكبنا هفوات في صبانا حين نصبنا

أنه منا زعماء حزبيين، بينما نحن نختلف معهم كل يوم. نختلف معهم في حالات الصدق. مسارنا واضح بينما مسارهم يتغير كل يوم حسب معطيات سياسية وحسب تكتيكات. بالنسبة لي هناك ثوابت وهناك متغيرات. من جملة هذه الثوابت مصلحة العامل - طبقة العمال - العامل الذي في مجموعه يشكّل عمّالاً عديدين. هذه المصلحة ثابتة تتمثل في ظروف عمل أحسن وظروف معاش أحسن. هذا ثابت. وأعتقد أنها هذه هي الماركسية الحقيقية. وأن لينين لن يعود الآن يتخذ المواقف نفسها باعتبار ما جدّ. لا يمكن التحدث عن الطبقة في ليبيا. ولا يمكن التحدث عن الطبقية في الكويت. حتى في أوروبا لا يمكن التحدث عن الطبقية. حين اختلط العامل بالعاطل. الجموع اختلطت. المساهم في شركة يساهم مع آلاف الأسهم. هناك معطيات جديدة. أنا وضعت نفسي في هذه الرواية في ساحة أول ماي في الجزائر العاصمة. حيث يتظاهر ما يزيد عن 120 ألف شاب يحملون مصاحف ويهتفون: عليها نحيا وعليها نموت. لا إله إلاّ الله. عليها نحيا وعليها نموت. تساءلت لو أن لينين يقف موقفي هذا في ساحة الشهداء ماذا سيكون موقفه؟ أو على الأقل ماذا سيقول؟ قلت سيقول لينين ماذا سيخسر العمّال وماذا سيربحون؟ ماذا سيخسر المستغلّون وماذا سيربحون؟ لا يمكن للينين أن يتخذ موقفاً مسبقاً جاهزاً. هو الإقصاء أو الرفض. قلت لو أن ماركس يقف هنا ماذا سيقول؟ سيقول إن البرجوازية عجزت عن تحقيق ما وعدت به الناس وارتكبت أخطاء ويروح يحلل ويبحث عن الأخطاء. هناك كتّاب تجاوزوا الحالة وتمسكوا بالثابت. أنا أذهب إليه مثلما تفعلون من كل مسام الناس حتى خصوصي في رواية "الزلزال" تحملت شيخ بولرواح، وهو رجل إقطاعي، رجل متديّن تديّناً كاذباً، طوال الرواية، وكنت صادقاً أميناً معه وعكست كل ما يفكّر فيه بصدق حتى أن بعض الناس اتهموني بأني تفاعلت وتعاطفت معه. وفي الحق أنا كنت أعلم أنه موجود فعلاً في الحياة وأنه ينبغي عليّ أن أعكس رأيه ونظريته. ليس سخرية. ولكن من أجل إحداث التفاعل في المجتمع. ربما عامل الموقع يختلف بيني وبينكم. كوني أقع في منطقة يجري فيها الصراع فعلاً. أقع في الجزائر حيث كل شيء حقيقي ليس فقط سياسي إقتصادي إجتماعي. موجود. وليس حالة تجريدية أنشئت مثلما في بعض البلدان وخاصةً عندكم. حيث للصراع مذاق آخر وطعم آخر وشكل آخر.

تاريخ روائي

• إميل حبيبي: أستاذي، هل من الممكن في كلمات موجزة أن نستعرض لقارئنا في الشرق أعمالك الأدبية، واحدة تلو الأخرى، دونما أن أحملك أكثر مما يجوز لي أن أحملك؟

ـ الطاهر وطّار: هناك مسرحيتان نشرتا في مجلة "الفكر" التونسية: "ماء الهارب" و"على الضفة الأخرى". ثم مجموعة قصصية نُشرت في تونس في 1961 هي "دخان من قلبي". ثمّ هناك توقف حوالي 4 سنوات عن الكتابة بعد الإستقلال إستيعاباً لما حدث للنوعية الجديدة. وبعدها كتبت المجموعة القصصية ـ "طعنات". ثم أنهيت رواية "اللاز" وعلى هامشها كتبت "رمّانة" وهي رواية قصيرة. ومجموعة قصصية قصيرة هي "شهداء يعودون هذا الأسبوع". ثمّ في 1973 كتبت رواية "الزلزال". وبعدها رواية "الحوات

والقصر" وبعدها بسنة رواية "عرس بغل" ثم رواية "العشق والموت في زمن الحراشي". بعد موت بومدين توقفت قليلاً أيضاً إستيعاباً لما حدث. ثم كتبت رواية "تجربة في العشق". وبعدها بسنتين أعتقد. كتبت رواية "الشمعة والدهاليز". كنت اعتقدت أنني أنهيت مع "تجربة في العشق" التأريخ للجزائر لكن الأحداث التي تلت ذلك كانت أجبرتني إلى العودة فكانت "الشمعة والدهاليز". لديّ كتابات كثيرة ومقالات لم أنشرها ولن أنشرها. باعتبار أني لا أنشر إلاّ الإبداع فقط.

الجاحظية

• إميل حبيبي لديكم حركة ثقافية بإسم "الجاحظية". لماذا هذا الإسم؟

ـ الطاهر وطّار: نعم. هذه جمعية أنشأتها مع المرحوم يوسف سبتي الذي كان أمينها العام والذي اغتيل على أيد لم نعرف هويتها. أنشأناها حالة وسطية بين المتشنجين الفرنسيين والمتشنجين المعرّبين من فيهم الإسلاميون. قلنا الجزائر مقبلة على حالة غياب العقل. على حالة "لا عقل". وعلينا نحن كعقلانيين. أن نظلّ يقظين. نظلّ صاحين. وبحثنا عن أسماء جزائرية لنسمّي بها جمعيتنا. ومع الأسف الشديد لم نجد في تاريخنا الحديث إسماً يرتفع إلى المستوى الإنساني الكامل ويخدم الأدب والعقل معاً. وكان لا بدّ لنا من مرجعية تؤكد هويتنا وامتدادنا في التاريخ. نحن في الجزائر مهما كان حضارياً. نحن منذ 15 قرناً ونحن نتفاعل في اللغة والعربية وفي تراثها. ثم سواء كنّا نصلي أو لا نصلي. نحن في مجتمع إسلامي. فرحنا إلى الجاحظ. وأسمينا جمعيتنا "الجاحظية". واستثقل جميع الناس هذا الإسم. المفرنسون ينطقونها "الجاهضية" ويظنوننا إرهابيين إسلاميين. في الأول انضمّ إلينا الكثير من المثقفين. اليمينيين واليساريين. خاصة اليساريين والمفرنسين. ثم فجأة وبسرعة هرب اليساريون والمفرنسون. لأننا تشبثنا بأن لا تكون الجمعية تابعة لأيّ حزب. وأن تكون جمعية فوق الأحزاب. وأن نخلّص الثقافة من الهيمنة السياسية. نلتقي بتسامح ونسمع بعضنا. نوفّر منبراً لبعضنا. ولا نسأل بعضنا من أي حزب. نمارس السياسة في الأحزاب. الناس تعوّدوا على تسييس كل شيء. سياسة الحياة. سياسة الموت. سياسة الشعر. سياسة الرواية. وصمدنا 6 سنوات. قُتل المرحوم يوسف سبتي ورثيناه بكلمات مدققة ومضبوطة جداً. راعينا فيها أن لا تستعملها السلطة كسلاح. كقميص عثمان وأصابع نائلة. ووصلنا الآن إلى إصدار 10 أعداد من مجلتنا التي أسميناها "التبيين" و5 أعداد ـ العدد الخامس في الطريق ـ من مجلة "القصيدة" وهي مجلة خاصة بالشعر المغاربي الحديث. وأنشأنا دار نشر لها قاعدة مادية تتمثل في مطبعة كاملة. ولنا قاعة للمحاضرات نعلم فيها الموسيقى أيضاً. ووحدة تصفيف في الكمبيوتر وننجز في السنة بين 30 إلى 40 محاضرة وأمسية شعرية. ولو أننا في السنة الأخيرة. سنة الموسم 1994 ـ 1995. وموسمنا يبدأ عادةً من شهر سبتمبر (الشهر التاسع) إلى آخر الشهر السادس (جوان). عانينا غياب الجمهور. الناس يخافون من التجمع في مكان واحد.

• إميل حبيبي: خوفاً مِن مَن؟

ـ الطاهر وطّار: خوفاً من الإنفجارات العرضية. يمكن أن تنفجر سيّارة، يمكن أن ينفجر أي شيء. لكن "الجاحظية" في مأمن بدون بحراسة. لم نُهدَّد من أي طرف حتى الآن. هناك محاولة من طرف السلطات لتدجيننا ولكننا كنّا صارمين وصامدين ما أدى بوزارة الثقافة إلى شطب إسم "الجاحظية" من قائمة الجمعيات المستفيدة من دعم الأمة ومن دعم الدولة. وأقول للمعرّبين إن "الجاحظية". مدينة كمدينة الجزائر، وهي مدينة عمالية تقريباً. مدينة ميناء أشبه ما تكون بباقي مدن الموانئ أقول لهم هذه غرناطة. هذه قلعتكم الأخيرة. وأقول للمفرنسين ولأصحاب العقل بأن هذا هو خندقكم الأخير. هذا هو خندقكم الأخير الذي بقي لكم في الجزائر. فإما أن تكونوا في "الجاحظية" أو في باريس في فرنسا. لأنه لا مجال لهم خارج هذا المنبر. هناك إشكاليات نعانيها. منها تعوّد الناس في البلدان التي عرفت الحزب الواحد. على مد اليد والتسوّل فقط. هذه مشكلة أعاني منها. كل الناس يريدون الأخذ ولا يعطون. هذه عادة سيئة نحاول كسرها ومع ذلك لـ "الجاحظية" مكانة طيبة في المجتمع الجزائري. ولها إمتداد عالمي. شاركنا في مسرحية تجريبية في مهرجان القاهرة التجريبي. ودفعنا ثمن التذاكر من جيوبنا. لأن وزارة الثقافة رفضت. وفرقتنا ذهبت على نفقتها. نفقة للممثلين ومدير الفرقة. وشاركنا في باريس. في السنة الماضية. في معرض الكتب والمجلات الذي نظمه "معهد العالم العربي". أيضاً الأخت عضو المكتب التي مثلتنا مع الشاعر المحترم هو الشاعر عمار النبّاش دفعا نفقات سفرهما من جيبهما. يعني تطوعاً.

• إميل حبيبي: من هي الأخت؟

ـ الطاهر وطّار: الأخت غنية سيد عثمان. وهي طالبة ماجستير وشاعرة وقاصة. تحسن اللغة العربية جيداً وتحسن اللغة الفرنسية وتتكلم البربرية. لأنها من أصل بربري ونشيطة وجميلة كذلك.

دور الإبداع

ـ الطاهر وطّار: وقضية فلسطين؟..

• إميل حبيبي: فيما بعد نتحدث عن قضية فلسطين. أستاذ. هذا الحديث عن "الجاحظية" يوصلني إلى سؤال: هل من تأثير للكلمة. هل من تأثير للمبدع؟ أو نحن كنّا وسنبقى هامشيين بالنسبة للسياسة؟

ـ الطاهر وطّار: هناك تأثير يبدأ من إقتراب المبدع من الناس ويخلق علاقة جديدة في الجزائر على الأقل. لأن الناس يتصوّرون عادة أن المبدع يعيش في برج عال قريباً من الضباط. وقريباً من شركات الخطوط الجوية. أنا مثلاً كسرت هذا. وصرت كلما دخلت محلاً أو مشيت في الشارع يقول الناس: عمّي الطاهر.. عمّي الطاهر..

حتى العجائز يقولون: عمّي الطاهر. أحياناً أدخل محل تاجر لأشتري شيئاً ما فيهديني حاجة من عنده والشيخ الشيخ. والناس يحسوّن بأن المبدع في هذا الظرف العسير منهم. جزء منهم. قريب منهم ويعاني ويتعرض للمصير نفسه. هذه مهمة. هذه مهمّة جداً. نؤثر في الأطفال الذين نعلمهم الموسيقى نعلمهم الرسم. نعلمهم الكمبيوتر. صارت لدينا معهم صداقات وغيّرنا الكثير من عاداتهم ومن سلوكاتهم. ولم نصل إلى الجمهور العريض. ما يزال الحديث مونولوج بين شعراء وبين روائيين وبين مثقفين وأعتقد بأن هذه هي أزمتنا في عالمنا النامي، وخاصة في عالمنا العربي. فنحن شريحة أو فئة مثل الزيت، لا تختلط بالماء إلاّ عند خضّها.

تقديراً للشعب الفلسطيني

• إميل حبيبي: وأخيراً.. كنت دائماً نصيراً عقلانياً للشعب العربي الفلسطيني في حقه بتقرير مصيره بنفسه وبحسب قدراته. فما رأيك في النهج الصعب والمسؤول الذي تنتهجه القيادة الفلسطينية بارتضائها العودة إلى بلادها من باب المسيرة السلمية الحالية، حتى ولو كان أضيق من ثقب الإبرة. وهو كذلك. فما رأيك؟

ـ الطاهر وطار: أنا عبّرت عن رأيي في تصريحات عديدة وفي جلسات. كنت تنبأت في روايتي "تجربة في العشق". وقد لامني على ذلك بعض الناس. تنبأت بأن أبا عمّار سيكون في يوم من الأيام ليس رئيساً وليس ملكاً وليس إمبراطوراً وليس أميراً. هذه روايتي "تجربة في العشق". الغريب أن ما حدث فيما بعد كما أنه صفحات من كتابي. قلت في الرواية: ستتحرر فلسطين بقدرة قادر، وسيطلب من الذين في الخارج أن يعودوا بدون سلاح. وقلت: كيف نعتبر أبا عمّار في حالة الاعتبار العادي؟ أنا أكبرت هذه الخطوة وأعتبرها شهادة جديدة. وهي عملية تواضع كبير من طرف زعيم محترم. أحب فيه الرمز الفلسطيني. أحب فيه حبه لفلسطين. هذا الرجل الذي تواضع إلى حد أن يصبح قائد عربة صغيرة في مسالك وعرة جداً. يجلس مع خصمه الأزلي، ساعات وساعات. والله أعلم بما يسمعه من كلام داخل الجلسات. ليقول لنفسه وللفلسطينيين: إن موقعي في غزة أفضل من موقعي في تونس أو في بيروت. وأن الإمكانيات التي كانت بعيدة 1000 كم أو يزيد عن الفلسطينيين صارت بين أيديهم. أكبرت فيه هذا الموقف، وأيضاً واقعيته وفهمه لطبيعة الأنظمة العربية ولمتغيرات جديدة في العالم. إقتناعه بأن الثنائية انتهت والقطبية انتهت. وأصبح العالم، لأول مرة في التاريخ، بقطبية واحدة، بقطب واحد هو الولايات المتحدة الأمريكية واقتنعت بأن هناك مادة جديدة أضيفت إلى مادة كيماوية أخرى، وحدث تفاعل جديد، سيؤدي إلى نتائج جديدة. هي، مهما كان الحال، أفضل مما كانت عليه سابقاً. حتى أني في الفترة الأخيرة قررت أن أكتب كلمة في صحيفة ما أحيي فيها هذا الرجل

• إميل حبيبي: نحن سنكون سعداء ونعتز لو استطعت أن توجه هذه الكلمة عبر مجلتنا الجديدة

"مشارف". مجلة لأول مرة يصدرها فلسطينيون من داخل إسرائيل وفلسطينيون من المناطق المعدّة للدولة الفلسطينية وكتّاب فلسطينيون عائدون. وهذا نعتبره..

ـ الطاهر وطّار: وهذا هو أحد التفاعلات الكيمياوية..

• إميل حبيبي: نعم.. صح.. نعم.. هو أحد التفاعلات الكيماوية الأخيرة. أستاذنا، عزيزنا وحبيبنا، هل ننتظر منك عملاً أدبياً في المستقبل المرئي؟ أم السياسة..؟

ـ الطاهر وطّار: كنت هذه السنة جمعت مادة لمجموعة قصصية. هناك حالات لا يمكن معالجتها إلا في كلمات قصيرة. وأنا عادةً لا أكتب رواية جديدة حتى تصدر الرواية التي ألّفتها وأرتاح منها. عندما تخرج إلى الناس أكون قد استرحت منها. وفكرت أيضاً أن أبرمج كتابة مذكرات عن تجربتي مديراً عاماً للإذاعة طوال 18 سنة لأعالج فيها جزء من المشكل الحالي.. والكتابة حالة صرع عندما تأتي، تأتي!

• إميل حبيبي: أهلاً وسهلاً.

ـ الطاهر وطّار: أهلاً أستاذنا. هذا شرف كبير لنا.

• إميل حبيبي: هذا شرف لنا..

ـ الطاهر وطّار: أرجو أن ترسل لنا نسخة من هذه المقابلة حين تُنشر في "مشارف"..

ـ إميل حبيبي: طبعاً.

(فرانكفورت ـ تشرين الأول/ أكتوبر/ 1995)



شيموس هيني: الخارج من السِّحر

سلمان مصالحة

في إيرلندا هذه الّتي استمرّ فيها الاقتتال لعقود طويلة، واختلط الله فيها بالعنف، بالدّم والألم مع الويسكي والشّتاء الصّاقع. ولد ييتس كبير شعراء الإنجليزيّة، وكوكبة أخرى من شعراء إيرلندا الّذين يقف على رأسهم في هذه الحقبة شيموس هيني الحائز على جائزة نوبل للآداب للعام 1995. شيموس هيني ينتمي إلى الطّائفة الكاثوليكيّة الّتي تشكّل أقليّة كبيرة في إيرلندا الشّماليّة. ولد هيني في 13 أبريل 1939، وهو الإبن البكر بين إخوته التّسعة في مزرعة والده الواقعة حوالي 50 كيلومترًا شمال غرب بلفاست.

بدأ كتابة الشّعر إبّان فترة دراسته الجامعيّة ونشر بعض محاولاته في تلك الفترة باسم مستعار. وفي العام 1963 عُيّن محاضرًا في الأدب الإنجليزي، وقد اشترك في تلك الأيّام في ورشة شعريّة أدارها فيليب هوبسباوم. في العام 1965 عيّن محاضرًا في الأدب الإنجليزي في كوينز كوليج في بلفاست. حازت كتاباته الشّعريّة على عدّة جوائز.

لقد وصفه النّاقد روبرت لويل على أنّه أهمّ شاعر إيرلندي بعد ييتس، وهو يُعدّ في هذا الأوان من أشهر الشّعراء الكاتبين باللّغة الإنجليزيّة.

كتاباته تعجّ بالموت، موت أصدقاء ومعارف كثيرين من جرّاء الحرب الطّائفيّة الّتي دارت رحاها في رحاب إيرلندا في العقود الأخيرة. غير أنّ أشعاره الذّاتيّة، وبخاصّة تلك الصّونيتات الّتي كتبها إثر وفاة والدته، والأشعار الّتي نظمها في أعقاب وفاة والده، تعدّ من أمّهات الشّعر الإنجليزي في الفترة المعاصرة.

لم يأبه هيني بالنّقّاد، وبخاصّة أولئك الّذين وصفوه بالشّيء ونقيضه. فقد وصفه البعض بالابتعاد عن الأحداث السّياسيّة في شعره، بينما كال آخرون اللّوم له لأنّه كثيرًا ما يتطرّق إلى هذه الأمور في قصائده. ويبدو أنّ الجانبين على حقّ، فلم يلجأ هيني في شعره إلى المباشرة والتّقريريّة حينما كتب عن هذه الأمور، كما أنّه لم يدع تلك الأمور تمرّ دون أن يضع عليها بصماته الشّعريّة.

لقد تحوّل هيني مع مرّ الأيّام إلى أحد أفذاذ الشّعر الإنجليزي المعاصر، كما أنّه عالج الكثير من القضايا

الّتي تهمّ الشّعر المكتوب بالإنجليزيّة. إنّ المكانة الّتي حظي بها هيني دفعت الأكاديميّة البريطانيّة إلى تبنّيه ومنحته كرسي الشّعر في جامعة أوكسفورد ليجلس عليها خلال سنين. لقد ذاع صيت هيني خارج الجزر البريطانيّة وحظي بشعبيّة كبيرة في أميركا الّتي نصّبته من طرفها على عرش الشّعر المكتوب بالإنجليزيّة.

يوظّف هيني في أشعاره الأساطير الإيرلنديّة القديمة من الحضارات الغاليّة، السّيلطيّة، رامزًا أحيانًا مصرّحًا في أحايين كثيرة عن أنّ العالم الخارجيّ ما هو إلاّ قائم بالقوّة فينا. وهو ليس منعزلاً بأيّ حال عن الحال الذّاتيّة للإنسان الفرد أينما كان.لقد وجد شيموس هيني في فضاء إيرلندا مادّة غنيّة لشعره.

منذ المجموعات الأولى يُشتمّ من شعره تلك الأجواء الطّبيعيّة الّتي لفّته. رائحة الأرض والفلاحة والإنسان مربوطة بالتّاريخ والأساطير وكلّ ذلك مع الإبقاء على العلاقة مع ما هو قائم الآن على جميع مركّباته.

تتّسم لغته الشّعريّة بالعفويّة والإغراق في الموسيقيّة اللّغويّة، إضافة إلى المضامين الإنسانيّة الشّاملة. اللّغة لدى هيني هي إحدى أبرز معالم شعره، حيث يتجلّى ذلك في امتلاكه لناصية اللّغة الإنجليزيّة من خلال تركيبات معقّدة ونحو كلاسيّ في فترة لاحقة تتحوّل قصائد هيني إلى الاقتضاب كما هي حال الأمثال الّتي تختزل التّجارب الإنسانيّة في سطور قليلة. ويستخدم التّشبيهات. وفي الكثير من الأحيان التّوريات والألبجوريا.

ما من شكّ في أنّ ما يقف في الكثير من الأحيان وراء منح جوائز نوبل هي أمور خارجة عن الجوهر الأدبي البحت. وعلى الرّغم من أنّ النّقاد يعتبرونه من أبرز شعراء الإنجليزيّة في العصر الحديث إلاّ أنّ رياح التّسويات السّياسيّة الّتي شهدتها إيرلندا في الآونة الأخيرة قد هبّت على قاعة هيئة الحكّام فتركت لديهم تأثيرًا على قرارهم بمنح الجائزة.

فيما يلي نماذج مترجمة من أعماله:

شيموس هيني

شجرة الأمنيات

خطرت على بالي كما شجرة الأمنيات
وشاهدتها تتسامى، بجذرها وفرعها، صوبَ السّماء،
تُجرجرُ أذيالها بكلّ ما انغرز
لضرورة بعد أخرى للشّفاء،
باللّباب والقشور، قطعة نقديّة، دبّوسٌ ومسمار
انسابت منها كما نجم مذنّب
جديد الصّكّ وذائبًا. رأيتُ رؤيا
رأسَ فرعٍ يتسامى عبر الغيوم الرّطبة

وجهاً متضرّعاً للسّماء في المكان
الّذي انتصبت فيه الشّجرة.

(ترجمة: سلمان مصالحة)

إشراقات VIII

تروي كتب التّاريخ، حينما كان رهبان كلونماكنويز
أجمعين في المصلّى خاشعين
تراءت فوقهم سفينة في الهواء
جرت معها في الخلف المرساة،
وعلقت في أخشاب المذبح. إذ ذاك
وبعد ثبات الزّورق دون حراك،
هبّ أحدُ الملاّحين، تشبّث بالأطراف،
ثمّ تدلّى بالحبل وراح يصارعُ حتّى فكاك
المرساة، ولكن سدًى ما رام.
"لن يقوى هذا الرّجلُ أن يحيا فينا، وسيغرق" قال
رئيس الدّير، "إلاّ إن قدّمنا إليه العون". فكان العون كذلك،
أبحرت السّفينة. وتسلّق الملاّح عائداً
خارجاً من ذاك السّحر، كما كان عرفه بأمّ العين.

(ترجمة: سلمان مصالحة)

أوراكل

أن تختبئ في الجذع الأجوف
في شجر الصّفصاف،
يبدو الأنصاتُ لديه معروفاً
حتّى كالعادة ينادوك باسمك
يتردّدُ إسمك كالوقواق
على طول الحقول،
تستطيع سماعهم
إفتح أقفال البوّابات
حالما يتقدّمون

وينادونك لتخرج:
فمٌ صغير وأذن
في صدعٍ خشبيّ:
حنجرةٌ وقصبة
للأماكن المُطحلَبة.

(ترجمة: سلمان مصالحة)

سَفْرة ليليّة

روائح الأشياء العاديّة
كانت جديدةً في السَّفْرَة اللّيليّة عبرَ فرنسا:
غابات وقشٌ ومطرٌ في الأجواء
عملَت نسيماً دافئاً في السيّارة المفتوحة
والشارات ابيضّت بلا شفقة
مونطريه، أبفيل، بوفيه
قد وُعِدت، وُعِدت، مرّت وارتحلت.
كلّ اسمٍ منَحَ ما يحملُه الاسم بذاته
يتلوه كومبايْن دَرَبَه في ساعات الليل أو ينزف
عن طرفَي الضوء حبوباً.
نارُ الغابة تتسامى فوق الأشجار وتخبو
تُغلق المقاهي الصّغيرة الواحد تلوَ الآخر أبوابها.
وأنا أفكّرُ فيك باستمرار
ألفَ ميل جنوباً أراحت إيطاليا
فخذها على فرنسا في الكرة الأرضيّة المعتمة.
الأشياء العاديّة لديك
بُعثت من جديد هناك.

(ترجمة: سلمان مصالحة)

النَّبْش

بين إصبعي وإبهامي

يربض القلم المقرفص، مستكيناً دافئاً
مثل مسدس.

وتحت نافذتي، يتعالى صرير صوت نائ:
حين تغوص المجرافة في أرض الحصباء،
ههنا الوالد ينبش، أتطلع صوبه

حتى يدنو كَفله الواهن من مراقد الزهور،
ويلتوي، مبتعداً مسافة عشرين سنة
منحنياً على إيقاع أتلام البطاطا
حيث ينبش (...)

كان جدّي يحزّ من العشب في نهار واحد
أكثر مما في وسع أحد سواه في مستنقع "تونر".
وذات يوم حملت له الحليب في زجاجة
ذات سدادة ورقية فضفاضة. شمخ بقامته
ليشرب الحليب، ثم خرّ إلى الثرى
يحزّ ويجزّ بعناية، وينفث نثار التراب
على كتفيه، غارقاً أكثر فأكثر
في البحث عن العشب الطيّب، نابشاً.

الرائحة الباردة لتربة البطاطا، والخائض المتلاطم
للخث[1] الندي، وللحواف اليابسة لملمس حادّ
خلل جذور حيةٌ استفاقت في يدي لأقتفي أثر الرجال.

بين إصبعي وإبهامي
يربض القلم المقرفص
وبالقلم سوف أنبش

(1964 ـ "موت متحرّي للطبيعة")

سَفَر

الثيران تسند رؤوسها

إلى ضياء شمس الظهيرة،
والبطيخ الأصفر يذرع التلال كالنحاس،

الذي يقرأ في المسافات القصية، يقرأ
ما وراء نفوسنا، وما في داخل أطفالنا النيام
ونثار النقع الراسب في عشب تفحته الشموس.

(1971 ـ "إشتاء نحو الخارج")

XXII

أين تقطن الروح؟ في داخلٍ أم في خارج
ما نتذكر من أشياء، ما نصنع من أشياء،
ما لا نصنع منها؟
من الذي وقد قبل الثاني، صرخة
النورس أم الروح

حين صرخت في المخيلة ساعة تحرٍ قارس؟
أين ستبيت الروح أخيراً؟ على غصن الأرز
في عش الزاغ، أعلى البرج الحجري

أم في تمثال نصفي من المرمر تأمر بأمره الرياض؟
هل لنا في الشكل التام مأوى؟
وكم في وسعنا أن نقطن الضوء العاصف بالرياح؟

ما نغمُ نغمة موقوفة أو سطر موقوف
لا تتاح الإغارة عليه بحثاً عن السكينة؟
أحيلوا هذه الأسئلة على روح و.ب.[2]

(1991 ـ "إبصار الأشياء")

هوامش:

(1) الخث: نسيج نباتي نصف متفحم يتكوّن من تحلل النباتات تحللاً جزئياً في الماء (المورد).
(2) الشاعر الإيرلندي و.ب. ييتس هو المقصود هنا.

قراءة في مجموعة "الرماد الصباحي" للشاعر محمد حسيب القاضي

فتحي مصطفى درويش *

محمد حسيب القاضي شاعر حداثي النزعة، وواحد من روّاد قصيدة النثر في الساحة الشعرية الفلسطينية. صدرت له حتى الآن سبع مجموعات شعرية، هي: "فصول الهجرة الأربعة" (بغداد ـ 1974)، "نشيد للبندقية والرجل" (بيروت ـ 1982)، "مريم تأتي" (القاهرة ـ 1982)، "أربعاء أيوب" (القاهرة ـ 1983)، "أقبية الليل" (عمان/ الأردن ـ 1984)، "إنه الصراخ وأنا قبيه" (بيروت ـ 1985)، "الرماد الصباحي" (1986)، وله تحت الطبع الآن مجموعة شعرية ومسرحية شعرية.

وقد حرص القاضي، منذ بداياته الأولى، على بناء تجربته الشعرية الخاصة بمنأى عن تجارب الآخرين، وإن كان استفاد من تجاربهم، وعمل على تطوير تجربته الخاصة وتطوير أدواته، فجاءت قصائده تشبهه هو ولا تشبه الآخرين.

ولعل مجموعة "الرماد الصباحي" هي أهم ما كتبه الشاعر حتى الآن، كون هذه المجموعة آخر مجموعاته الشعرية، وهي تعكس بالضرورة مدى التطور الذي وصل إليه القاضي في شعره، وفي سعيه الدؤوب لتطوير قصيدته، وتوسيع فضاء هذه القصيدة.

وما يميز هذه المجموعة، شفافية اللغة وبساطة التركيب اللغوي المسنود بقوة الإيحاء، مما يؤكد قدرة الشاعر على التخيّل والتخييل، وابتداع صور شعرية جديدة، تلفت إنتباه القارئ وتجعله يعيش بنفسه أجواء القصيدة، ويتلمس صدق مشاعر وأحاسيس الشاعر.

في قصيدة "ليليا"، نرى هذه الأيقونة الشعرية الجميلة:

في مدينة الكاف يهبط الغيم عادة حتى وردة "ل"
الغيم الجبلي الضائع على حدود قلبي
حيث لا حرس أو جمارك

يفتحون حقائبه
أو يطلبون جواز السفر

وفي قصيدة أخرى نرى هذه الصورة الشعرية:

بشقائق نعمانك الذهبية تدخل
ملتبساً في هنيهة
قد تكون الشتاء الخفي، أو الأجنحة
حيث ظلك يدلق نسيانه لسحابة
مَن هنا؟
ليس إلا الصراخ العصي يعلق فانوسه في الممر.

(قصيدة "الصراخ")

ميزة التضمين بين قوسين، هي إحدى ميزات هذه المجموعة، وقصائد القاضي بصورة عامة، حيث يأتي هذا التضمين عضوياً، أي في السياق العام للقصيدة، وإذا ما حُذف، فإن ذلك سيؤثر على البناء العام للقصيدة، كما نرى في قصيدة "إلتفاتات ما لا ترى":

هذا غيم ونباتٌ يعلو حتى يبلغ نافذة خديجة
النافذة المفتوحة في أعلى شارع
يدلك على ما سوف يرى!

وأحياناً يأتي هذا التضمين خارج السياق العام للقصيدة.

ينحو القاضي في بعض قصائده نحو التورية وتغريب المعاني إلا أن هذا التغريب يأتي محبباً، وبعيداً عن المغالاة واللاعقلانية التي يلجأ إليها بعض الشعراء لغايات مختلفة، ما يعطي للقصيدة نكهة جديدة تستحث القارئ وتجعل من شعره نموذجاً للشعر السهل الممتنع، وهو بذلك عمل بقول الجاحظ "أعذب الشعر أكذبه". مثال ذلك ما نراه في قصيدة "المكان":

"آن لي أن أكسر البرق على مرمرك
ثم ألملم الصدى باليدين من جبال زعترك
مصغياً إلى هبوطي دمعة دمعة
حتى ينابيعك قرب الصباح".

التكرار في بعض قصائد هذه المجموعة جاء لتوكيد المعنى، وإثراء موسيقى القصيدة، مثال ذلك ما نراه في قصيدة "ديسمبر":

في أواخر ديسمبر

دون أي رضى أو فتور
لأجل هذا العراء الذي يستر التوت
بعفوية أن أتنزل من جبل الكاف
اليتك لم تأكل التفاحة!

وفي مقطع آخر من القصيدة نفسها، يقول الشاعر:

الو أني نهيتك عن هذه الشجرة!

يتكرر الصراخ في هذه المجموعة الشعرية، وفي أكثر من مجموعة شعرية واحدة للشاعر، حتى أنه أفرد لهذا الصراخ مجموعة شعرية سابقة أسماها "إنه الصراخ وأنا فيه".

والصراخ هنا لا يقصد به الشاعر صراخ الضحية، وإنما هو صراخ الثائر المتمرد الرافض لواقعه.

محمد حسيب القاضي شاعر مكتو بحرارة تجربته الإنسانية والفنية، وهو قدم لنا في هذه المجموعة لوحات متناثرة تعبر عن الحلم حيناً وعن الواقع أحياناً أخرى، وإذا ما جمعنا هذه اللوحات ينتج لدينا الحزن والخوف والحب في صورة إمرأة جميلة في مصر أو تونس أو نيقوسيا.

هذه المتناقضات جميعها، باعتقادي، لا يستطيع أن يجمعها في مشهد واحد إلاّ شاعر مثل محمد حسيب القاضي.

(قطاع غزة)

(• أو سليمان عبد الله)

دائماً في أواخره
نتذكر أن الطيور تهاجر نحو الشمال البعيد
بلا أجنحة
بلا أجنحة.

* * *

قصائد هذه المجموعة جاءت محكومة بنفس شعري واحد تراوح بين الخوف من الموت والشعور القاتل بالغربة في المنفى، ويتجلى الخوف من الموت واضحاً في قصيدة "قصيدة":

"أول السطر نرجس
آخر السطر ماء وبينهما قاتل واقف بمسدس
شمعة لا تزال بها دمعة واحدة
لصباح بعيد على نافذة
في بلادي البعيدة
طلقة،
سوف أكمل هذي القصيدة".

إلا أن ما يخفف من وطأة الواقع هذا الحضور الهائل للمرأة، حيث تحتل المرأة محوراً هاماً من محاور هذه المجموعة.

يفهم الشاعر العلاقة مع المرأة بمستويين: المستوى الأول روحي والمستوى الثاني عضوي فيزيولوجي عبرت عنه بعض القصائد. مثل ذلك ما نراه في قصيدة "تهميش":

"لا أذكر الآن شيئاً سوى أنك إمرأة
وأنا رجل
بيننا الحلم تفاحة مشتهاة
وكنا نحاول إخفاء رغبتنا في ارتكاب الخطيئة
لكننا لم نكن قادرين.. باحت أصابعنا
وهبطنا إلى الأرض نحمل عرى غريبين يستتران
ببعضهما، ويطول الهبوط ولا نصل".

يستعير الشاعر قصة "آدم والتفاحة" من الميثولوجيا الدينية، أو الخطيئة الأولى كما تعبر عنها الديانة المسيحية:

ها قميصي أعلقه على غيمة متلكئة وأخيرة

عبد الرحيم محمود:

سيرة ذاتية

ولد الشاعر عبد الرحيم محمود في بلدة عنبتا التي تقع بين مدينتي طولكرم ونابلس، في عام 1913. كان والده محمود عبد الحليم شيخاً من خريجي الأزهر الشريف، وكان شاعراً توفي عام 1919، ولم يتجاوز عبد الرحيم السادسة من عمره، فتعهدته أمه بالرعاية ولم تبخل عليه بحنانها وعطفها.

إلتحق الشاعر بالمدرسة الإبتدائية في بلدة عنبتا، وبعدها واصل تعليمه في مدينة طولكرم حتى عام 1929، ثم إلتحق بمدرسة النجاح في مدينة نابلس حتى عام 1931، تتلمذ فيها على يد الشاعر إبراهيم طوقان، وعرض عليه شعره، وتوطّدت العلاقة بينهما فيما بعد.

وفي أثناء ذلك لم يكن بعيداً عن أحداث شعبه، فقد شهد الرفض الفلسطيني لوعد بلفور، وشارك في المظاهرات ضد الإحتلال البريطاني لفلسطين، وضد محاولات مصادرة الأرض الفلسطينية، وفي كل ذلك كان ينشد الأناشيد الوطنية، ويهتف بالشعارات الحماسية.

وبعد أن تخرج عبد الرحيم محمود من مدرسة النجاح إلتحق بمدرسة البوليس الفلسطيني في بيت لحم 1931 ــ 1932، وبعد تخرجه منها عُيِّن شرطياً في الناصرة، إلا أن عمله في سلك الشرطة لم يتناسب وحاجات نفسه الوطنية، بخاصة في ظل أوضاع مضطربة بين المتظاهرين من بني وطنه، والقوات البريطانية، فطرد من عمله في سلك الشرطة، لأنه عصي أمراً بإعتقال بعض الوطنيين من أبناء شعبه.

إلتحق بعد ذلك معلماً في مدرسة النجاح 1933، وترك بصمات واضحة في تلاميذه الذين تعلموا منه اللغة العربية، والتاريخ العربي.

ومع إشتداد الثورة ضد القوات البريطانية، رأى الشاعر أن الواجب يحتّم عليه أن يشارك الثوّار في حربهم ضد الإحتلال البريطاني، فترك العمل في مدرسة النجاح عام 1938، والتحق بالثوّار في جبل النار، بقيادة عبد الرحيم الحاج محمد.

وفي عام 1939 إلتحق عبد الرحيم محمود بالمدرسة العسكرية في بغداد، وتخرّج منها عام 1940 برتبة ملازم ثانٍ ثم عمل مدرساً في مدرسة العشّار في البصرة.

وفي عام 1941 عاد عبد الرحيم محمود إلى فلسطين بعد أن تدخلت القوات البريطانية في العراق واحتلت المدن الكبرى فيها، وعمل معلماً في النجاح، واستمر في عمله حتى نهاية عام 1947.

وفي عام 1948 إنضمّ إلى دورة في دمشق لتدريب جيش الإنقاذ ثم عاد إلى فلسطين مع رفاقه من جيش الإنقاذ، وعمل في طولكرم والناصرة التي إستشهد على مقربة منها في معركة الشجرة بتاريخ 1948/7/13، ودفن فيها علماً من أعلام فلسطين. عاش ثائراً على الظلم متحدياً الظالمين، ومات عزيز النفس، رافع الرأس شهيداً من شهداء فلسطين مع الأبرار والصالحين خالداً في عليّين.

قَبسٌ وضّاء

حنا أبو حنا

تعود الأجساد إلى التراب تمتزج فيه غذاء لسنبلة أو خضرةً في عشبة أو نُسغاً في غصن.. وتتعدد المشاركة في دورة الحياة. فهل في ذلك بعض عزاء.

أما الروح التي شعّت شمسها بالمروءة وتألقت ببطولة جيّاشة فإنها تخلد في وجدان الأجيال معلّماً وقبَساً ونجماً.

قال الشاعر: "والجود بالنفس أقصى غاية الجود". إنه قمة العطاء فداءً للوطن: أن تموت ليحيا الآخرون. فهل بعد هذا جود أو تضحية؟

كان أبو الطيّب ــ عبد الرحيم محمود ــ عقيدة متجسّدة يحكم الصدق مجراها ولا يفصل بين القول والفعل فيها أي فاصل.

في حياته القصيرة التي لم تزد على خمسة وثلاثين عاماً ترك عمله مرتين ليلحق بالكفاح المسلّح. في المرة الأولى ــ ترك التدريس بعد شهرين من بدء السنة الدراسية 1937/38 فانضوى مكافحاً في الثورة تحت قيادة عبد الرحيم الحاج محمد. وعند إنتكاس الثورة سنة 1939 توجّه إلى العراق حيث التحق بالمدرسة العسكرية فيها. عاد عبد الرحيم إلى فلسطين سنة 1941, فعمل معلماً في كلية النجاح بنابلس ولكنه سنة 1947 ترك التعليم ومضى إلى دمشق لينضم إلى دورة تدريبية لجيش الإنقاذ وعاد إلى البلاد مع ذلك الجيش ــ إلى طولكرم ثم إلى الناصرة..

حياة ترى انتماءها الوطني ومسؤوليتها حيال هذا الإنتماء قبل كل شيء. "نحن" قبل "أنا". بل: "أنا" فداء "نحن". ويكون الفارس شاعراً فإذا بالشعر فيثارة هذه الرؤيا يتقمّصه الهمّ الوطني الكفاحي ويفور فيه كالبركان.

* * *

كان أسم أبي الطيّب قد أخذ يلمع حينما عرفته. كان ذلك في الناصرة في العطلة الصيفية سنة 1946. كان يعلّم في كلية النجاح ويجيء في العطلة إلى الناصرة.. فله فيها نسب وأهل. كان يلبس القمباز

فيضفي عليه ذلك إيحاء بطول القامة. ويعتمر الكوفية والعقال. يجلس في "مقهى العين" أحياناً وأحياناً في "نادي النهضة". وقد تلتقيه أحياناً في المكتبة التي فتحها فؤاد نصّار في المدينة لتكون منطلقاً للدعوة اليسارية.

وهو رياضي قويّ البنية في مشيته ثقة ورسوخ.

وهو محاط دائماً بالأصدقاء. كان معجباً بشعر المتنبي وبروح المتنبي:

عش عـــزيزاً أو مت وأنت كـــريم   بين طعن القنا وخـــفق البنود

وكان يحفظ الكثير من ذلك الشعر.

كان كيّساً مرهف الحسّ. ولكنه لا يحتمل "العوج". يتصدّى للمنافق ويلور على الضعف.

وفي تلك السنة شهدته في القدس يلقي قصيدته:

حقي اللســـان وجـــفّت الأقـــلام

والحال حـــالٌ والكـــلام كـــلام

وقد أسر الجمهور بسخريته الثائرة وتهكمه اللاذع فهو يرسم صورة للضياع آنذاك:

وتخاصم القُـــوّاد بين مـــشرقٍ   ومغرّبٍ وتقطّعت أرحـــامُ

فإذا المنابر صـــاخبـــاتٌ حُنَّقٌ   يرغي بها التشويش والإبهامُ

وإذا الضـــلال له هناك ســـرادق   مضروبة عُـــبدت بهـــا الأصنامُ

فإذا برمْتَ فـــأنت عـــاصٍ آبق   وإذا نقـــدتَ فـــجـــاهل هدّامُ

والحرّ وابن الحـــرّ ليس مطيـــةً   يُعطى ويكبح أصـــغـــريه لجـــامُ

والناس إن ملك الشـــعـــائذ رأيهم   وشرت ضـــمـــائرَهم فـــهم أنعـــامُ

وعمائق التـــفكيـــر إن لم يحصـــنوا   أفكارهم من لـوثة ـ أقـــزامُ

وإذا أطعنا راعـــيـــاً ذا قـــســـوة   فيما يـــريـــد فـــنحـــن والأغـــنامُ

* * *

كان فضاء الشعر العربي في ذلك الحين يملأه أهل التيار الرومانسي ـ خاصة علي محمود طه الذي كانت دواوينه الجميلة الإخراج رائجة بين المثقفين والمتأدبين. وكان يترسم خطاه هنا فتى في مطلع العمر هو حسن البحيري إبن حيفا فنشر ديوانه "الأصائل والأسحار" بنفس مواصفات إخراج دواوين علي محمود طه. وقد حدثنا في إحدى الحلقات عن هذا الشاعر الذي كان محمد عبد الوهاب ينشد له "الجندول" و"كليوباتره"..

وقد أعجب أبو الطيّب بجمالية التعبير إلا أنه كان يريد للشعر أن لا يقيم في برج عاجيّ

وقد أشرت في مقدمة ديوان عبد الرحيم محمود الذي حققته إلى ملامح المنهج الرومانسي ـ إلى جانب المنهج الواقعي الكلاسيكي ـ في شعر عبد الرحيم محمود في قصائد مثل "جفّت على شفتيّ الأماني"، و"حنين إلى الوطن" و"حجر في كثبان رمل". إلا أنني وجدت أن رؤية شاعرنا الثائرة إجتماعياً ووطنياً تُعطي للمنطلقات الرومانسية أبعاداً جديدة رائعة.

فالشاعر يناجي حجراً أسند إليه رأسه في صحراء بين تدمر والعراق وكان طريداً. فإذا الحجر يجتنب الناس مبتعداً عن ديارهم يطلب "وحدة راهب" و"عزلة فيلسوف". وسرعان ما يتجه إلى الحجر برؤية أخرى ـ لعله انفلت من قصر ظالم لأنه يأبى أن تبنى عليه "صروح بهتان وزور". إلا أن الشاعر يبلغ القمة حينما يطبق رؤيته على الحجر: هل كان هذا الحجر يوماً وسيلة دافع بها المظلوم عن نفسه ضد كيد الظالم؟ أو لعله كان على الأقل عثرة تكبو عليها مطايا المعتدين. أو لعله كان حجراً ما يوضع على جانبي الطريق لهداية التائهين.. ليس إلا شاعر مكافح مؤمن بضرورة أن يتخذ كل إنسان موقعه في الكفاح ضد الظلم، بوسعه أن يعبق شعره بهذه الرؤية.

* * *

كم كنت أودّ لو كان معنا صديق عبد الرحيم محمود ذاك الذي رحل عنا قبل أقل من سنة، صليبا خميس ـ ليقدّم شهادته. ففي صبيحة 48/7/13، قبل أن يذهب عبد الرحيم إلى "الشجرة" ليشارك في المعركة هناك كان في المحكمة العسكرية في الناصرة يدافع عن أصدقائه أعضاء "عصبة التحرر الوطني" الذين اعتقلهم "جيش الإنقاذ" ـ وفيهم صليبا ـ بتهمة الخيانة.

كانت المحكمة برئاسة العقيد أحمد الشيخلي. إلا أن الشفاعة للإخوان المعتقلين قدمها قائدان من ذلك الجيش عرفا المعتقلين وصدق وطنيتهم عن كثب. أحدهما إسماعيل طهبوب، قائد فوج حطين، والثاني عبد الرحيم محمود الذي ربطته برجال "العصبة" صلات وثيقة. بفضل هذه الجهود أطلقت المحكمة سراح المعتقلين بالكفالة. ودّع عبد الرحيم أصدقاءه وقبل دعوة صليبا إلى الغداء.. ودُعي أصدقاء آخرون ليكونوا مع عبد الرحيم على تلك المائدة.

ولم يستطع عبد الرحيم أن يفي بذاك الوعد، ولكنه وفّى بوعدٍ آخر وحقق رؤياه التي رسمها في قصيدته الخالدة "الشهيد". عاد في ذلك اليوم وقد:

كسا دمُهُ الأرضَ بالأرجوانِ
وأثقلَ بالعطرِ ريحَ الصَّبا
وعفَّرَ منه بهيَّ الجبينِ
ولكنْ عُفاراً يزيدُ البَها
وبانَ على شفتيهِ ابتسامٌ
معانيهِ هُزءٌ بهذي الدُّنا

ونامَ لـيـحـلـمَ حُـلـمَ الخـلـود
ويهنأ فـيـه بـأحـلـى الـرؤى
لَعَمْرُكَ هـذا مَـمـاتُ الرِّجـال
ومَن رامَ مـوتاً شـريـفـاً فـذا.

كان ذلك يوماً متفرداً في تاريخ الناصرة. ارتعشت المدينة وقرى القضاء. فقد رافق عبد الرحيم شهيدان آخران من القضاء. الفاجعة أكبر من مساحات القلوب والجرح بالغ. ونهر الجنازة المتدفق عيون حائرة تبحث عن ينابيع الصّبر.

أقام جثمان الشاعر الشهيد في الناصرة في قبر لا يُعرَف به نصبٌ إلى أن تكلّلت همم الغيورين بسعي من "مركز إحياء التراث" في الطيبة بإقامة نصب لائق في الذكرى السنوية الأربعين لرحيله. وقد جرى الإحتفال بتلك الذكرى في مهرجان شعبي ومظاهرة كبيرة سارت إلى المقبرة وهي ترفع لواء الوفاء لذكرى العطاء المتجدّد في الشهادة الخالدة.

من علائم حياة الأمة وفاؤها للروّاد الذين عاشوا بنبض الهاجس الوطني. فأعطوا.. وسخا عطاؤهم حتى كان الجود بالنفس. فالتّف حول ذكراهم كل المهتدين ببوصلة الوطنية وإن اختلف الإجتهاد. ولذلك أتقدم بالشكر لكل اولئك الذين فكّروا بالإحتفال بهذه الذكرى ثم حققوا. فإن في ذلك ترسيخاً لتواصل الأجيال ونفضاً للغبار عن كنوز التراث وتجديداً للعهد لمواصلة حمل الراية وصون القبس في المشعل وضاءً جليّاً.

(حيفا)

الفروسية في شعر عبد الرحيم محمود

د. ياسر أبو عليان(*)

مقدمة

لست أخال مثقفاً عادياً في فلسطين لا يعرف مطلع قصيدة عبد الرحيم محمود "سأحمل روحي على راحتي". وإذا تسنّى لمثقف عربي خارج فلسطين سماعها فإنه سيجد نفسه مندفعاً ليحفظها عن ظهر قلب. لأن صدقها، وإيحاءاتها وعفويتها، تنفذ مباشرة إلى الوجدان، وهي تمثل تلخيصاً مكثفاً لحياة فارسنا واستشهاده.

إنه من الشعراء العرب القلائل الذين أعادوا للكلمة العربية معناها المقترن بالفعل الكفيل بتغيير وجه الوطن، الذي ابتعدت فيه المسافة بين القول والفعل، ولذلك حق لشاعرنا أن ينعته الناقد المرموق جبرا إبراهيم جبرا، بالفارس الأول والأكبر في الشعر العربي الحديث. ولم يتعد تناول النقّاد الفروسية عنده ـ على أهميتها ـ أكثر من مقالين ـ فيما أعلم ـ فعزمت على أن أتتبع هذه الظاهرة عنده، وأن أتلمس مقدار تأثره فيها بمفهوم الفروسية العربية قبله، وأصالته وتجديده في هذا المجال. فقد امتشق سلاح الكلمة وعاش لها، ومات فيها، في استجابة لا تكاد تجد لها نظيراً في حاضر الأمة بين الأدباء المعاصرين.

وللفروسية في تالد شعرنا وطريفه، أمثلة حيّة.فمن الأدباء الفرسان طرفة، وعنترة، وعمرو بن كلثوم، والشعراء الصعاليك، وعبد الله بن الصمة، وعبد يغوث الحارثي، ومالك بن الريب التميمي، وقطريّ بن الفجاءة، وأبو فراس الحمداني، وأبو الطيب المتنبي، ومحمود سامي البارودي وعبد الرحيم محمود، وغسان كنفاني، وماجد أبو شرار وغيرهم. ومع أن الفروسية الجاهلية درست دراسة جامعية، قام بها الدكتور نوري حمادي القيسي، لكن ظاهرة امتداد الفروسية إلى العصر الحديث، ما زالت في حاجة إلى دراسة.

ويطمح هذا البحث إلى سدّ هذا الجانب عند واحد من هؤلاء الشعراء الفرسان الذين التصقوا بهموم الشعب، واستشهد راضياً في خضم كفاحه لأجلها. إنها روح الفروسية العربية المأثورة التي قد تبدو حيناً في شاعر موهوب، أو في أدب فذ، يرينا الصورة الأخرى الإيجابية لعالم عربي، كثيراً ما ابتذلت فيه الكلمة، ودار بعض مثقفيه في فلك السلطان، وجندت أقلامهم طوع بنانه، وإن تناكر ذلك مع ما يصبو إليه الشعب

أو ما تريده الأمة. لكن شاعرنا الفارس، أعاد لها القوة المتدثّرة بالحق في عالم يعج بالظلم، وتنتهك فيه حقوق شعوب، منها شعبنا العربي الفلسطيني، ولذلك كان الإلتزام أنسب منهج لدراسة شعره. وقد تتبع البحث في التمهيد ظاهرة الفروسية، وأصالتها عند العرب، وتأثيراتها الواسعة في أوروبا، وإستمرارها في العصر الحديث، ثم تتبع ملامح الفروسية في حياته وفي شعره.

وقد بدت الكلمة العربية مكبلة، تشيد بالحاكم على أية حال كان، فتلبس الهر جلد النمر، وتتشدق بروح الجماعة، وكثيراً ما تستسلم، فأعاد لها شاعرنا الثورة على الواقع، والقوة والحيوية. وما أحوج شباب الأمة إلى هذا الزاد المعنوي الذي يطابق فيه القول والفعل، لتتحقق القوة الخيرة المبتغاة، ولتنتفي الصورة السلبية لواقع عالمنا العربي، وتأخذ أمتنا مكانتها الجديرة بها بين الأمم.

تمهيد: الفروسية بين العرب والأوروبيين

يدور معنى الفروسية في كتب اللغة والمعاجم حول ثلاثة معان: أحدها الحذق بأمر الخيل وركوبها، والثاني القتل ودق العنق، والثالث التفرس والتثبيت في النظر. فالفراسة والفروسة والفروسية التي هي الحذق بأمر الخيل وركوبها والثبات عليها، والتعرُّف على أحوالها، هي المعنى الحسيّ الأول للمعاني المتفرعة. وأن الفَرْسَ ودقّ العنق، والقتل، هو معنى مجازي تال للمعنى الأول. أما الفراسة بالكسر، والتي تعني التثبُّت والتفرُّس والتأمل في الأشياء لإدراك بواطنها فهو معنى ذهنيّ تال أيضاً للمعنى الأول.

أما إستعمال مادة فروسية في الأدب الجاهلي الذي هو أساس كل أدب عربي بعده، فهي تمثل جانبين من جوانب الحياة الجاهلية، جانب الحرب، وجانب المثل العليا، وهي في كلتا الحالتين بناء واحد وروح واحدة، لأن شخصية الفارس تملي عليه أن يكون إنساناً سامياً في مُثله إلى جانب بطولته[1].

ونشأت الفروسية نتيجة عوامل إجتماعية وأخلاقية وحربية معينة، وتطورت وفق أساليب حيوية، وقد ساعدت على تطورها فطرة عربية سليمة وُجدت في المُثل السامية قيمتها الحقيقية، وهدفها الذي تسعى إليه، ولم يكن مظهر الفروسية إلا حصيلة الطبيعة الصحراوية الواسعة، التي أكسبت العربي القوة والصبر، والشجاعة والكرم والمروءة، وكل المثل التي يحاولها الفرد في حياته[2].

وأصبح للفروسية تقاليد مرعيّة، مما جعل معاني الفروسية ومُثُلها متلازمة، لا تذكر منها واحدة إلا أردفت ببقيتها. فالفارس كريم جواد وقت الأزمة، يمنع جاره، ويأخذ للحرب عدتها، والفارس يسعى لكسب الحرب، ويكتفي بنفوس أعدائه في ميدان الطّعان، ويترفع عن أخذ الأسلاب والغنائم، والفارس لا يقبل الحياة مازجها الهوان مهما تكن المغريات، وقد اتصف قسم من الشعراء الفرسان، بعدم الإندفاع وراء الخيال في المبالغة لما يصيب أعداءهم في المعركة، وإنما كانوا معتدلين منصفين، يذكرون ما وقع لقومهم فيها دون تحيز ويعترفون لخصومهم بالبأس والنجدة والمروءة، فلا يذمونهم ولا يجردونهم من صفات الفروسية الحقة، ومن هنا نشأت المنصفات[3]، فالعربي لا يطيق أن يرى نفسه متمكناً من جبان! أو مقاتلاً رجلاً ليس نداً له في البأس.

وقد كان الحب المقرون بالفروسية والعفاف المثل الأعلى في الحياة الجاهلية، لما فيه من حرص على الأعراض، ومحافظة على القيم النبيلة، وسعي إلى إعلاء شأن المرأة[4]، ومن موضوعات شعر الفروسية،

الفخر والحماسة، وهو باب واسع من أبواب الشعر العربي، لتعبيره عن ميلهم الطبيعي إلى الأنفة والعزة، وهو يتخذ معانيه من جانب المفتخر نفسه، أو قومه، بخلاف الهجاء، فإنه يصدر عن نفس ساخطة أو ويتّخذ مادته من جانب المهجو أو قومه، فهما فنان متقابلان[5]. وفي الهجاء يجرد الخصوم من صفات البطولة، وما يتصل بها من مُثل وقيم، فالمهجوون قوم لا يدافعون عن الحمى، ولا يلبون دعوة من يناديهم، وهم ليسوا أهل حرب، يحجمون عن القتال، ولا يثبتون في المعركة، بل يقبعون في بيوتهم مع النساء والعجزة والأطفال، ولا يخوضون الحرب، ويفرون من المعركة[6]. والرثاء من موضوعات شعر الفروسية، وأروع الرثاء ما ندب به الأبطال في حومات القتال[7]. ولعل من أطرف موضوعات الرثاء في الشعر العربي رثاء الشاعر الفارس نفسه قبل مماته، وهنا نمثل قصيدة مالك بن الريب التميمي في قصيدته الذائعة ومطلعها:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا[8]

وقد صوّر فيها إستشهاده بعيداً عن أرض الوطن في أثناء الفتوحات الإسلامية، وقد تذكر أحبابه ووطنه، وصوّر مصرعه الآتي وما يعتلج في ذهنه في هذا المقام، وقد رثى فارسنا الشاعر عبد الرحيم نفسه قبل مماته، وصوّر مصرعه قبل أن يتحقق، فلله در هؤلاء الشعراء الفرسان جميعاً!

وقد أكرم رسول الإسلام أحد الشعراء الفرسان، وهو حاتم الطائي[9]. وقد روي أن النبي (صلى الله عليه وسلّم) لما أنشد قول عنترة:

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

قال: "ما وصف لي إعرابي قط، فأحببت أن أراه إلا عنترة".

ومن الشعراء الفرسان من أقام متغنياً بالخمر حتى بعد أن حرمها القرآن كأبي محجن الثقفي[10]. وقد حُرّق شوقاً للقتال في القادسية، وكان منعه سجنه من الإشتراك في القتال، وعندما سنحت الفرصة أبلى في القتال على البلقاء فرس سعد بن أبي وقاص، وعاد لقيده كما عاهد زوج سعد، وأقلع عن الخمر بعد ذلك.

ويكتسب شعر الفخر أهميته الكبيرة من تسجيله الصفات الفروسية السمحة الكريمة التي ظهرت شواهدها في أوروبا بعد ذلك بقرون عديدة، وحرص الفرسان الأوروبيون على التحلي بها بعد أن تلقنوها من الفرسان العرب، وقد ثبتت هذه الصفات بتفاصيلها في سجل الشعر العربي القديم[11].

وقد أبرزت قصة عنترة أصول الفروسية العربية في أبهى صورها، وبعد شيوع قصة عنترة بعدة قرون ظهرت في عالم الأدب الأوروبي ملحمة تشابهها كل المشابهة هي "أغنية رولان" التي يعدها مؤرخو الأدب العربي سجلاً لصفات الفروسية الأوروبية في العهد الوسيط[12].

وبذا خلدت القيم الإنسانية النبيلة في شخصية الفارس العربي منذ الجاهلية. وقد راح الدكتور يوسف خليف يرقب بحث أحد طلابه وهو يقتحم مفهوم الفروسية، مشفقاً من أن يشوبه شيء من الإضطراب والغموض من تداخل مفاهيم الفروسية في العصور المتأخرة في بيئات غير عربية[13]. ولعله يقصد بذلك فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وسائر الأقطار الأوروبية. فقد بدت الفروسية بطابعها الغربيّ مزيجاً من المثل

المسيحية والحربية. وأهم فضائلها: التقوى والشجاعة، والشرف، واتباع ناموس الله، والولاء الروحي للسيد أو الحاكم. والتعلق بحبيبة تعلقاً عذرياً. فقد كان الحب بمعناه الفروسيّ أفلاطونياً في الأغلب. وكانت القاعدة أن تكون المحبوبة عذراء، أو زوجة شخص آخر. وكانت عبادة مريم العذراء المتصلة إتصالاً وثيقاً بالحب الفروسي أسمى تعبير عن تمجيد المرأة(14).

على أن الطابع الفروسيّ الأوروبي نهل من منابع الفروسية العربية على أثر إتصال العرب بالشرق في الحروب الصليبية والأندلس وصقلية. وبدا التأثير العربي جلياً في قصص الفروسة والحب في العصور الوسطى وفي شطر من عصر النهضة. فالحب عند أفلاطون له معنى أوسع وأشمل. لا يقتصر على حب المرأة وحدها. ولذلك لم يكن لفلسفته صدى مباشر في القصص. حتى عرفه العرب ففلسفوا به عاطفة الحب في شعرهم وقصصهم الصوفية. على أن عاطفة الحب لديهم كانت منذ نشأتها وليدة خلق الفروسية العربية ثم تأثرت تأثراً عميقاً بالدين الإسلامي. قبل فلسفتها بتأثير أفلاطون[15]. وهذا الإدراك للحب – على نحو فريد في الآداب الأوروبية – إنما ظهر بتأثير حب الفروسة العربي. بعد أن أشرب أهله روح الإسلام. ومن الثابت أن هذا النوع الجديد من الحب قد سبق رقي المرأة الأوروبية من الناحية الإجتماعية. وجاوز العادات والتقاليد السائدة العامة التي لم تكن المرأة قد وصلت فيها إلى تلك المكانة التي يُشاد بها في الشعر والقصة. ويخضع الفارس لها. ويضحي في سبيل حبها ويبكي. في يسر حين يهدده الخطر في حبه. ويعد ضعفه أمامها نبلاً وسمواً لا إستكانة فيه ولا ضرر بسببه. والحب طاهر بل هو على رأس الفضائل فهو الذي يعلم الحب الكرم. ويبعث على التمسك بالخلق الكريم[16].

وأصبحت للمرأة مكانة رفيعة من نفس الفارس. بل أصبحت عنده أغلى من حياته. ما دام يبذل حياته في سبيل الدفاع عنها. وعرفت المرأة عندئذ قدرها عنده. فتمنّعت ودلّت وعفت. فألهب ذلك أشواقه. وبعث في قلبه لأول مرة في تاريخ الإنسانية. مشاعر جديدة غير الرغبة الجسدية. مشاعر الهيام بالحبيبة. ممزوجاً بالتقدير والإجلال. ويميز أشعار الفرسان (العرب) عن غيرهم من الأوروبيين أصحاب الملاحم الشعرية. إنهم كانوا يعبرون بالشعر عن تجارب ذاتية. على خلاف غيرهم من شعراء الأمم الأخرى الذين كانوا يستمدون موضوعات قصصهم الملحمية من أخبار ترامت إليهم عبر القرون بعد أن موهتها إضافات المبالغات والأوهام[17].

وكانت العقبة التي تقف في سبيل إعتراف الباحثين الأوروبيين بهذا التأثير العربي. هو عقيدتهم الخاطئة في أن العاطفة العربية لم تحترم المرأة. فلم تكن لها فيها مكانة كريمة. وقد رد عليهم كثير من المستشرقين المدققين. ووافقهم آخرون من الباحثين المنصفين[18].

أما دور سلاح الفرسان في الحرب الحديثة فقد تضاءل إلى أدنى درجة. وآخر أثر يمكن ملاحظته لظاهرة الفروسية ربما كانت للمماليك الذين حاربوا (نابليون بونابرت). ولعله لم يكن لفرسانهم نظير في العالم أجمع في ذلك الحين. فقد كانوا يهجمون بإندفاع خالٍ من المبالاة. ويقاتلون بضراوة كانت مضرب الأمثال في الشرق كله. وقد قال أحد الذين راقبوا المماليك في حروبهم أنهم "ينطلقون كالبرق الخاطف. وينقضون كالصواعق"[19]. ومع هذه الشجاعة الفائقة كانوا ـ في الوقت نفسه ـ متخلفين عن العصر بصورة غير معقولة. وقد قضى سوء طالعهم أن يكون لقاؤهم الأول مع الغرب ضد جيش تحت قيادة أعظم قائد

عسكري في زمنه كله. فبدا واضحاً تفوق الفرنسيين على المماليك في سائر فنون القتال ومعدات الحرب، والتدريب والتنظيم، تفوقاً لا حد له[20]. وقد اشترك في الهجوم الذي أصدره "مراد بك" ستة آلاف خيّال على الأقل. وقد يكون من الصواب أن هذا الهجوم كان آخر هجوم كبير للخيالة على طريقة القرون الوسطى[21].

ولا يتبادر إلى الذهن، أنه بأفول نجم سلاح الفرسان في المعارك الحديثة، تكون تقاليد الفروسية من الناحية الأدبية قد انقضت، وعفت معالمها في الشعر العربي، وذلك لحضور التراث وسطوته، وأثره الواسع في رسم صورة الشعر العربي الحديث. وقد رأينا تأثير الفروسية العربية في الأدب الأوروبي. فلا عجب، إذن، أن يستمر هذا التأثير في أدبنا القومي. وقد وضح هذا التأثر جلياً في البارودي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي. كما رأينا أمثلة من أمم مختلفة أسهم فيها الأدباء في معارك بلادهم بالسلاح والكلمة. وهنا يتبادر إلى الذهن بول إيلوار، وناظم حكمت، وبابلو نيرودا، وسلفادور ألييندي. من الأجانب، والأمير عبد القادر الجزائري ومحمود سامي البارودي وعبد الرحيم محمود وغسان كنفاني وماجد أبو شرار من العرب والفلسطينيين. ومع سطوة التأثير التراثي بدت روح العصر الحديث في فروسيتهم.

وسيتناول البحث بالدرس مظاهر الفروسية في حياة شاعرنا عبد الرحيم محمود، وفي شعره. عندما استجاب لدواعي معركة شعبه مع الإنجليز والصهاينة، وامتشق السلاح والقلم، وانتظم في الكفاح ضد المغتصبين. وفخر بأفعاله المطابقة لأقواله، وهجا المتخاذلين، وندب القادة الذين ضحوا بأرواحهم، وتغنّى بعاطفة الحب الصادق والخمر. ويرصد البحث حظ شاعرنا من تلك الفروسية العربية الأصيلة، وإضافاته في هذا الميدان.

مظاهر الفروسية

(أ) في حياته:

عركت الحياة شاعرنا منذ صغره، وكان عليه أن يواجه صعوبة الحياة بعد وفاة والده الشيخ محمود عبد الحليم سنة 1919 وعمره ست سنوات. وكان عليه أن يجد طريقه بين أربعة عشر ولداً وبنتاً خلفهم أبوه. وكان ترتيبه بينهم الحادي عشر. وإذا نظرنا إلى الحياة العامة حوله رأينا شبوبه في المدرسة الإبتدائية والثانوية بعد أن إبتليت بلاده بالإحتلال الإنجليزي الذي يعد العدة ويضع البلاد في جوع يترعرع فيه كيان صهيوني، يحاول أن يحل محل الكيان الفلسطيني، وردات فعل أهل البلاد، وقيامهم بالمظاهرات، والثورات[22].

وقد تأثّر مع الجموع بما أنشده إبراهيم طوقان في حفلة مدرسة النجاح سنة 1929، عندما حضر إلقاء "الثلاثاء الحمراء" الذي ينبض بروح الشعب الثائر على مخططات الأعداء. وبعد تخرجه في "النجاح"، إلتحق بمدرسة "البوليس الفلسطيني" في بيت لحم في السنة الدراسية 31 ـ 1932. وهذا يدلّ على ميل خاص إلى الفروسية. وحين تخرج عُيِّن شرطياً في الناصرة، وسرعان ما تبين له التناقض بين هذه المهنة، وبين القيم الوطنية، التي ينطوي عليها صدره. فالبلاد تموج بإنتفاضة جديدة سنة 1933 تنطلق من يافا إلى القدس وحيفا ونابلس وعكا[23]. ولذلك عمل شرطياً لمدة ثلاثة أشهر فقط، طرد بعدها من سلك البوليس

لأنه عصى أمراً بإعتقال بعض الوطنيين(24). وعندما إنضم إلى الهيئة التدريسية في مدرسة النجاح سنة 1933، دأب على أن يقتطع من حصص اللغة العربية درسين في الأسبوع، للتاريخ العربي، ففي التاريخ يرى حياة الأمة في ضعفها وقوتها وأسباب ذلك كله، كما يروي السيد بسام الشكعة أحد تلامذته.

وعندما استشهد الشيخ القسام وعدد من رفاقه في 1935/11/19، واحتفل بتشييعهم في حيفا إحتفالاً تظاهرياً كبيراً في مسيرة 10 كم من حيفا إلى المقبرة في بلد الشيخ، شارك عبد الرحيم في هذا الموكب. كما أن نضال الشعب في ثورة 1936، إستثار نخوته، وأثار شاعريته، فكتب قصيدته الشهيرة "شعب فلسطين" التي نشرها في مجلة "الرسالة" المصرية في 1936/8/31، ثم إستجاب لنداء الثورة، وترك التعليم بعد حوالي شهرين من بدء السنة الدراسية 38/37، والتحق بالثوار في منطقة جبل النار، تحت قيادة عبد الرحيم الحاج محمد (أبو كمال)، من قرية ذنابة قضاء طولكرم، ومن وحي المشاركة الفعلية في الثورة كانت رائعته "الشهيد" التي جسدت تجربته المصيرية بهذين البيتين اللذين أصبحا عنواناً لعبد الرحيم وحياته(25).

وعندما استشهد قائده "أبو كمال" عبد الرحيم الحاج محمد في معركة صانور في 26 آذار 1939، رثاه عبد الرحيم بقصيدة أرانا فيها فجيعة شعبه باستشهاده. ثم إلتحق بالمدرسة العسكرية في بغداد، وتخرج منها برتبة ملازم ثانٍ، وفي 1 نيسان عام 1941، شارك عبد الرحيم وزملاؤه في حركة إنقلاب رشيد عالي الكيلاني، ضد نوري السعيد وعبد الإله اللذين هربا إلى الأردن، وبعد فشل الإنقلاب عاد إلى فلسطين بعد أن أصدرت بريطانيا عفواً عن الذين شاركوا في ثورة 1936، ودرّس في "كلية النجاح" من 1941 حتى 1947(26).

وفي عام النكبة الأولى سنة 48، ذهب إلى دمشق لينضم إلى دورة تدريبية لجيش الإنقاذ، وعاد إلى فلسطين، وتوجّه إلى الشجرة (قرب طرعان) حيث كانت تدور المعركة، واستشهد ودفن في الناصرة التي أحبته وأحبها(27).

وبالنظر إلى مراحل حياته المتعاقبة يتبيّن لنا أن الشاعر كان مهيأً بفطرته للفروسة، ساعدته على ذلك ظروف نشأته ومنها يتمه المبكر والجو الدراسي الذي عاشه في مدرسة النجاح في ظلّ أساتذة ورفقة تتجاوب مع ما يمر بالوطن من حوادث، واختياره مهنة الشرطي، وعدوله عن ذلك، وإلتحاقه بدورات تدريبية في دمشق ومشاركته في الثورة في منطقته، وفي ثورة الكيلاني، وفي معارك بلاده، إلى إستشهاده.

ومن اختياره كنية "أبي الطيب" التي تكنّى بها، يمكن أن نلحظ تعلقه بالفروسية العربية الحقة التي إشتهر بها، فأبو الطيب المتنبي شاعر الفروسية العربية المعروف، ومصوّر جلاد العرب مع الروم في السيفيات، والمعلي من شأن العرب في وقت كان عزهم يتطامن، وقوتهم تحد منها قوى أخرى من الأعاجم، ولذلك مَجَّد القوة المادية والمعنوية، وصورها أروع ما يكون التصوير، وقد قبس شاعرنا روح الفروسة العربية ومثلها، وطبقها في مواجهة أعداء شعبه. يقول إبن أخيه طارق عبد الكريم: "حدثني زملاء عبد الرحيم في معارك رأس العين، أنهم كانوا يرون أبا الطيب مندفعاً دون زحف أو مراوغة أو إنتظار، وقالوا: طالما حذرناه، وكان يرد علينا بابتسامة واثقة هازئة" (28).

وقد لحظ بعض النقّاد أن نغمة الجرأة الطاغية على شعر عبد الرحيم محمود، هي نفسها نغمة

الفروسية العربية القديمة. وككل فارس يجمع بين الحرب والشعر في سبيل الوطن والمثل العليا، كان عبد الرحيم يتصف، أيضاً، برقة في شخصه، ودماثة في خلقه، وحس مفرط للجمال(29).

وهي كلها صفات تضعه في المقدمة بين الشعراء الفرسان من العرب في العصر الحديث.

ب) في شعره:

اعتد عبد الرحيم بالقوة في أشعاره، وهي قوة إيجابية لأنها تسعى لإحقاق الحق، ودحر الظلم والباطل. وقد فهم معادلة الصراع بين الطامعين في الوطن وأهله، وسخر ممن يجبن عن مصاولة الأعداء، واستند في ذلك إلى ماض حافل بالفروسية الحقة التي أظهرت بطولات عربية إسلامية فذة. كما رثى الشاعر نفسه وصوّر مصرعه قبل إستشهاده. ورثى قائده الذي سقط في الميدان. واكتملت صورة الفارس عنده بالإقبال على الحياة وما فيها من مباهج المرأة والخمر.

وفلسف فارسنا الشاعر الحياة والموت، وفضّل الموت على الحياة في ذل. ورأى أن الحق لا بد أن يقترن بالقوة التي تحميه، وأن الحرية قيمة عليا تستحق التضحية:

لا يصون الحد إلا حدةٌ ... ويذيب القيد إلا نار ثورة

ومذاق الموت أحلى في الوغى ... من حياة ضنكة في القيد مرة

ونفوس الخلق أعلاها التي ... إن تعش عاشت، وماتت وهي حرة

لا تقولوا ما للناس قدرة ... لم يزل في الدهر مجراها وخبرة

ليس يحمي الحق إلا فتكة ... ويعيد الحق فينا غير قسرة(30)

ويفجّر الشاعر طاقات القوة الكامنة في الإنسان ما دام حياً، وهي قوة إيجابية تحمي الحق وتعيده إذا ما سُلب.

ويرى الشاعر في بذل الدم قوة جبارة، تعفي على الظلم والظالم:

الدما تجرف جرفاً ... صاحبَ الظلم وظلمه(31)

ولا يطيق فارسنا حلك الظلم، ويتأتى له تبديده بالحراب اللامعة كما أن السيوف القواطع تحل الأغلال.

من دجا بالظلم ليله ... فلْيُبِرْهُ بالحراب

من شكا قيداً فحله ... عند أطراف العضاب(32)

وقد تبنّى الشاعر رسالة مقاومة الظلم، وشغل حياته بهذا المطلب العسير:

جعلتُ نضالي الظلمَ همّاً وديدناً ... لأني به حُلّت لديّ المعاضلُ

فواعجباً إن نلتُ غاية مطلبي ... غداً فيم ألقاني أعود أناضل(33)

ويحوي البيت الثاني فكرة طريفة، يتصور معها أنه يمكنه القضاء على الظلم قضاءً مبرماً، لكن ما الرسالة النضالية التي سيحملها لتستقيم له الحياة؟ فهو لا يستسيغ الحياة بغير ملاحقة الظالمين! والفكرة مع طرافتها لا تتحقق في الواقع المعاش، الذي يدور بين ثنائيات لا نهائية من الأضداد، العدل والظلم إحداها، ومع ذلك فهذا التساؤل مثير عميق.

ويمتاز فارسنا بحساسية مفرطة تجعله يستجيب للمؤثرات المحيطة به، ويعجب من آخرين لا تؤثر فيهم مشاهدة الحياة المؤلمة:

يرونَ فلا تهيجُ لهم دماءٌ   مَشاهد ناكئاتٍ بي ثُغوري (34)

ويستشعر فارسنا الغربة عن الناس بهذه الرقة المفرطة، التي تجعله يبكي من رؤية مصائب الآخرين، في حين يعاني هو نفسه من ظلم الظالمين:

إني من الناس ولكنني   في رقتي عنهم غريب
أبكي على الناس من رقة   وخنجر الظالمِ مني شريب (35)

ويضفي البكاءُ لمحة إنسانية على الفارس، وقد أكد شعوره في مجتمعه في موضع آخر، يقول:

إني غريب بينهم   كأني من روايتهم نشاز (36)

وقد وردت صورة قريبة لهذه الغربة عند أبي الطيب المتنبي، عندما رأى نفسه غريباً في مجتمعه غربة صالح في ثمود.

ويقرن شاعرنا القول بالفعل، فإذا اجتمعا، شقت الطريق إلى الهدف المنشود، وكثيراً ما كان القول بلا فعل، سبباً في ما تعانيه الشعوب العربية من تخلّف وضعف، لكن القوة المبتغاة تبنى بالنار وبقتال الأعداء لأخذ الحقوق المفتقدة التي لا يسلّم هاضموها بردها:

قل: لا وأتبعها الفعال ولا تخف   وانظر هنالك كيف تحنى الهام
إني رأيت الحق فصل خطابه   يتلوه فينا الفيصل الصمصام
إصهر بنارك غُلّ عنقك ينصهر   وعلى الجماجم تركزُ الأعلام
وأقم على الأشلاء صرحك إنه   من فوقها تبنى العلا وتقام
وخذ الحقوق إليك لا تستجدها   إن الألى سلبوا الحقوق لئام
ما حكّ جلدك مثلُ ظفرك يا فتى   يا حرّ لا تتصبّك الأوهام
هذي طريقك للحياة فلا تحد   قد سارَها من قبلك القسّام (37)

وقد حفلت المقطوعة الشعرية السابقة بأفعال الطلب، فهناك الأمر: قل، واتبع وانظر واصهر وأقم وخذ.

وهناك النهي: لا تنصبك فلا تحد كما ذكر من أسلحة الفارس الفيصل الصمصام في حال فعل، وعدّ من أحوال الفارس النار والإنصهار والجماجم والأعلام والأشلاء. ولكن هذا الفعل لا يتعدّى أخذ الحقوق من سالبيها، وليس الإعتداء على حقوق الآخرين بحال، لأنه يعد ظلماً في هذه الحال.

ولا ينتظر الشاعر قوة أجنبية تسعف في أخذ الحقوق لكنه يعتمد على القوى الذاتية ويسير على درب المخلصين المضحين من أبناء الأمة، كما فعل القسّام.

وتستمر لغة الشاعر الملتهبة الدافقة، المصطبغة بالدم، ورموز القوة من سيوف ورماح، وتهون عليه روحه، في حين يراها الناس ثمينة، ويتمنّى ألا يرى هذا العالم، الذي لا يعلو فيه غير الفاسق، يقول:

هل غير سيل من دمٍ دافقٍ   يروي غليلَ الساخط الحانق

أم غيرُ لألاء الظبا والقنا   يزيلُ من قلبي دجى الغاسق؟

روحي عبءٌ مثقل عاتقي   لِإن ألقي العبء عن عاتقي؟

تغلو على الناس ولكنني   أبيعها للناس بالدانق

يا ليتني أشلاء في مهمهٍ   مثلثةُ الناعب والناعق

وأغمض العينين عن عالمٍ   لا يعتلي قبته سوى الفاسق(38)

ويذكرنا البيت الثالث بالفوارس من شعراء الخوارج، ومنه قول غزالة الخارجية:

أحمل رأساً قد مللت حمله

وقد مللت غسله ودهنه

ألا فتى يحمل عني ثقله

(الأصفهاني أبو الفرج، الأغاني طبعة دار الكتب 150/6).

كما يذكرنا البيت الخامس بالصورة التي أوردها أبو حمزة الشاري في خطبته "تناوشته سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء" (صفوت أحمد زكي، جمهرة خطب العرب 476/2).

وإيمان الشاعر بالقوة يتكرر دائماً، وهذه القوة ينهض بها جنود الوطن الأشداء، يدفعون المعتدي ويجابهون الصعاب ولا يشكون، فالشكوى دليل ضعف، يناقض الدعوة إلى القوة، يبدون في الحرب كالأسود، ويجيبون دعوة المنادي، أباة لا يصبرون على إضطهاد، وهم مستعدون دائماً للحرب يتشوّفون إليها، ويمضون في طريقهم، متّحدين في الصف والهدف، مع أبناء البلاد، في صد المعتدي مهما ظاهرته قوى الشر يقول:

فللأوطان أجناد شداد   يكيلون الدمار لأيّ عاد

يلاقون الصعاب ولا تشاكي   أشاوس في ميادين الجهاد

تراهم في الوغى أسداً غضاباً ... معاويناً إذا نادى المنادي
بني وطني دنا يوم الضحايا ... أغرّ على ربا أرض المعاد
وما أهل الفداء سوى شباب ... أبيٍّ لا يقيم على اضطهاد
ومن للحرب إن هاجت لظاها ... ومن إلاّكم قدح الزناد
فسيروا للنضال الحق ناراً ... تصب على العدا في كل واد
ولا تقفوا إذا الدنيا تصدّت ... لكم وتكاتفوا في كل ناد(39)

ويلاحظ في الأبيات جو الصراع، وملامح الفروسية والقوة، وقد تلوّنت بمعانٍ إسلامية. فالجهاد والفداء يوحيان بالمد الديني العقدي في الصراع، وتشير عبارات الأوطان، وأرض المعاد، وبني الوطن إلى أن هذا الصراع يدور على أرض فلسطين. أما بقية الصور الشعرية، فلا تكاد تفترق شيئاً عن صور الفروسية الجاهلية.

ويشي البيت الأخير بضراوة الهجمة الإستعمارية حيث كانت بريطانيا القوة الأولى التي لا تغيب عنها الشمس، تهيئ السبل لإقامة الكيان الصهيوني على أنقاض كيان الشعب الفلسطيني، تظاهرها في ذلك كل قوى الشر.

ويرينا الشاعر سرعة إستجابته إلى نداء الوطن المستهدف الذي يطلب العون من أبنائه المخلصين ليجودوا بالروح في سبيل دفع العدوان عنه:

دعا الوطن الذبيح إلى الجهاد ... فطار لفرط فرحته فؤادي
وسابقتُ الرياح ولا افتخار ... أليس عليّ أن أفدي بلادي
حملتُ على يدي قلبي وروحي ... وما حملتهما إلا عتادي(40)

ويقدم الشاعر على التضحية فرحاً، مقبلاً على الجهاد، وهي إستجابة عفوية صادقة. ويلاحظ أن شاعرنا يورد ضمير المتكلم، لأنه صاحب الفعل، وبذلك كان الشاعر معبراً فعلاً عن واقع الكفاح.

ولا يتبادرن إلى الذهن أن فعل الفرد منقطع عن فعل الجماعة، فصوتها صوت الشعب يتحدى الصعب ويجابه الأعداء:

شعب تمرّس بالصعاب ... ولم تنل منه الصعاب
لو همه انتاب الهضاب ... لدكدكت منه الهضاب
متمرد لم يرض يوماً ... أن يقرّ على عذاب(41)

وقد فهم الشاعر معادلة الصراع في أن القوة هي سلاح الأعداء ضد أبناء شعبه، وهي قوة غاشمة لا تفترق عما يسود الغاب. ولذا يطلب الشاعر أن يستمر النضال، وألا يتراجع، لأنه يناقب بصره يرى ما ينتظره أهل الوطن، وأن الشهادة هي التي تخط مصير البلاد، وليس زعامات أحزاب مرتبطة في الأغلب بالأجنبي وتناضل بالكلام فقط، وليس بالفعل، والحق عنده لا يرجع بغير طريق القوة:

يا أيها الشعب العظيم	أجدت للمجد الطلاب
من عاش ما بين الوحوش	يكن له ظفر وناب
إن لم تكن ذئباً تخاف	فرتك أنياب الذئاب
أشهرت سيفاً قبل نصر	لا تعده إلى القراب
إن ثوّب الداعي لحرب	نحن أول من أجاب
قد سطر القلمُ الشهيد	مجداً فحوى الكتاب
"فشل الذي تخذ الكلام"	محنةً غمي وخابْ
الحق ليس براجع لذويه	إلا بالحراب
والحملة الشعواء تجدي	لا التملق والعتاب
والنار تضمنُ والحديد	لمن تساءل أن يجاب
حكمهما فيما تريد	فيهما فصلُ الخطاب(42)

وفي الأبيات إشارة تاريخية إلى ثورة 36، وقد أجهضت عن طريق القيادة الفلسطينية، في حينه، بوساطة ملوك العرب المرتبطين ببريطانيا، نزولاً عند نيتها الحسنة في فلسطين، حسب إدعائهم.

وينتقد الشاعر أسلوب السياسة في حل المشكلة منطلقاً من روح الكفاح والفروسة في شعبه، وللقلم عنده رسالة مقدسة فهو شهيد كما الفارس، وقد فرّق بين القول والفعل، ورأى أن القوة تكمن في الإقتران بينهما، واستعمل أسلوب القصر في أن الحق لا يعود لأصحابه بغير القوة، ويورد الكلمات التي تدل عليها، فمن المجد إلى الظفر والناب والذئب، والسيف والحرب والقلم والحراب والنار والحديد.

ولا ينني الشاعر عن ذكر القوة المتمثلة في أدوات الحرب داعياً إلى التسلّح بها، لدفع الشر عن الوطن، ويرى أن البطش أمر مبرر، وأن الظالم يجد عذراً في قوته، وقد أمر الإسلام بالقوة في محكم آياته. كما أن هجرة المصطفى مع صحبه كانت خطة إعداد للعودة الظافرة، وإنسياح الجيوش التي تحقق المجد، وليست ـ كما يتبادر إلى الذهن ـ تعبيراً عن ضعف، وقد أثبت التاريخ أن أولئكم الرجال صنعوا المجد المؤثل للأمة.

فليحل السيفُ ما عقده … غادرٌ بيّتَ للأوطان غدره
ليس مثلُ البطش في الدنيا فكن … باطشاً يرهب أهل الأرض شره
ضيع المضعوف لا ظفر له … ونجا المضعوفُ لو طولَ ظفره
قوة المرء له حجةٌ … وهي إن يظلم ثقف في الناس عذره
"وأعدوا" لم يقلها ربكم … عبثاً فلتحسنوا في الذكر نظره
لم تكن هجرةُ طه فرة … إنما كانت على التحقيق كره
كانقباض الليث ينوي وثبة … وانقباضُ الليث في الوثبة سوره
ورمى في السوح أبطالاً لهم … فوق ساح الموت تمراح وخطره
وانجلى العثير عن هاماتهم … كللت بالغار من مجدٍ وفخره
ركزوا أرماحهم فوق العلا … وحدا الحادي بهم عزاً وشهره
وترى حدّ حمانا ناقصاً … كل يوم شطرة من بعد شطره(43)

وفي البيت الأخير يرينا الشاعر فرقاً واضحاً بين المجد الغابر الذي صنعته الفرسان العرب، الذين ساروا على النهج القرآني، والواقع الحالي المر حيث إضمحلت أسباب القوة، وأصبحت البلاد تقتطع جزءاً وراء جزء، والموازنة بين الحالين تعمق من سوء ما آل إليه الشعب. ويرينا الشاعر إلف فرساننا القدماء للموت حيث يمرحون ويخطرون فوق ساحه، ويحققون به المجد الأثيل لأمتهم.

لكن الشاعر وهو يعيش الواقع البائس لا يفقد الأمل في أن تتجاوز الأمة ذلك الواقع، ويرى في الماضي حافزاً لمستقبل تغدو فيه الأمة أقوى:

لم تزل أسيافنا مسلولةً … في العوادي ماضيات الشفرات
فلقت هام الألى من قبلكم … وهي في هاماتكم في المُقبلات
قد يلوم من شباها ضربةٌ … تقصم الظهر وتغدو بالحصاة(44)

وقد وحّد الشاعر بين أعداء البلاد الذين احتلوها من قبل، ثم أرغموا على الخروج منها، ويتوعد المحتلين بالمصير ذاته.

وتتسم فروسية عبد الرحيم محمود بصفات الفارس العربي المتوارثة عبر السنين، في ثوب إنساني عصري، يكفل حرية الفكر ويدعو إلى أن الإنسان خلق بفطرته حراً، رحيماً بالضعيف من الناس كالشيخ والمرأة والطفل:

ورحمنا عجز الشيوخ وضعف الطفل ... والعرضَ عرض ذات الخدور
ورثينا للعبد يرغمه الذلُّ ... وللحرِّ في قيود الأسير
وشفقنا على العقول فحللنا ... سماء الخيال والتفكير(45)

ولنا أن نلحظ جماعية هذه الصفات من خلال ضمير الجماعة، فالشاعر يتمثل قومه، وليس شخصه فقط.

ويوازن الشاعر بين هذه المبادئ السمحة، وما فرضه المستعمر الأجنبي على الشعب من قيود تسلبه حريته، وتصرف أعماله إلى وجهة غير وجهتها الحقيقية:

فإذا برمتَ فأنت عاصٍ آبق ... وإذا نقدت فجاهلٌ هدام
والحر وابن الحر ليس مطيةً ... يُعطي ويكبحُ أصغريه لجام
فيقول حقاً ليس يخشى لائماً ... والحق أجملُ ما حوى الإسلام(46)

فمن يضيق بسوء الأحوال يعد عاصياً، ومن ينتقد الأوضاع فنقده هدام، وهذه أمور غريبة على المجتمع، لأن الإسلام لا يمنع قول الحق، بل يشجع عليه لأنه من أجمل ما فيه، كما يرى شاعرنا.

وفي البيت الثاني من النص السابق ينتصر الشاعر لحرية الإنسان الذي لا يقبل أن يلجم كما الحيوان، فله أن يعبر عن رأيه، وأن يقول لما يعتقده، ومن باب الإنسانية الواسع يعجب الشاعر ممن يرحم الحيوان، ويصطنع محبته، ويقاسمه ثروته، في حين يحرم أخاه الإنسان من كل هذه المزايا:

يا راحم الحيوان من آلامه ... هلاّ رحمت من العناء أخاكا
قاسمت قطك في رخائك أمريكن ... أولى ابن آدم في اقتسام رخاكا(47)

وهذه أفكار مستقيمة، ترفع الإنسان إلى الكرامة الآدمية التي يستحقها، ولكنها قد تضيع في مجتمعات تدعي أنها وصلت إلى قمة الحضارة في عصرنا.

ومن صفات الفارس الشجاعة حتى في مواجهة الموت، ولذلك ينكر الشاعر أن يقعد الإنسان عن حماية وطنه من الأعداء جنباً، ويسخر منه سخرية مريرة:

وقلت لمن يخاف من المنايا ... أتفرق من مجابهة الأعادي؟
أتقعد والحمى يرجوك عوناً ... وتجبن عن مصاولة الأعادي؟
فدونك خدر أمك فاقتعده ... وحسبك خسّة هذا التهادي(48)

ويرى فيمن يجبن أو من لا يستجيب فوراً لنداء الوطن، رجولة ناقصة تجعله لا يبرح حجرة أمه.

ومع أن الشاعر يركز على البعد الوطني الفلسطيني، فهو يعي الجانب الآخر من هوية الفلسطيني العربية الإسلامية، وهذه الصورة تكمل الصورة الوطنية وتدعمها، وكثيراً ما يرجع الشعراء إلى ماضي الأمة، يقول:

أيها العربُ وأنتم أمة   مضربُ الأمثال في أخذ الثأر
أتقيمون على حمل الأذى   أيها العربُ وإبعاد الجناة(49)

فالعرب يدركون ثأرهم، ولا يصبرون على الأذى والتهديد، ويتضح هنا أن الشاعر يمتح من معين المتنبي في قوله:

واحتمال الأذى ورؤية جانيه   غذاء تضوى به الأجسام(50)

ويحارب الشاعر كل مظهر ضعف في حاضر الأمة، ومن ذلك تقليد الأجنبي تقليداً أعمى، مما يؤثر سلباً على الشخصية العربية، والشاعر يعي خطط المستعمر لمحاربة اللغة القومية، ويفخر بإنتسابه لأمة العرب الماجدة:

أبناء عمي من نزار ويعرب   ليسوا بأعراب ولا أعجام
يترسمون الغرب حتى يوشكوا   أن يعبدوه عبادة الأصنام
ما قلدوهم مبصرين وإنما   تبعوا تقاليدهم بغير نظام
حرب على لغة البلاد وأهلها   ليست تشن بمدفع وحسام
إن تسألوا عني إلى من أنتمي   فإلى رعاة النوق والأغنام
أبغير مجد بني نزار ويعرب   يزهى عراقيٌ ويفخر شامي؟(51)

وإنتماؤه إلى شعبه وأمته واضح لا لبس فيه، ولا يملّ شاعرنا من الفخر بماضي الأمة وقوتها:

أصغت الدنيا لنا وامتلأت   أذْنُها بدوي الزمجرات
عزت العُربُ وعزت دارُها   تنبت الأساد فيها كالنبات(52)

فالأرض العربية ولود، تصل ماضي الأمة بحاضرها، والمجد والقوة لا يقتصران على جيل سابق، ويؤدي الفعل المضارع (تُنبِتُ) إستمرار البطولة وصفات الفروسية في الأمة من قديم إلى اليوم.

ويعمد الشاعر الفارس إلى تاريخ العرب وكيف قاتلوا الطغاة، ويعود لصفات الفروسية فيهم، فلم يهونوا، وهم أحرار لا يعبرون عن ضيم، وقد رفضوا لحكم الأتراك، وثاروا ضدهم عندما تبيَّن تعصبهم للجنس التركي ضد الأجناس الأخرى:

العرب ما خضعوا لسلطة قيصر … يوماً ولا هانوا أمام مُغير
لا يصبرون على أذى مهما يكن … والحر إن يُسَم الأذى لم يصبر
والترك قد كبروا وأنا معشر … كِبْرٌ وفوق تكبر المتكبر
وإذا به أمر نبيُّته لهم … تحت الأسنة والقنا السَّمهري(53)

في هذا الإباء المتصل من ماضٍ بعيد حينما أدان العرب حكم القياصرة، ومقاومتهم للحكم التركي عندما إعتد بطورانيته المتعالية على القوميات الأخرى، تبدو صفات ثابتة في العربيّ، ويطيب للعربي تذكرها لأن القوة تتجسَّد فيها:

هات حدث حين كنا لهباً … صلي المحرق منه كلُّ عات
حين هال الكون منا مارقي … من إباء ومضاء وثبات(54)

وقد عرف العالم هذه القوة، وعجب من الصفات العربية التي تعلو بالإنسان وتجعله أبياً قاطعاً في الأمور، ثابتاً على الحق وهذه القوة موجهة ضد الظلم، ولذلك فإنها لا بد أن تفلح في النهاية.

وقد عضد الإسلام من أسباب القوة المادية والمعنوية عند العرب، وأكد القيم الإنسانية السمحة التي تعلقوا بها وأولها الحرية، وحارب العبودية في العالم، فخرج الجند الذين يحملون رسالة التحرر من الصحراء العربية، لتنير طريق البشرية، وكان للفروسية العربية تلك الأثر الحاسم في النصر:

قوم طه بين الخلائق قوم … قد أعدوا لكل أمر خطير
قوم حرية أعدهُم الله … ليتلو رسالة التحرير
في عبيد يصب كسرى عليهم … سوطه ظالماً وجام التكبر
واستجار الحق المضيع بالعرب … فكانوا الغياث للمستجير
لم تك القادسية الشهيرة … غير السطر في سفر عز شهير
من صميم الصحراء طافت على الأرض … تريح الدجى مشاعلُ نور
فأنارت ديجور أفئدة عمي … كانت تهيم في ديجور
نحن لم نحمل السيوف لهدر … بل لإحقاق ضائع مهدور
نحن لم نرفع المشاعل للحرق … ولكن للهدي والتنوير

نحن لم نطعن الضمير ولكن ... بقنانا احتمى طعين الضمير
كان فينا نصر الضعيف المعنى ... والجبارُ الحطم المكسور(55)

وبذلك جاء الإسلام محرراً من الحكام الظالمين، وكانت القادسية معلماً من معالم ذلك الطغيان، وإنارة السبيل لأمة الفرس لتستشعر حريتها. ويؤكد الشاعر إستمرار الدور الإيجابي في الأمة العربية بعد أن أصبح الإسلام الوجه الآخر لهويتها. وإن القوة العربية الإسلامية التي عبّر عنها الشاعر بضمير الجماعة، نحن. ما زالت تحمل للعالم رسالة خير، كلها نور وهدى. وفيها عون الضعيف، ونصر للمظلوم، وإجبار للمكسور. ولعل الشاعر هنا يعرض بما قارفه المستعمر من إستغلال وإستعباد وعكس واضح للمبادئ والمثل الخيّرة. ويستمد الشاعر صدق تجربته من وهج حقيقة المستعمر في فلسطين التي ترسم في واقع البلاد ظلالاً مأساوية.

ويرى الشاعر الفارس في الهجرة النبوية عنصر قوة تعضد الحق، فمن أجل فكرة نصرة العقيدة قد ضحى المهاجر بالمال والأهل، وهذا درس للأجيال العربية الآتية. يقول في يوم الهجرة:

فيه أن الحق إن حصّنه ... قوةٌ لم يستطع ذو البُطل قهره
فيه أن المالَ والأهل إذا لم ... يحورا ضحيا من أجل فكره
فيه إن همّ الفتى فليستحر ... لا يخف ضحضاح ما ينوي وغمره
شرعة علمناها المصطفى ... ليتنا نمشي على الشرعة إثره(56)

فالدين الإسلامي، والحوادث العظيمة فيه، تقدم الأمثلة الناصعة على القوة المبتغاة، في صراع الحق الذي يمثله الشاعر مع الباطل الذي يمثله أعداؤه.

وفي نضال الشعب الفلسطيني ضد أعمال بريطانيا وأهدافها الخبيثة في قلب المنطقة العربية، فلسطين، مثال على قدرة شعب صغير على مقارعة إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس:

نحن الألى هاب الوجود ... وليس فينا من يهاب
وسل الذي خضع الهواء ... له وذل له العباب
هل لانّ عود قناتنا ... أم هل نبت عند الضراب؟(57)

ويلحظ في قول شاعرنا إمتلاؤه بضمير الجماعة "نحن"، كما أورد صورة بريطانيا التي كانت قوتها مضرب المثل في البحر والجو، وأتى بعود القناة مضافاً إلى ضمير المتكلم عند الجماعة، وهو تعبير تراثي لا يزال يوحي بالقوة إذا انتفت عنه صفة اللين.

ويرينا شاعرنا الفارس كيف حالف العرب بريطانيا في الحرب العظمى الأولى، وقدموا لحليفهم العون بكل إخلاص وتفانٍ، لكنه بعد النصر، غدر بحليفه العربي وقدم وعداً لليهود، بإقامة كيان لهم في قلب

الوطن العربي، فلسطين وقام بالخطوات التي تكفل تنفيذ الوعد من إحتلال فلسطين إلى صك الإنتداب، وتهويد البلاد شيئاً فشيئاً:

وأتى الحليفُ وقام في أعتابنا		متحيراً إنا هدى المتحير
واستنصر العرب الكرام وإنهم		غوثُ الطريد ونصرة المستنصر
وإذا عتاق العرب توري في الدجى		قدحاً وتصهل تحت كل غضنفر
وإذا السيوف كأنهن كواكبُ		تهوي تلامعُ في العجاج الأكدر
رجحت موازين الحليف ومن تكن		معه يرجح بالعظيم الأكبر
وبنت له أسيافنا صرحاً فلم		يحفظ جميلَ العُرب يا للمنكر
في ذمة الرحمن صرعى جُدّلوا		وعلى ثرى بدم الرجال مُعصفر
غدر الحليفُ! وأي وعد صانه		يوماً وأية ذمة لم يَخفُر
لما قضى وطراً بنصل سيوفنا		نسي اليد البيضاء ولم يتذكر
وإذا الدم المهراق لا يحرقه		جدوى ولا ينبعه المتحدر
يا ذا الحليف سيوفنا ورماحنا		لم تنكسر فاعلم ـ ولم تنكسر
بالأمس أبلت في عداك، وفي غدٍ		في قلب كل غادرٍ متحجر
تغلي الصدور وليس في غليانها		إلا نذير العاصف المتفجر
ولقد تصبرنا عليك فلم نُطق		منك المزيدَ ولات حين تصبر
هذي البلاد عرينتنا. وفدىً لها		من نسل يعرب كلُّ أسد مضر(58)

وفي الأبيات السابقة تأثر بالموروث. من ذلك قوله في الخيل الأصيلة العربية "توري في الدجى قدحاً". مأخوذ من قوله تعالى: "فالموريات قدحاً" (العاديات 2). كما يذكرنا البيت "وإذا السيوف..". ببيت بشار بن برد:

"كأن مثار النقع فوق رؤوسنا		وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه".

وثمة تأثر بالقرآن الكريم في قوله: "لما قضى وطراً". مأخوذ من قوله تعالى: "فلما قضى منها زيد وطراً.." (الأحزاب 37). كما يذكرنا البيت "يا ذا الحليف". بقول الأحنف بن قيس لمعاوية "إن السيوف التي حاربناك بها لم تزل في أغمادها.." وقد اصطبغت أرض فلسطين بدم رجالها دونما جدوى، لأن المعركة كانت في سبيل

بريطانيا. فالقوة هنا ذهبت في غير سبيلها الصحيح. وأصبحت هناك ضرورة لمقاومة الحليف الغادر الذي أحال العرب ميزان القوة لصالحه لكنه غدرهم. ويستفاد من ذلك أن القوة العربية المتمثلة في رجالها ومالها ينبغي أن تستغل فيما يرتقي بأمة العرب لا فيما يعين أعداءهم! وقد اشتهرت السياسة البريطانية بميكيافيليتها. التي جعلتها تتحالف مع العرب. ثم تنقلب عليهم لمصالحها التي تناكر مصالح الأمة العربية. وقد اكتوى الشعب الفلسطيني. وما زال. بنار هذه السياسة.

ومن موضوعات شعر الفروسية عند شاعرنا الرثاء. رثاء النفس. ورثاء القائد المضحي في سبيل الوطن. ففي قصيدته "الشهيد" التي لهجت بها ألسنة الفلسطينيين والعرب. يصور فارسنا مماته. ويفلسف رأيه في الحياة والموت. فهو مستعد لبذل الروح. وتهون عنده حياة لا يسر فيها في الصديق ولا يسوء فيها العدو. وتصوره للحياة أنها كفاح في سبيل تحقيق أمانيه أو موته دونها. بل إنه يرى الوطن مهدداً وهو لا يقبل ذلك. ويريد لأمته مكانتها بين الأمم.

سأحمل روحي على راحتي   وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق   وإما ممات يغيظ العدا
ونفس الشريف لها غايتان   ورود المنايا ونيل المنى
وما العيش لا عشت إن لم أكن   مخوف الجناب حرام الحمى
إذا قلت أصغى لي العالمون   ودوى مقالي بين الورى(59)

ولعل سر ذيوع هذه الأبيات. عفويتها وصدقها. مما يجعلها تمس شغاف القلوب بسرعة. وتتسم الأبيات بحسن التقسيم الذي يضعنا أمام نفسية الفارس التي ترى الموت ليس نقيضاً للحياة. بل إنه يعطيها المعاني المرغوب فيها. ولا يستقيم العيش الحق دون الإستهانة بالموت.

ويرسم الشاعر صورة مصرعه قبل أن يتحقق هذا المصرع في الواقع. ويفصل في الصورة. ويعرضها في غير معرض. وقد جَمَّل الشاعر الفارس صورة الموت وحببها إلى الأنفس. فقد علت وجه الشهيد إبتسامة. وهو هانئ في رؤى حلوة. ودلّنا على إنتفاء الصفات التي تخل بصورة الفارس. وهو أنه لا يصبر على ضيم الحاقد ولا يحتمل الأذى. وهو لا يخاف الموت. ويحرص على الإباء. ويحتفظ بشجاعته المعنوية. ويقوم بما يطلب منه وطنه. وشعبه. فهو إبن بار لهذا الشعب. وقوام في أفضل أحوالها. في خدمة أهدافه النبيلة.

لعمرك إني أرى مصرعي   ولكنْ أغذ إليه الخطا
أرى مصرعي دون حقي السليب   ودون بلادي هو المبتغى
يلذ لأذني سماع الصليل   ويبهج نفسي مسيل الدما
وجسم تجدل في الصحصحان   تناوشه جارحات الفلا

فمنه نصيب لأسد السماء ... ومنه نصيب لأسد الشرى
كسا دمه الأرض بالأرجوان ... وأثقل بالعطر ريح الصبا
وعفر منه بهي الجبين ... ولكن عفاراً يزيد البها
وبان على شفتيه ابتسام ... معانيه هزء بهذي الدنا
ونام ليحلم حلم الخلود ... ويهنأ فيه بأحلى الرؤى
لعمرك هذا ممات الرجال ... ومن رام موتاً شريفاً فذا
فكيف اصطباري لكيد الحقود ... وكيف احتمالي لسوم الأذى
أخوفاً وعندي تهون الحياة ... وذلاً وإني لرب الإبا
بقلبي سأرمي وجوه العداة ... وقلبي حديد وناري لظى
وأحمي حياضي بحد الحسام ... فيعلم قومي بأني الفتى!(60)

فطلب الموت هنا في سبيل حق سليب يتعلق بوطنه. وهو في سبيل ذلك يستعذب منظر الدماء، ويجد لذة في صوت السيف. ولا يتبادر إلى الذهن أن فارسنا مصاب بالسادية، إذ أن هذه الصفات كانت ردات فعل على محاولة الأعداء من إنكليز وصهاينة إحتلال أرضه وتشريده وإذلاله. وتذكرنا صورة مصرعه "فمنه نصيب" بصورة أبو حمزة الشاري الخارجي لفرسان الخوارج "فتناوشته سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء". كما تلوّنت الأشعار بالأساليب الخبرية والإنشائية. ووردت صور تعمّق صورة الموت، يلذّ، ويبهج، والأرجوان، والعطر، وريح الصبا، والبهاء والإبتسام، وحلم الخلود وأحلى الرؤى، وهي تناقض تمام المناقضة الصورة الأخرى التي تسلب الحياة. المصرع، والصليل، ومسيل الدم، وجسم مجدل، والصحصحان، والجارحات، الفلا وأسد السماء والشرى، وكسا الدم الأرض، وعفر الجبين البهي. ويدلنا ذلك أن الشاعر يعشق العيش الكريم في أرضه، ولكن الأعداء يريدون له هواناً. الموت أفضل من الحياة فيه. إنه موت يعلي من شأن الفارس لأنه يحمل رسالة خيرة في هذه الحياة. لا تملك غير الإعجاب بها.

وقد تحققت رؤيا شاعرنا باستشهاده. وسبق أن رأينا في شعرنا العربي القديم تجربة مماثلة للشاعر الفارس مالك بن الريب التميمي يرثي فيها نفسه إبان إندفاعة الفتوحات الإسلامية. ولكن تجربة شاعرنا منتزعة من واقع بلاده. ومن شعور موحد مع أبناء بلده الغيورين على عزتها، وإن كلفهم ذلك الحياة!

وثمة قصيدة أخرى قالها فارسنا في رثاء الفارس القائد المجاهد عبد الرحيم الحاج محمد، أبي كمال، الذي استشهد في آذار 1939 . وأرانا أثر استشهاده على الثائرين الذين فقدوا قائدهم. وكيف بكته النسوة في الوطن. وقد إستشعر أبناء فلسطين أثر الفقد، وكيف أنه سيبقى ذكرى طيبة، بعد أن كان يرجو مثل هذا الممات، الذي أشبه العرس، وأهدافه خيرة بناءة:

جعلوا من كل صدر مسكنا لارتفاع بك عن سكنى اللحود
كل قلب لك فيه مصحفٌ فيه من ذكرك قرآن خلود
أيها القائد هذي ميتةٌ طالما رجيتها منذ بعيد
مصرع الأبطال ما بين الحديد في الميادين ورفّات البنود
هذه أعراسهم صاخبةٌ عزةُ الدفّ بها قصفُ الرعود
فيروون الثرى من دمهم ويحنون به كفّ الصعيد
ويزفون عليهم حُلل من نجيع الحرب تزري بالبرود
تخرق العاني أنفاسهم ويذيبون بها غلّ القيود
وعلى أكتافهم تجني المنى ويشاد الصرح للعيش الحميد(61)

وقد تأثر شاعرنا بالصور الموروثة عن الإسلام وأنه حي ويزف إلى حور الجنة، ودمهم النازف يودي بالحياة، يروي ثرى البلاد فيحييها، ودم الشهيد في كفه خضاب، وكأنه في عرس، والموت في سبيل غايات خيرة تخرق الظالم، وتذيب القيد، وتحقق الأمنيات الطيبة بحياة في ظلال الحرية للوطن والمواطن.

ومن تمام تناول موضوع الفروسية في شعر عبد الرحيم، عرض صورة المرأة والخمر عنده، وتبين ملامح تلك الصورة، ومدى قربها من الصورة المعروفة في الشعر العربي لأولئكم الفرسان من الشعراء العرب السابقين وقد كانوا في معظمهم يخضعون للمحبوبة، ولا يرون في ذلك تطامناً في قوتهم وبأسهم لكن فارسنا يخالف المعهود إذ يقول:

إن قلباً بالجوى أحرقته سوف أذروه بعينيك رماداً
وخضوعاً كان بي فيما مضى سيصير الآن كبراً وعنادا
وإذا حنّ فؤاد للّقا فسأجتث من الصدر الفؤادا
واهجريني وابعُدي عني فلا أرهب الهجر، ولا أخشى البعادا(62)

وتعبّر الأبيات عن طبع شاعرنا الفارس حتى في المواقف العاطفية، فمع إعترافه بأثر العاطفة فيه، لكنه لا يستمرئ الخضوع، وليس يريد قلباً بضعف، وقد عبّر شاعر العربية الأكبر وفارسها، المتنبي عن موقف عاطفي في علاقته بسيف الدولة وكان أكثر رقة من شاعرنا، عندما رأى قلباً يحنّ إلى سيف الدولة الغادر به، ليس قلبه إذا اشتكى(63)، يقول المتنبي "فلست فؤادي إن رأيتك شاكياً". ويبدو تأثر فارسنا بأبي الطيّب في غير موضع، ففي قول عبد الرحيم:

حيّ الظباءَ السارياتِ كواكبا المورثات العاشقين مصائبا(64)

تأثر بقول المتنبي:

حيي الشموس الجانحات غواربا ... اللابسات من الحرير جلاببا(65)

وهو تأثر بالوزن والقافية وبالروح العامة المسيطرة، وليس في التفاصيل وفي قصيدة عبد الرحيم ذاتها يصور فكرة طريفة بإعترافه بالهزيمة في حربه مع صويحباته. إذ يقول:

رحماك يا جيش الحبائب قد رفعتُ الراية البيضاء وجئتك تائباً

فكأن العلاقة بين الشاعر والمرأة علاقة حرب، تنتهي بإستسلام أحد الطرفين، ويقبل هنا بالهزيمة، واختياره كلمة "جيش" يقربه من روح الفروسية في هذا الميدان العاطفي. كما أن إستسلامه، على أية حال، يعيده إلى صورة الفروسة المتوارثة، مع الفارق هنا أنه صوّر معركة هو وحيد فيها، والطرف المقابل يعجّ بالكثرة. فكأن المسألة حرب في الحقيقة، وهذا قريب من مذاهب الشعراء العرب في تصوير تلك العلاقة وربطها بالحرب وأدواته.

وينظر شاعرنا إلى المرأة، نظرة تفترق عن نظرته هو كرجل، وقد رأينا أنه يشرك في المحبة إذا كانت من طرف المرأة، فثمة جيش حبائب. لكن عندما يتعلق الأمر به هو، لا يرضى بالمساواة، تعبيراً عن مجتمع رجال لهم حقوق في المجال العاطفي، لا تتمتع بها المرأة بحال.

روحي فما الإشراك من مذهبي ... ولست أرضى في حبيبي الشريك

أنا "أناني" ولم أرض أن ... أرى على قلبك غيري مليك

أبوك لو أوليته نظرة ... كرهت دنياي ودنيا أبيك(66)

وقد نتفهم وجهة نظر شاعرنا الفارس، لو اقتصر على إمرأة واحدة شأن معظم الشعراء الفرسان، ولكنه يؤكد ذلك في أكثر من موضع. إذ يقول:

مخلوقة أنت فلا تكبري ... مثلك بين الناس ألفا مثيل(67)

ويقول:

غداً أرى غيرك لي وافيا ... وأبدل الحبَّ بحب جديد(68)

ويبدو من كثرة أشعار الشاعر في الوطن مقارنة بالمرأة أن الحب الذي ملك لبّ الشاعر، وهو حب الوطن، لم يدع عنده مجالاً لحب آخر، وبذلك اهتزت صورة المرأة المحبوبة، ووجد الشاعر بدائل عديدة لها.

وكثيراً ما اقترنت صورة الفارس العربي بالخمر، وقد قرن شاعرنا بين الخمر والمرأة، يقول:

نشوان من ريق الحبيب ... وسحر ألحاظ ودل(69)

ويقول في موضع آخر:

هات اسقني واحلل ... براحك عقدةً زمّت لساني
إني أراني إن ظمئت ... إلى الطلاعيِّ البيان
يوحي إليَّ الكأسُ ما ... يوحي فيعززني بثان
لتشيع في قلبي الحزين ... رؤى رجاها من زمان
أطفئ صداي فإنني ... جفت على شفتي الأماني(70)

تبدو في النص معانٍ إيجابية للخمر، فهي تجعل اللسان ينطق المعاني المخبوءة العصية. وهو معنى متداول من قديم في الشعر العربي. وفي قوله في البيت الثالث "ما يوحي" دلالات ممتدة تتأبى التحديد. والحزن المسيطر في الأبيات ليس وجودياً لكنه مستمد من الواقع السيء الذي يحياه الوطن في ظلّ الهجمة الصهيونية الإستعمارية.

ويرى الشاعر في الخمر دواء لا تستطيع الموسيقى الرائعة أن تبلغ أثره. يقول:

دع عنك رائعة الأغاني ... جفت على شفتي الأماني
"أرفوس" ليس بمستطيع ... أن يسعد لي جناني
أدرِ الكؤوس مليئة ... وذر المثالث والمثاني

بل بالدنان فعاطني ... لا أرتوي بسوى الدنان
هات اسقني كأساً لأنسى ... فوق أرضك ما كياني
هات اسقني حتى أحلّق ... من سمائي في العنان
وأفرُّ من شرك الزمان ... ومن أحابيل المكان(71)

إنه يريد أن ينسى واقعه السيء لكن أنى له ذلك؟ إنه يشعر بثقل المأساة التي تحل بأرض شعبه، وتزلزل كيانهم. فصوت الفرد مندغم في صوت الجماعة، ولا مهرب من مواجهة واقع الإحتلال الذي ينيخ بثقله على أرض فلسطين. والخمر لا تنسيه هذا الواقع إلا قليلاً، ثم تمثل المشكلة بحدة أكبر أمامه.

ويلتمع الهم الجماعي، ودور الشاعر في مقارعة الظلم، ووعيه التام بالنتائج المترتبة على نضاله من تضحيات في قوله:

لغير فؤادي بابنة الكرم سكرةٌ ... وسلوى وعمري هام في عطر الريِّق

وما سكري إلا دمُ الظلم مهدراً ... ومن لحمه نُقلي وفي القحف إبريقي
ولم يكن الظلُّ الذليلُ بمقعدٍ لنفسي ... ولكن عثيرُ الحربِ مشرقي
سأفلق قلبَ الظلم أبغي طريقهُ ... إلى الحقِّ كيما يسلك الناس طريقي
يحاولُ تفريقي عن الحقِّ باطلٌ ... وحقك لن يستطيع ذو الحول تفريقي
سأطلب حتى لا أكلُّ مجاهداً ... ولو كان تمزيقي هناك وتحريقي(72)

فالخمر عنده وسيلة للتعبير عن الفروسية، فدمها المسفوح دم الظلم، ولحم الظلم نقله، والقحف إبريقه!

وفي البيت الأول يبدو تأثر شاعرنا بمعنى تردد عند أكثر من شاعر فارس، لعل أقدمهم هو الشريف الرضي في قوله:

لغير العلا مني القلا والتجنب ... ولولا العلا ما كنت في الحب أرغب

ثم محمود سامي البارودي في قوله:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيري باللذات يلهو ويلعب
وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ... ويملك سمعيه اليراع المثقب

فلكل واحد من هؤلاء الشعراء الفرسان هَمّ عام يمنعه عن الإستمتاع بما يلذّ الآخرين. فالشريف الرضي من الشيعة الذين كانوا يتطلعون إلى دولة. والبارودي شاعر فارس من قادة الثورة العرابية، وقد دفع ثمناً لذلك، بنفيه سبعة عشر عاماً من مصر إلى سرنديب. ويتأكد معنى أن الشاعر الفارس لا يلتفت إلى ما يُبعده عن المعالي، فهو يرى نفسه أكبر من أن يتعلق بلحن مطرب يستخفه، أو بلذة عادية تهم عامة الناس، وله علاقة ما بالخمر والمرأة.

خاتمة

بدا لنا من خلال البحث أن ظاهرة الفروسية العربية القديمة، لها إمتداد واضح يتمثل في شاعرنا خير تمثيل. وقد وضح ذلك في حياته التي جبلت على الفروسية، وفي إختياره سلاح الفرسان، ثم في إبتعاده عنه بعد ما تبيّن له أنه في خدمة المستعمرين ويناكر أهداف شعبه في التحرر والإستقلال. وقد عمد إلى تثقيف أبناء شعبه وتعليمهم بأسلوب تربوي يكون فيه التاريخ جزءاً من تدريس اللغة العربية، ثم انخرط في الثورة التي سطع لها حضور قوي في شعره، وتبنّى مبدأ القوة الخيّرة البصيرة التي تقاوم الظلم ولا تبغي غير الحق، ويلتقي في ميدان القوة عنده القول والفعل، والفرد والجماعة.

وكانت إستجابة الشاعر للقتال تلقائية مبدئية، وهو يدرك إختلال موازين القوى لصالح الأعداء، لكنه آمن بأهداف شعبه، ولم تنهزم روحه بحال، وقد صوّر مصرعه قبل أن يحدث، وندب قائده عبد الرحيم الحاج محمد. وقد أدى شاعرنا الفارس واجبه من الناحيتين المعنوية بأشعاره الداعية إلى القوة، والمادية بدمه، فكان مثال الإلتزام، ودعا شعبه إلى ما أراده، وكان قدوة يُحتذى بها في التطبيق لما يدعو إليه.

وقد كثر في شعر فارسنا ذكر أدوات الحرب القديمة، وخاصة السيف والرمح والقناة، وصفاتها، وبدت في أشعاره لمحات من الفرسان القدماء، ولا سيما المتنبي، وكانت تعبيرات ترمز إلى فروسة عربية حديثة، وتحمل هموم الوطن في هذا العصر الذي طغى فيه المستعمر. أما أشعاره في الحب والخمر، فقد تبدى حب الوطن فيها على ما عداه، وكانت لغته تناسب القوة التي يدعو إليها. ولم تبد قسمات المرأة المحبوبة، كما صوّرها الشعراء الفرسان عنده إلا فيما ندر، كما اتخذ الخمر وسيلة لتجسيد الفروسية، ومحاربة الظلم.

وتمثّلت في شعر فارسنا سمة الفارس العربي الذي يضحّي من أجل فكرة يؤمن بها، ودلّنا على وعي نافذ بالحوادث الإسلامية المهمة ولا سيما الهجرة النبوية، ومناحي القوة فيها، وقرن بين ماضي الأمة العزيز، وحاضرها المرير الذي أراد أن يغيره إلى الأفضل، وآمن بذلك إيماناً عميقاً، كما كست أشعاره غلالة إنسانية رقيقة مستمدة من إنتمائه العربي الإسلامي تنتصر للحرية. وبهذا دلل على إنتماء عربي واضح، جعله يرفض ظلم الترك، وينكر غدر الإنجليز وميكيافيليتهم.

ويظلّ جانب الفروسية عند كثير من أدباء العصر الحديث في حاجة ماسة إلى دراسة، تتبع سماته، وتدرس خصائصه عند غير عبد الرحيم من الأدباء الفرسان وخاصة في عصرنا الحديث، ومن هؤلاء الأمير عبد القادر الجزائري، ومحمود سامي البارودي، وغسان كنفاني، وماجد أبو شرار، وغيرهم. ومن تمام الفائدة ربط مناحي فروسيتهم بصنوها في أدبنا العربي القديم، وملامح حياتهم في العصر الحديث.

هوامش:

(*) الكاتب أستاذ مساعد في جامعة الخليل.

(1) القيسي د/ نوري حمودي، الفروسية في الشعر الجاهلي، ط 2 "عالم الكتب" و"مكتبة النهضة العربية" ـ بيروت 1984 ص 13 . وانظر أيضاً إبن منظور اللسان مادة (فرس).

(2) نفسه ص 27 ـ 28.

(3) نفسه ص 195 ـ 197 . وقد أرانا غير شاعر جاهلي صورة منصفة للأعداء، منهم عمرو بن كلثوم فارس تغلب في قوله:

كأن سيوفنا فينا وفيهم ... مخاريق بأيدي لاعبينا

كأن رماحنا منا ومنهم ... خضبن بأرجوان أو طلينا (الزوزني، شرح المعلقات السبع، ط 2 ص 176).

(4) نفسه ص 56.

(5) نفسه ص 243.

(6) نفسه ص 255.

(7) نفسه ص 265.

(8) إبن عبد ربه، العقد الفريد 3/245.

(9) نصر، د. محمد إبراهيم. "الخيل والفروسية في الإسلام". طـ 1. "دار الكتاب السعودي" ــ الرياض 1986 ص157.
(10) نفسه ص 167.
(11) الشوباشي. محمد مفيد. "رحلة الأدب العربي إلى أوروبا". "دار المعارف" ــ مصر 1968 ص188.
(12) نفسه ص209.
(13) القيسي. د. نوري حمودي. مرجع سابق. المقدمة بقلم د. يوسف خليف. ص9.
(14) "دار الشعب". "الموسوعة العربية الميسرة" بإشراف محمد شفيق غربال طـ 1 دون تاريخ. مادة (فروسية). ص1296.
(15) هلال. د. محمد غنيمي "الأدب المقارن" طـ 5. "دار العودة والثقافة" ــ بيروت. ب. ت ص203 ــ 204.
(16) نفسه ص205 ــ 208.
(17) الشوباشي. محمد مفيد. "رحلة الأدب العربي إلى أوروبا". "دار المعارف" ــ مصر ــ 1968 ص140 ــ 141.
(18) هلال. د. محمد غنيمي. مرجع سابق ص209.
(19) مورهيد. ألان. "النيل الأزرق". ترجمة د. نظمي لوقا. "دار المعارف" ــ مصر 1966 ص104.
(20) نفسه ص118.
(21) نفسه ص127.
(22) محمود. عبد الرحيم. ديوان "روحي على راحتي". حققه وقدم له حنا أبو حنا. "مركز إحياء التراث العربي". الطيبة. المثلث 1985. المقدمة بقلم حنا أبو حنا ص26 ــ 27.
(23) نفسه ص29 ــ 30
(24) محمود أديب رفيق وطارق عبد الكريم. "عبد الرحيم محمود بين الوفاء والذكرى". "مركز إحياء التراث العربي". طـ 1. 1990 ص16.
(25) محمود عبد الرحيم. "الديوان" ــ مرجع سابق ص31 ــ 33.
(26) نفسه ص34.
(27) نفسه ص42 ــ 43.
(28) محمود أديب رفيق. مقالة بقلم طارق عبد الكريم محمود بعنوان: "خواطر وذكريات". مرجع سابق ص18.
(29) جبرا إبراهيم جبرا. "الرحلة الثامنة". وانظر أيضاً المرجع السابق ص116.
(30) محمود. عبد الرحيم. "الديوان". ص146.
(31) نفسه ص168.
(32) نفسه ص167.
(33) نفسه ص211.
(34) نفسه ص215.
(35) نفسه ص223.
(36) نفسه ص214.
(37) نفسه ص137 ــ 139.
(38) نفسه ص157 ــ 158.
(39) نفسه ص152 ــ 153.
(40) نفسه ص151.
(41) نفسه ص107.

(42) نفسه ص109 ـ 110.
(43) نفسه ص143 ـ 145.
(44) نفسه ص166.
(45) نفسه ص128.
(46) نفسه ص134.
(47) نفسه ص208.
(48) نفسه ص151.
(49) نفسه ص168.
(50) المتنبي، ديوانه، شرح البرقوقي 4/216.
(51) محمود، عبد الرحيم، "الديوان" ص119 ـ 121.
(52) نفسه ص164.
(53) نفسه ص87.
(54) نفسه ص163.
(55) نفسه ص125.
(56) نفسه ص143.
(57) نفسه ص108.
(58) نفسه ص87 ـ 89.
(59) نفسه ص101 ـ 103.
(60) نفسه ص101 ـ 103.
(61) نفسه ص95 ـ 96.
(62) نفسه ص263 ـ 264.
(63) المتنبي ديوانه، شرح البرقوقي 4/419.
(64) محمود، عبد الرحيم، ديوانه ص303.
(65) المتنبي، ديوانه، شرح البرقوقي 1/250.
(66) محمود، عبد الرحيم، ديوانه ص268.
(67) نفسه ص307 ـ 308.
(68) نفسه ص307 ـ 308.
(69) نفسه ص320.
(70) نفسه ص180.
(71) نفسه ص177.
(72) نفسه ص207.

رسالة القدس

ورشة عمل حول "الحركة الفنية الفلسطينية ـ واقع وطموحات وآفاق تطور"

عقد "مركز الفن الشعبي" في مدينة البيرة هذه الورشة التي شارك فيها مجموعة من الفنانين والمثقفين الفلسطينيين، بالإضافة إلى عدد من ممثلي المؤسسات الرسمية والأهلية، لتكون بمثابة عامل مساعد ومنشّط لوضع الحركة الفنية الفلسطينية. وقد أثارت الورشة كثيراً من النقاش والتفاعل وخرجت بعدة توصيات من شأنها أن تنشط وتدعم تقدم الحركة الفنية الفلسطينية.

امتدت الورشة على مدار يومين كاملين. وقد افتتح خالد عليان، مدير "مركز الفن الشعبي" فعاليات "الورشة" بكلمة ترحيبية وأكد على أهميتها وأهدافها.

وتناولت "الورشة" العناوين التالية:

• "تحليل نظري لواقع الحركة الفنية الفلسطينية وآفاقها المستقبلية": أدار هذا اللقاء محمود أبو هشهش (منسّق النشاطات في المركز) وتحدث عن هذا الموضوع د. حسين البرغوثي (محاضر دائرة الفلسفة والدراسات الثقافية في جامعة بير زيت) وقدم ورقة بعنوان "مأساة زرقاء اليمامة". كما تمّ قراءة ورقة مقدمة من الأستاذ محمد البطراوي (مدير عام وزارة الثقافة) حول الموضوع نفسه بعنوان "نحو إستراتيجية للعمل الثقافي في فلسطين".

• "دور المؤسسات الرسمية في دعم وتنشيط الحركة الفنية": أدار هذا اللقاء ياسر شلبي (الباحث الميداني في المركز) وتحدث فيه كل من يحيى يخلف (وكيل وزارة الثقافة) حيث قدّم مداخلة حول "دور وزارة الثقافة في تنشيط الحركة الفنية الفلسطينية". وقدم كل من الأساتذة ميرفت عيّاش من وزارة التربية والتعليم ود. موسى برهوم من مركز تطوير المناهج الفلسطينية، مداخلة حول موضوع "التربية والتعليم والمنهاج الفني".

• "المسرح الفلسطيني": أدار هذا اللقاء الفنان وليد عبد السلام (مدير دائرة المسرح في وزارة الثقافة). وقد تحدث حول موضوع المسرح كل من الفنانة المسرحية إيمان عون (عن مؤسسة "عشتار") وقدمت ورقة بعنوان "ربع قرن للمرأة على خشبة المسرح (تمثيل ـ تجسيد ـ تشخيص) ـ التجربة الفلسطينية في

الضفة الغربية". وقدم الفنان أحمد أبو سلعوم (عن المسرح الشعبي "سنابل") مداخلة بعنوان "المسرح الفلسطيني – واقع وطموحات وآفاق تطور".

• "الفن التشكيلي": أدار هذا اللقاء التشكيلية الفلسطينية العائدة. لطيفة يوسف، وشارك فيه كل من الفنان سليمان منصور وقدم مداخلة بعنوان "الفن التشكيلي في فلسطين" والفنان جمال الأفغاني بورقة عنوانها "رؤية الفن التشكيلي في بناء مجتمع مدني فلسطيني".

• "الأنا والآخر": والتي أدارها خالد الغول وتحدث فيها كل من الروائي إميل حبيبي، رئيس تحرير مجلة "مشارف"، والكاتب محمود شقير. وقد دار الحديث حول العلاقة الثقافية والفنية مع الآخر في الوقت الحاضر ورؤية كل منهما لها في المستقبل.

• "الموسيقى الفلسطينية": أدارتها سيرين حليلة وقد تحدث فيها كل من الموسيقي سهيل خوري (مدير دائرة الموسيقى في وزارة الثقافة) وقدم ورقة بعنوان "الموسيقى الفلسطينية. تاريخ – واقع – رؤية مستقبلية". كما قدم الموسيقي نبيل عازر (فرقة "بعاد") مداخلة حول موضوع "صياغة جديدة لأعمال تراثية".

• "الرقص الشعبي الفلسطيني": أدارتها سيرين حليلة. تحدث حول هذا الموضوع الفنان محمد عطا (من فرقة "الفنون الشعبية") وقدم ورقة بعنوان "تجربة ورؤية فرقة الفنون الشعبية للرقص الشعبي الفلسطيني". كما تمّ قراءة ورقة مقدمة من خالد عليّان (المدير الفني لفرقة سرية رام الله) بعنوان "الرقص كلغة تعبير بين الأصالة والمعاصرة".

• "السينما الفلسطينية": أدار لقاء السينما ربيع الكردي وتحدث فيه كل من المخرج السينمائي رشيد مشهراوي. وكانت مداخلته حول "السينما الفلسطينية في الداخل". وتحدث المخرج محمد سوالمة حول "السينما الفلسطينية في المهجر". وحضر هذا اللقاء المخرج العائد غالب شعث. كمشارك.

وعلى مدار اليومين أمّ المركز عدد من المهتمين والمثقفين ليشاركوا في فعاليات هذه الورشة. وجاء من "مركز الفن الشعبي" أنه سيعمل على إصدار فعاليات الورشة في كُتيّب. حتى تكون مرجعاً للمهتمين والدارسين. لما اشتملت عليه من أوراق ومداخلات ونقاشات وتوصيات هامة ومجدية.

رسالة من تل أبيب

الحنين إلى لغة أخرى..

محمد حمزة غنايم

نجحت آلاف الكلمات العبرية التي كُتبت إثر اغتيال إسحق رابين في إثارة الإنطباع بأن الأجواء مهيأة في الشارع الإسرائيلي لإعادة النظر في كل ما يخصّ مسألة "حرية التعبير"، من قريب أو بعيد.

ولعل أبرز مظاهر هذا الأثر هو ذلك التحوّل الذي جرف المعسكر الإسرائيلي "المتنوّر" بين الأقطاب، فمن جهة، وجدناه يضفي شرعية معينة على السماح بقتل الشخصية بالكلمات، وذلك عندما صمت إزاء تلك الشعارات التي امتلأت بها شوارع مدن بأكملها، تحمل معاني الحث على القتل، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك بوضوح. ومن جهة ثانية وجدنا نفس المعسكر يضفي شرعية على ما اعتبره أنصار "حرية التعبير" مرة "كمّ أفواه" لمعسكر بأكمله، وجد نفسه متّهماً بتهيئة المناخ الذي سبق القتل: الإغتيال بالكلمات! ثم القتل الحقيقي، ولكنه غير المفاجئ.

في الأيام الأولى التي تلت إغتيال رابين كان الذهول مسيطراً على الجميع، والآلاف من أبناء الشبيبة اليهود الذين ملأوا الساحات المركزية في المدن العبرية الكبرى، وخاصة تل أبيب والقدس، باتوا يتحدثون لغة أخرى، اختفت منها تلك التعابير السوقية أو ذات "النبرة الشبابية" المفتعلة، الدخيلة على اللغة، القائمة على الصراخ، والمحاكاة، وابتكار لغة "محلية" فيها الكثير من النشاز. هذه الشبيبة باتت تتحدث الآن لغة أفكار جديدة، فيها الخوف من المجهول بوفاة "الأب" يدفع الجميع نحو زوايا التأمل والتفكر وإعادة النظر فيما كان مُتاحاً ومشروعاً ومسيطراً إلى حد قريب.

على هذه الأرضية نشأت دعوة الكاتب المعروف عاموس عوز أبناء شعبه للتأمل. قال: "إنني أنصح أصدقائي المقربين بأن يجرّب كل واحد منهم القليل من العزلة.. فهي فرصة نادرة للتأمل.. وما أحوجنا لذلك الآن".

"ما أحوجنا..". بعد أن كانت قد اختفت الحدود بين الشتيمة السياسية والتحريض، أو بين الإحتجاج والتشهير أو الهذيان المجنون والتهديد الفعلي بالقتل.. وصار للشعار وقع السحر على النفس الإسرائيلية، إلى درجة أن الكثيرين نسوا ما قد يجرّه "القول" ـ باسم "حرية التعبير" ـ من "فعل". قد وقع فعلاً وحرّك

مناطق كانت ميّتة في اللغة والفكر، وتهيأت لها الأجواء بقتل رابين، من جديد.

كان الأدباء أوّل من تنبّه لذلك، واستشرف التحوّلات على مستوى "ثقافة الشارع"، التي يزعم البعض منهم أنها أنبتت القتل، لكن الذهول المسيطر على الجميع جعل الخوف من المستقبل يُنبت الإحساس بأهمية الإنتماء للعائلة الواحدة، الكبيرة، التي ستتسامح إلى درجة احتمال التحريض اليميني، باسم حرية الفكر والمعتقد، وصار شعار "الشعب الواحد، الجميل"، يشمل أيضاً أصحاب الأفكار البشعة، وغير الجميلة على الإطلاق، وخاصةً تلك التي تتهيّأ منذ زمن للإنتقام، ومن العرب بالتحديد.

هذا الحرص على تلمّس جوانب التغيير في لغة الحوار والكلام العادي، لدى الإسرائيلي "العادي"، أساساً، غيّب الأساس في هذه القضية، وهو أن الأهم، الآن، هو ما تتضمنه لغة "الشعب الواحد، الجميل"، وليس الشكل الذي تُقال به.

لغة "البوستر" (الملصق) السياسي الإسرائيلي تغيّرت قبل ذلك بكثير، منذ اللحظة التي علّق فيها اليمين الإسرائيلي صورة رابين بزي ضابط "إس. إس" ألماني، إلاّ أن الإهتمام العملي بالأفكار جعل قضية المضمون ذات أهمية كبرى في الحوار المطروح منذ القتل، بين "دولة إسرائيل" (التي تتمثل بدولة "كلّ مواطنيها"، كما يرى بعض رموز اليسار الإسرائيلي) وبين "دولة يهودا" (التي "نزلت للعمل السرّي"، حالياً، وبعد مقتل رابين، في المناطق الفلسطينية المحتلة، وبالتحديد في المستوطنات).

وماذا الآن؟

هذا سؤال يلحّ كثيراً على معظم الكتّاب والمفكرين في إسرائيل، وقد أوجزه الكاتب مئير شليف في الكلمة التي كتبها خصيصاً في ثلاثين رابين: "الآن، جاء دور الذاكرة، سلاح الميّت الأخير، وحربة أصدقائه. وهكذا، من خلال التذكّر، سننتقم له، لا بحروب أهلية، ولا بقبيلتين منقسمتين، بل بالسلاح القديم، سلاح اليهود المجرّب، بالذاكرة الطويلة جداً والحادة. نحن، الذين نتذكر كافة الكلاب الضالة في تاريخنا، سنتذكر هذا القتل أيضاً، سنتذكّر من المقتول، ومن القاتل، ولن ننسى".

وبنفس القدر الذي نجد فيه مئير شليف يراهن على "سلاح اليهود المجرّب"، نجد عاموس عوز الأديب العبري العائش في عراد بالنقب، يكتب على الصفحة الأولى من "يديعوت أحرونوت" تحت عنوان "زاوية القاتل"، منددًا بالإعلام الإسرائيلي الذي يوفّر لقاتل رابين فرصة عقد المؤتمرات الصحفية والتهليل ليس لأفكاره فحسب بل للقتل أيضاً، "...وفي الوقت ذاته، في مكان ما، في العتمة، يجلس القاتل "الفكري" القادم، يتأمله بتبجيل وحسد، تماماً مثلما فعل هذا القاتل عندما أحسّ بالغيرة من طقوس القدسية البشعة التي نشأت حول شخصية القاتل من الحرم الإبراهيمي، واستمدّ منها الإلهام...".

وبالمرارة نفسها يواصل عوز: "...وفيما يخصّ الإذاعة والتلفزيون: لماذا لا تمنح القاتل زاوية أسبوعية ثابتة، أو زاوية يوميّة، يمكنه من خلالها، وبإسم حق الجمهور بالمعرفة، أن يربّي جيلاً من حَملة لوائه ومواصلي دربه؟...".

سينقضي وقت طويل حتى يفيق الجميع من هول الصدمة، وستبقى أسئلة كثيرة لم تطرح بعد إجابات لها، لعلنا نتطرق لبعضها في الرسالة القادمة.

رسالة غزة

من عبد الله تايه

من منشورات "إتحاد الكتّاب الفلسطينيين" ـ قطاع غزة

صدر حديثاً عن منشورات إتحاد الكتّاب الفلسطينيين في قطاع غزة ديوان شعر "فصول كلها تموز" وهو باكورة أعمال الشاعر علاء الغول. ويضم الديوان العديد من القصائد التي نشرها الشاعر في المجلات والصحف المحلية بين السنوات 92 ـ 1995.

فنون

• أقامت اللجنة الفنية لمجلس إتحاد الطلبة في جامعة القدس المفتوحة، فرع قطاع غزة، معرضاً للفن التشكيلي لطلبة الجامعة وفنانين من خارج الجامعة في 11/12 وتمّ إفتتاح المعرض على شرف د. عبد الرحمن المزين، الأمين العام لإتحاد الفنانين الفلسطينيين، واستمر المعرض ثلاثة أيام.

• فنان الكاريكاتير العائد، تيسير الغصين، أقام معرضاً فنياً يوم 11/11 في قاعة "جمعية الشبّان المسيحية" بغزة، وافتتح المعرض مازن عزّ الدين، المفوّض العام بالنيابة. واشتمل المعرض على لوحة فنية صوّرت وجسدت المعاناة للشعب الفلسطيني. قام بتنظيم هذا المعرض "دائرة الثقافة والفنون" بمديرية التوجيه السياسي والمعنوي، وهو المعرض الأول للفنان على أرض الوطن. حيث أقام الفنان الغصين معرضين سابقين في صنعاء في 1990/89.

ندوة في "إتحاد الكتّاب" ـ غزة

أقام إتحاد الكتّاب الفلسطينيين بغزة ندوة للأستاذ الناقد د. عدنان قاسم، أستاذ النقد الحديث، بعنوان "المدخل النفسي بين النقد الأدبي وعلم النفس التحليلي". وجاء في حديث الدكتور: "يخوض الأدباء ـ عادة ـ تجارب شعورية تتخللها معاناة فتولد قلقاً يحرّك ملكة الإبداع على نحو يجعلها قادرة على إنتقاء الألفاظ وتشكيلات الصياغة. وإذا أراد الناقد أن يتعرف إلى الأديب الإنسان فلا بد أن يستكنه الأغوار السحيقة في النفس الإنسانية حتى يتبين العلاقة الجدلية القوية بين ما تحويه تلك الأعماق من عواطف وإنفعالات وبين الألفاظ وتشكيلاتها الفنية". وأشار د. عدنان قاسم إلى أن "دراسات الأسلوبية البنيوية في

بعض تياراتها اتخذت المدخل النفسي غاية من غاياتها التي تسعى لتحقيقها". وأضاف: "من الغريب أن ينتقل النقّاد العرب المعاصرون الذين حملوا لواء هذا الإتجاه النفسي إلى الشعر العربي القديم ينقبون فيه عن شخصيات صالحة لإخضاعها لمثل هذه الدراسات النفسية وطبقوا أصوله تطبيقاً يكاد يكون حرفياً في كثير من الأحيان وأغفلوا النص الأدبي من حيث هو فن وتركزت دراساتهم حول نفسيات المبدعين من الشعراء وأمراضهم. وقد انكبّ د. عز الدين على النصوص الشعرية، قديمها وحديثها، ولم تكن جهوده مقصورة على القديم كما هو الحال عند العقّاد والنويهي مستقصياً أبعادها الإنسانية والجمالية متغوراً في خفاياها". واختتم قائلاً: "إن رضانا عن تلك الدراسات النفسية يحدده اقترابها أو ابتعادها عن جوهر الفن. وهو ما يمكن إجماله في جانبين: الخصائص السيكولوجية للمتلقّين وخصوصيات النص الأدبي. وهو ما بدا أولى خطوات النقد العربي القديم حتى وإن كانت مقاربات أولئك النقّاد ذات طابع مبسّط". وتمنّى د. عدنان قاسم لو أن النقّاد العرب المعاصرين نمّوا تلك العناصر على نحو يتكافأ مع تطوّر العلوم والفنون في عصرنا.

"البيان"

صدر العدد الأول من مجلة "البيان" في غزة في تشرين الأول/ نوفمبر/ 1995. وهي مجلة إسلامية وطنية شاملة تصدر عن "مركز البيان للثقافة والإعلام" ويشترك في تحريرها عدد من أعضاء إتحاد الكتّاب في القطاع. وتضمنت مواضيع مختلفة سياسية وإسلامية وثقافية ومواضيع حول الإنتخابات الفلسطينية القادمة. وجاء في "تأملات" للشاعر محمد حسيب القاضي: "يولد الفلسطيني تحت خيمة، ويعيش تحت خيمة. والمطلوب دائماً وأخيراً أن يموت ويُدفن تحت خيمة دون علم أو نشيد على حدود الزمن العربي المعطل". وجاء في كلمة أحمد شعث، عضو الاتحاد حول المؤسسة العلمية الفلسطينية: "لا يجرؤ أحد مهما بلغت قامته على إنكار حق الفلسطيني في ممارسة الدمقراطية والتحرر من الجمود والتقليد المثبط للعزائم والهمم. وقد بدأت بلدنا تشهد نهوض شعبنا لتحقيق شخصيته الحضارية المعاصرة بسماتها وطوابعها المتعددة من جديد بعد حقب الشتات وهوان الهجرة القسرية على أرض الوطن المقدّس".

"الحكماء والسكران"

"الحكماء والسكران" مسرحية للكاتب د. علي عودة صدرت في غزة. وهي مكتوبة بالعربية الفصحى من ثلاثة فصول يعرض فيها الكاتب قضية المثقف العربي وعلاقته مع النُظم الحاكمة ومع الجماهير العربية. وتعتمد المسرحية على توظيف التراث وإسقاطه على الواقع العربي المُعاش. وتطرح علاقة المثقف المتوتر الحالم، القلق، بالنظام الحاكم، وعلاقة الأنظمة العربية بالدوائر الأجنبية، وموقف المثقف من المحاولات المستمرة التي تبذلها الأنظمة لتهجينه والسيطرة عليه وشروط الموقف الصلب والقوي للمثقف.

إصدارات جديدة

علي عبد الأمير

كلمة:

خفوت الكتابة أم خفوت الكاتب؟

نسمع ونقرأ كثيراً عن تحوّل الكتاب إلى طريقة بدائية في تداول المعرفة ونقلها. كذلك في التعبير عن أنشطة التجربة الإنسانية العديدة. غير أننا أيضاً نجد ونحن نتداول في هذا الشأن، ظواهر كثيرة يثيرها نشر كتاب أو بحث معرفي جديد. خذ مثلاً كتاب الألماني غونتر غراس الجديد "حقل واسع". أو الطبعة الجديدة لأعمال الشاعر الأمريكي آلن غينسبرج وما رافقها من تقديم جديد من قبل الشاعر ذاته وبموازرة موسيقية من أحد نجوم الموسيقى المعاصرة بول مكارتني. كذلك ما أنجزه القاص العراقي المبدع محمد خضير في مجموعته "رؤيا خريف" والذي خرج بالهدم والرعب الأسطوريين اللذين حلاّ بمدينته (البصرة) أقصى جنوب العراق. ومن مدار الوقائع الرهيبة إلى تعبيرات عميقة تجسدت في (أسطرته) للمكان. ونقل حياته إلى ميثولوجيا وغرائب وتنهدات خفية. هذه الأمثلة تجعل الكتاب، اليوم وغداً، مأثرة من مآثر الوعي عند الإنسان وطريقة من طرق تداول المعرفة. وليس بالضرورة إنتقال شكل الكتاب من الصفحات الورقية إلى الإشارات الرقمية المدمجة في قرص الحاسوب الألكتروني. إن الأيام ستكشف عن إهمال كثير سيصيب الكتّاب الرديئين أصحاب الأرواح الخافتة وغير المؤثرة بينما الكتابة ستظلّ مفتوحة الآفاق أمام الإبداع وبشتى أشكاله.

"كتاب المراثي" لعبد الوهاب البياتي

فصلٌ آخر من سيرة سارق النار...

عن "المؤسسة العربية للدراسات والنشر"، صدر حديثاً الديوان الجديد للشاعر عبد الوهاب البياتي، وفي مسافات باتت معروفة هي سيرته اليومية في عمّان حيث يقيم. قد تلقى البياتي وبهدوء بردّ على تحيتك



التي تنقل حفاوة ما منك بكتابه الجديد.

ماذا تقول في عرض موجز عن البياتي. شعراً وتأثيراً وفكرة؟ أتقول عن عنايته هنا بسيرة الغياب لأصدقاء وأهل وزملاء مسيرة في الكتابة؟ أتقول عن قدرة النص البياتي في الاحتفاظ بوهج الشعر وإشراقة اللغة على الرغم من اكتمال سياق النص وختمه بتوقيع مفرداتي لا ينسب إلاّ إلى البياتي؟

يمكن هذا كله وتمكن الوقفة النقدية المطوّلة أيضاً ـ لا ينسى الشاعر في ديوانه أن يخص النقد بواحدة من ألذع التوصيفات دون أن يخفي جزعه بمناهج القراءة النقدية الحديثة!!

"مرائي" وتوقيع شعري لفكرة الغياب. ودائماً أولئك "الذين احترقوا بحبهم":

يختبئ الربيع في أصابع "البيانو"
والدفء والحنان
وكلما مرّت عليه إصبع العازف
أهدى وردةً
إلى الذين احترقوا بحبهم
وماتوا.

ثمة نادية البياتي ورحيلها المفجع. ثمة الروائي العراقي غائب طعمة فرمان حين يغيب موتاً في منفاه. الشاعر والمفكر لويس عوض. والفنان الشهيد ناجي العلي. غيابات الجسد وحضور الفكر والأثر النفسي والروحي. هذه موضوعات لعب البياتي على تشكلاتها لغوياً وفكرياً. فجعلها منافي جديدة. تختصر سيرة ليست ذاتية جداً. بل هي تنفتح على الآخر الإنساني والمعرفي وبمراجعة لتاريخ طويل من الشقاء والغياب والعنت الذي واجهه المصير البشري. هنا كان من الطبيعي أن نجد إحالات عديدة في النصوص إلى شخصيات الفكر والمقاومة ورموز المعرفة وقراءاتها نصياً. بل هي أحياناً تتداخل مع بعضها لتصبح نوعاً من المراجعة الذاتية:

"ستون عاماً عمر موتي/ هكذا مت من الحياة/ ولم أزل أموت/ لم يبقَ سوى/ ضياء هذي الشعلة الزرقاء/ ووجهي الشاحب في المرآة/ وخطوة إلى الأمام وإلى الوراء/ ويسقط المصباح/ وها أنا أواصل الموت إلى القرار".

هذا ما يتكثف مضمونياً في قصيدة "الشاعر والقصيدة" لنجده يقدم مكشافاً لقراءة الديوان الذي عني بفكرة الغياب وتأثيراتها على تقديم معالجة لغوية تلتمع فجأة وتغيب: "وصار شعري نابضاً/ بكل ما ضيعته أو ضاع/ وشاهداً حياً على الحضور والغياب".

"جمرة النص الشعري"

عز الدين المناصرة.. بعض حكمة في القول الشعري



أملاً بتأسيس تيار (المنظور الثالث) في النقد الأدبي الحديث، يضع الشاعر والناقد الدكتور عزّ الدين المناصرة، كتابه "جمرة النص الشعري". فحسب المناصرة، تمحور نقد الشعر الحديث في منظورين أو تيارين أحدهما يمجّد جماليات الشكل ويتجاهل جمرة النص والآخر يمجّد المضمون أو المحتوى على حساب البنية الجمالية. أنقول عنه أنه منظور توفيقي؟ لا.. وليس الأمر بهذه السهولة، فالكتاب متعدد وغني فيه تقديم سلس للمعلومة ودقة محكمة في بناء الإستنتاج النقدي، يأخذنا فيه المناصرة إلى تاريخانية الشعر، وبيانات النقد الأولى للشعر، كمّ وافرّ من المعلومات وعرض هادئ للمعرفة النقدية. الكتاب صادر عن الإتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان ـ عمّان 1995، وكان في ثلاثة أقسام وبتسعة عشر فصلاً وسيرة أكاديمية فيه البحث الأكاديمي ورصانته ـ فصول كثيرة منه هي أوراق بحثية للتحصيل العلمي أو محاضرات جامعية ـ كذلك فيه مقاربات شخصية للشعر من جانب وللنقد من جانب آخر دون أن ننسى ذكر اللمسات الشخصية دائماً ما دفع المناصرة لأن يقترب من منهج شخصي في القراءة.

إنه (مقدمات نظرية في الفاعلية والحداثة) كما يقول العنوان الثانوي للكتاب، عرض وتحليل لمناهج النقد الحديثة وقراءة لرحلة مطوّلة للنقد العربي في أكبر معالم الأدب العربي الحديث، الشعر. إقتراب من القراءات السوسيولوجية، السايكولوجية، والشكلية للنص الشعري، ثم الإحتكام دائماً للشخصي من المعرفة والمتراكم من الخبرات. كتاب لا ينفك يذكرك ببعض ترجسية وبنقدات لاذعة لما هو سائد ومسلم به من أقوال وتوصيفات.. كتاب لا غنى عنها فعلاً لمن انحدر عميقاً إلى غواية الشعر وأجواء عوالمه. وحين نسأل هل حقق المناصرة (منظوره الثالث)؟ نجد بعض أجوبة وهوامش على السؤال، بل أن هذا المنظور كأنه يتشكل في المناصرة ذاته (شاعراً/ ناقداً). فهو الشاعر الذي يحاول التجديد في لغته وبنية قصيدته، وهو الناقد الذي لا يذهب إلى النصوص بمواقف الفحص النقدي المسبقة وآليات القراءة المتكونة قبل تشكل النص. المناصرة في كتابه "جمرة النص" كأنه يقدم الحكمة في بيان مطوّل عن جماليات القول الشعري.

"أخوة وحيدون" لمحمود الريماوي

نحو فضاء (النص). بعيداً عن توصيف نقدي ممكن

محمود الريماوي (بيت ريما/ رام الله ـ 1948)، وبعد خمس مجموعات قصصية، وهرولة لا تهدأ بين العمود الصحفي السياسي جداً في "الرأي" الأردنية، والأكثر اقتراباً من الحسّ المعرفي والنقدي التهكمي في "الحياة"

اللندنية. يطلع علينا هذه الأيام بكتابه "أخوة وحيدون ـ دار أزمنه عمّان 1995" وبعنوان توصيفي يقول: نصوص.

هذه النصوص هي خامات قصص قصيرة. مرّة تأخذ شكل القص. فنجد السرد والمتن الحكائي. ومرّة هي أقرب للنص الشعري (النثري) بل تختزل مواصفاته. وأخرى غير هذه وتلك. إذ تقترب من الإستعادات والمكاشفات الذاتية فتكاد تقترب من أدب السيرة الذاتية. هذا كله بلغة تترفع عن الشروح والأسانيد الأيديولوجية والمرجعية السياسية البحتة كما هو ديدن الرماوي في مقالاته. وتحتفظ لنفسها بإقامة إتصال مباشر في قذف الوقائع والحقائق إلى جهة المتلقي وتحقيق فعل الصدمة بينهما! أصفى ما في "أخوة وحيدون" كانت اللغة.. عنونة موجزة لمّاحة كما في (ثرثرة أيديهم) . (شين على سبيل السين). (هواء حر) وفي (معارضة الليل).

صفاء اللغة أجده وقد جاء نتيجة لانهماكات طويلة للرماوي في الكتابة فكان يشذب ويشذب حتى استقامت المفردة وأصبحت لا تجد الطريق وعراً إلى المعنى الذي تريده:

"حياة نعيشها.

تنادينا لنعيشها الآن وفوراً وعلى التو وهيا. وكما لم نفعل من قبل".

ما يحسب لتفوق كتاب (الرماوي). هو العناية الفائقة بمحمولات "النصوص". دون الوقوع في أسر جاذبيتها الواقعية. كذلك دون الوقوع في فخ النرجسية التي غالباً ما تدرك كتابة الذات. هو يعطيك الحقائق ويسميها ويترك أيضاً مساحة خاصة بك للتدقيق والمراجعة. لا حقائق ثابتة. لا تابوات. لا قناعات أزلية. كل ذلك في جو حميم يدفع بالنص نحو آفاق للتأويل والمراجعة. "وفجأة ينكسر كما ينكسر كل مجد أرضي. ينكسر وينحني عارياً مفرداً مثل الخطأ المكشوف. إنه لم يجن شيئاً وها هي يده تشق الفراغ عبثاً. وها هي روحه تلوب في الأعماق وحيدة عمياء ولها صرير".

"أخوة وحيدون" كتاب يبتعد عن إشكالية الجنس الأدبي ويقدم نصوصاً فيها الإستجابة لشرف الكتابة وغنى الإنهماك ووقدة الضمير وفتنة الإكتشاف أيضاً.

"رؤيا خريف" ـ مجموعة قصص لصاحب العزلة الذهبية محمد خضير..

محمد خضيّر القاص العراقي المعروف بكونه صاحب أقصى تحديث فني لبنية القصة القصيرة في العراق والوطن العربي. والذي أكد علوه الفني في مجموعته القصصية الأولى "المملكة السوداء" التي صدرت أوائل السبعينات. ثم مجموعته الثانية "في درجة 45 مئوي" نهاية السبعينات. عرف أيضاً بكونه الذاهب في أقصى عزلة شخصية فهو نادراً ما يغادر مدينته البصرة. وكانت المرات التي وصل فيها إلى بغداد قليلة ومعدودة. هذه العزلة تستطيع أن تسميها الإنكباب على تهذيب العقل والمعرفة لصالح إدخالهما في نصوص قصصية تميل لهما دون أن تتخلى عن متنها الحكائي الذي يوفر لها صفة جنسها وحيويته.

هذا ما حصل فعلاً مع كتابه القصصي الجديد "رؤيا خريف". الصادر في عمّان من قبل مؤسسة عبد

الحميد شومان والمطبوع في "دار أزمنة للنشر". فالقصص هنا تتحدث عن الوقائع بوصفها رؤى. هناك دائماً رؤى لا أحداث. ومن هذه الرؤى يمكن للكاتب أن يعيد تشكيل مديناته كما يريد دون أن يقطع عنها محمولاتها وإشاراتها الواقعية فتبدو وكأنها تحلق بجناح الفن وترحل إلى آفاقه الخلاقة في الوقت الذي تأخذ من الواقع بؤراً تشعّل تلك الرؤى وتدفع بها.

شخوص الأفكار والنسيج كله يبدو في القصص وكأنه يطلع من ميثولوجيات المكان. ثم تمضي الحكاية وبكل أزمانها إلى منطقة متخيلة. منطقة تعيد بناء ما تهدم ـ مدينة تطلع من خرائب ودمار حرب. هذه المدينة دائماً في قصص الكتّاب ـ وتحيل واقعها الدمي والمتشظي إلى نوع من المأثورات التي لا بد من إقامة علامات لها في المدينة. أبراج. عمارات. شكل جديد للمدينة ومن خلالها يمكن قراءة تاريخ الوقائع المرعبة التي تجسدت على أرضها. الكاتب هنا مسكون بيقين المكان وتحوله إلى نقطة إرتكاز جديدة للمعرفة. للمعالم الحضارية للحكمة. بل إن المعالم المتغيرة دائماً يختارها وهي تطابق يقين خروج المكان من شظفه وبؤس علاماته إلى الاندراج الطبيعي في البناء وتقويم الأثر وإصلاح ما تهدم. "اكتمل بناء المدينة. وحق لها أن ترتبط بإسم تعرف به بين المدن المحبطة التي تفتتت وحالت إلى خرائب. تلال وأعمدة مائلة". هذا التوق إلى إيضاح مستقبل سيأتي. تجده بؤرة فاعلة في أغلب قصص الكتاب وهذا التماثل المضموني تجده وقد شرحه الكاتب في مقدمة الكتاب:

"قصص هذا الكتاب. متضامنة. رؤياها واحدة. متكافلة في البراهين التي تجليها. متكافئة في النتائج. ولم تكن لتبدو كذلك حين نشرتها متفرقة. إذ أخذتها الظنون على إنها أقباس مشتتة. ترتضع من منابع بعيدة. وها هي ذي تجتمع وتتراص. تعرضها البراهين المتكاملة. رؤيا تتغذى من مراضع موضوع واحد. موطنه (بصريانا) وزمانه زمانها زمان حربها وسلامها".

"إشكالية العقل العربي بين الذات والآخر الجديد"

نحو أجيال جديدة. بنقاء الثلج. لإستعادة الثقة!!

عن "دار الطليعة للطباعة والنشر" صدر في نيسان/ إبريل من هذا العام كتاب الباحث ثابت ملكاوي المقيم في الإمارات العربية المتحدة. وبعنوان لافت يتعرض لإشكالية العقل العربي الراهن. أسئلته الملحّة. في الهوية. في النموذج العربي المطلوب. بل وتحديد الملامح الفكرية والحضارية للنموذج وهويته!

الكتاب وقع في جزئين. الأول حمل عنوان: إشكالية العقل العربي والثاني كان بعنوان: الصهيونية والعالم. وكأنه ـ أي الكاتب ـ وضع الظاهرة إزاء مسبباتها. أي أنه حاول الربط بين عبثية الوقائع العربية وظواهرها المرعبة وتخبطات العقل العربي إزاءها وعجز الفكر العربي (...) وبكل إتجاهاته عن قراءة تلك الوقائع جيداً وفهمها كنتيجة لتغييرات في صلب الأحداث العالمية وإتجاهاتها الفكرية. وبين (النجاحات) التي أصابتها الصهيونية حين أقامت دولتها على حساب فلسطين. لا بل ذهابها إلى أكثر من ذلك فعطلت آلية القطيعة مع العديد من الدول العربية وأقامت معها أكثر من قناة إتصال.

عن علاقة العقل العربي بالآخر. الآخر حتى بتحولات (حضارته) الأكثر حداثة. يقول المؤلف أنها اتسمت

بالإختلاف الشديد. فهو يصف "الحضارة العالمية". بأنها بنية إستهلاكية عالمية. قطب ينتج وآخر يستهلك. بل هي نمط إستهلاكي مادي تتوحد داخله تطلعات الإنسان على الكرة الأرضية. وللوصول إلى هذا لا بد من الآخر النظر في المفاهيم الثقافية المجتمعية للغير من دين. وتقاليد وتراث وغيرها. وعزل هذه المفاهيم عن أي فاعلية أو تأثير قد تعوق حركة عجلة النمط الإستهلاكي (الحضاري).

هنا لا بد من التساؤل فهل بحق كانت نجاحات الآخر العقلية والتقنية والإجتماعية المؤسساتية القائمة على فكرة الإختلاف وقابلية واسعة لإبداء الرأي. غائبة وغير ذي حضور سوى الطابع الإستهلاكي؟ "إشكالية" العقل العربي. تبدأ من إستحالة الإعتراف بعدم صواب الكثير من منطلقاته لا في رؤيا الأزمة ولا في حسن إدارة تلك الأزمة. من هنا. لزاماً القول أن أزمة العقل العربي. ليست بتلك الإستعدادات أو الدعوات على إستحياء للإتصال والإنفتاح والحوار. بل في المراجعة العميقة والجذرية لسوسيولوجيا الحكم. إن إقامة مؤسسات دستورية حقيقية. تكفل للدمقراطية (شرعية) وجودها وممارستها. هي الكفيلة دون غيرها بدفع قدرات العقل العربي نحو تحقيق بعض ما يصبو إليه في الإرتقاء بالواقع السيء لإنساننا العربي. دونما هدر الكثير من الوقت في معاينة الكارثة على طريقة الشاعر العربي القديم بالوقوف على الأطلال؟!

* علي عبد الأمير ـ كاتب عراقي يعيش في الأردن

رواق "مشارف"

القاهرة 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1995

السيد الأستاذ/ إميل حبيبي

تحية الإحترام،

تلقيت بالتقدير العدد الأول من مجلة "مشارف"، مجلة الأدب الفلسطيني

ويطيب لي أن أوجه لكم الشكر على هذه البادرة الطيبة

ومع تمنياتي لشخصكم، وللمجلة الجديدة بالإزدهار.

لكم تحياتي وتقديري

الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة

أ. د. جابر عصفور

جمهورية مصر العربية

* * *

حيفا 1995/10/8

إلى هيئة تحرير "مشارف"

تحية كبيرة،

لقد أجّلتُ، إلى الآن، الجواب والشكر على إرسال "مشارف" لي لأنني أردت التمعن بها أولاً. وبعد قراءتها قلت لنفسي أن الجواب على هذا الإنجاز العظيم ينبغي أن يكون كتابة، لا مجرد محادثة هاتفية.

ولسبب ما، ذكرتني مجلة "مشارف" بأيام التخبط والاضطراب في بغداد إبان الحرب العالمية الثانية حين كنت أسير في شارع الرشيد لشراء جريدة "الاتحاد" الآتية من حيفا البعيدة.

العالم العربي موجود اليوم في مفترق طرق من حساب الذات وفي أجواء من البحث الناضج والجريء نحو بلورة ثقافة قديمة عظيمة بصيغة جديدة تتلاءم مع المستقبل. وفي هذا السياق، تشكل "مشارف"، بمضمونها وبشكلها، مساهمة هامة، عميقة، جدية وشجاعة في معركة الثقافة والأدب العربيين هذه

إن الحيّز الكبير الذي تفرده "مشارف" لصورة الآخر لهو أحد الضمانات لتخليص الثقافة العربية من خطر الإنزلاق إلى سطحية الأبيض والأسود. وإنني أعتقد أن تصحيح المشوّه في هذا المجال ليس مهماً لصورة الآخر بقدر ما هو مهم لصورة الثقافة العربية ذاتها. وإنني أحيي صديقي إميل حبيبي على شجاعته واستعداده للوقوف على هذا المنبر الذي أنشأه بيديه وإطلاق رسالته المخلصة لشعبه. وأحيي جميع المساهمين في إصدار هذه المجلة.

لقد جاء كل ما كتب عن التكفير جواباً رائعاً لكل أولئك الذين يسعون لحبس الفكر العربي العظيم في قفص دجاج. المقابلة مع أدونيس وسّعت من معلوماتي وأعتقد أنه من الضروري ترجمتها إلى اللغة العبرية وعرضها كنتاج فكري لشاعر كبير في ثقافة كبيرة.

مع تحياتي وتقديري

سامي ميخائيل

• الكاتب روائي إسرائيلي معروف. عراقي الأصل.

* * *